في كل مرّة دافعتُ فيها عن رأيي وعن حقوقي كامرأة، وقلتُ "لا" في وجه الرجل والمجتمع الذكوري الذي يرفض سماع صوتي أو الاعتراف بحقي في الحياة بحرية، تم اتهامي بأنني مجنونة، مريضة، ومعقدّة.

مقدمة

بالرغم أنني أكاديمية، إلاّ أنني لستُ مهتمة بالجانب الأكاديمي للنسوية، لن أتطرّق في كتابي هذا عن كيف ابتدأت النسويّة أو لماذا أو كيف انتشرت أو من هم مؤسسوها. باستطاعة من يهتم بهذه المعلومات أن يستخرجها بكل سهولة من أعظم وأسرع أداة بحث عرفها البشر حتى الآن Google.

ما يهمني كامرأة عربية عاشت معظم حياتها في بلد ذكوري كالكويت، يطغى عليه النظام الأبوي الذي يصغّر المرأة، ويفضّل صمتها، هو تجربتي الخاصة مع الفكر النسوي الذي نشأ في إدراكي منذ صغري نشوءا عضويا، من دون تأثيرات خارجية.

نعم، هناك جوانب من التمييز الجنسي المشتركة بين كل نساء العالم، مثلاً التمييز في الدخل، التمييز في الفرص (فرص التعليم، فرص العمل، الفرص الاقتصادية، والفرص السياسية)، ومشاكل التحرش الجنسي. هذه الفروقات والمشاكل تعاني منها جميع نساء العالم تقريباً، مع تفاوت بمستوى الفروقات. لكن هذا لا يعني أن هناك حواراً موحداً في موضوع النسوية حول التمييز بين المرأة والرجل يمكن تطبيقه عالمياً، أو حتى أن يصبح هناك نقاش واحد عن النسويّة ذو صلة في كافة الدول العربية، أو الدول الخليجية حتى، لأن الفروقات الاجتماعية، الفكرية، الثقافية، والحضارية مختلفة جداً من مجتمع عربي إلى آخر، ومن مجتمع خليجي إلى آخر، بل أن هذه الاختلافات تصبح جوهرية حتى في مجتمع البلد الواحد، ففي بلد صغير كالكويت هناك اختلافات طبقية و مذهبية، وأخرى متعلقة بالفرق الثقافي بين الأسر البدوية والمتحضرة، وأخرى بين الأسر الشيعية والسنية، تجعل هذه الاختلافات تجارب النساء الكويتيات مع النسويّة مختلفاً جداً، ومفهوم التمييز لديهن متفاوتاً. خصوصاً إذا أخذنا بمعيار الإدراك الذي تصل إليه المرأة نتيجة لبحثها الخاص، وقراءتها واطلاعها.

بالنسبة لي، النسوية هي حركة اجتماعية، ثقافية، اقتصادية، سياسية تهدف لإحداث تغيير إيجابي للمرأة، عن طريق القضاء على التمييز بين المرأة والرجل، ومساواتهم في الحقوق والفرص، وذلك لأن تحقيق هذه

المساواة فيه مصلحة المرأة والرجل معاً، وليس مصلحة المرأة وحدها، وذلك لأن النظام الأبوي المتحكم الذي يطغى على المجتمع الكويتي، والذي يسعى الفكر النسوي لتحطيمه يضر ويعرقل حريّة ومصلحة الإناث والذكور على السواء. كما أحاول أن أبيّن في مجموعة مقالاتي هذه أشد العقبات التي تواجهها المرأة في المجتمع الذكوري الكويتي هو العنف. العنف الذي يمارسه الرجل على المرأة في حرمانها من العيش بحريّة، العنف في إجبارها على العيش وفقاً لمعاييره الذكورية، العنف في تقييد حريّتها، حريّتها باللباس، بالخروج، بالحركة، بالتعليم، بالعمل، حريّتها في تكوين شخصيّتها، حريّتها بالتفكير وبتكوين فكر خاص ومستقل بها، وبالتعبير عن آرائها كما تريد، وبتقييد علاقاتها الاجتماعية مع النساء والرجال من حولها. وهذا التحكّم الذي يمارسه الرجل على المرأة (وتمارسه المرأة الذكورية على المرأة) هو نتيجة رغبة الرجل بالسيطرة على المرأة والتسلّط عليها، والثقافة الاجتماعية (العادات والتقاليد)، والدين الذي من شأنه أن يتغلغل بالعادات والتقاليد المقيّدة للمرأة، ومن شأنه أيضاً إعطاء الرجل الحق في سلب المرأة حريّتها.

نعيش في وقت صار فيه العنف اللفظي ضد المرأة، أو التنمّر اللفظي ضد المرأة بالذات منتشرا بصورة رهيبة بسبب مواقع التواصل الاجتماعي. هذا لا يعني أن تحقير المرأة لفظياً لم يكن له وجود في السابق، أو أنه لم يكن يمارس بنفس النهم، لكن مواقع "السوشال ميديا" سهلّت لهذا النوع من العنف أن يطفو على السطح، وأن يمتزج بثقافات مختلفة، وأن يُمارس بطريقة خالية من الشعور بالمسؤولية أو الذنب، مما حوّل الظاهرة من ظاهرة خاطئة مثيرة للاستغراب، والاستهجان، والقلق، تُقابَل بالاستنكار وبالرفض. إلى ظاهرة عادية جداً، ومتوقعة، تُقابل بهزّة رأس، أو بمجرّد رفع حاجب. لأن المسيء هنا - رجلاً كان أو امرأة - يستطيع أن يكتب هذه الألفاظ المحقّرة للمرأة، أو أن يشير إليها بالصور، أو الفيديو، بصراحة أو بالإيحاء تحت اسم مستعار، أو حساب وهمي. كما أن التواصل في شبكة الإنترنت، ليس تواصلاً مباشراً وجها لوجه، هناك مساحة إلكترونية شاسعة بين المسيء والمتلقي، مما يسهّل الأمر للمسيء أن يتمادى من دون خوف المواجهة.

بل أنه لم يعد لمجهوليّة المسيء أهمية كبيرة، فلدينا في الكويت دكتور وأكاديمي في الجامعة يستخدم حسابه الشخصي على "تويتر" لِينعت سياسياً يختلف معه "بالأنثى"، فبالطبع لا شيء يسيء لرجل في مجتمع ذكوري أكثر من تشبيهه بالمرأة! وتجدر الإشارة هنا أن استخدام الدكتور للفظ "أنثى" كأسلوب تحقير لم يُقابل باستنكار.

ولدينا أحد مشاهير "السوشال ميديا" الذي استخدم حسابه الخاص في دعوة متابعيه الذكور في "تويتر" لضرب زوجاتهم، كاتباً/مغرداً: "إذا كنت متزوجاً من خريجة حقوق، وتفلسفت عليك زوجتك وطالبتك بحقوقها الدستورية، فاضربها بكتاب القانون الدستوري". وهنا يجب الإشارة أن كتاب منهج القانون الدستوري الذي يدرس في كليات القانون في الكويت، كتاب سميك/ثقيل جداً مكوّن من 1500 صفحة. وقد حصلت هذا "التغريدة" على آلاف "إعادة تغريد" من ذكور وإناث، وردود الأفعال اتجاهها كانت ضحكاً واستخفافاً وكأن المسيء قد كتب مزحة، فضرب الرجل لزوجته أمر مضحك في الكويت.

لدينا جيش من الذكور على مواقع التواصل الاجتماعي الذين يكرسون وقتهم وطاقتهم يومياً لذكر أسماء، ووضع صور الممثلات، والمطربات الجميلات من جنسيات أخرى، وإجراء مقارنة شكلية بينهن وبين الكويتيات "القبيحات" على حسب رأيهم، فهناك من يضع صورة لِلشهيرة كيم كيرداشيان ويكتب: "هذا الجمال مو الكويتية النعال" بمعنى أن جمال كيم جمال حقيقي، أما الكويتية فهي مجرّد نعل أو "قندرة". وآخر يكتب أن آنجلينا جولي أصبحت في نهاية الأربعينيات من عمرها ولازالت رشيقة، أما الكويتية فحتى بالعشرين من عمرها فهي "كَبَتْ" أي دولاب. تُشارك النساء كثيراً بإعادة التغريد (الذي يقصد منه الموافقة على رأي المغرّد وليس الاعتراض). أحياناً تقوم المرأة بكتابة تغريدات مسيئة للمرأة (أو نشر سناب شات مسيء للمرأة)، غالباً ما يكون موضوعها: السخرية والعيب من الشكل أو المظهر لامرأة محددة (أو نساء)، التشكيك بالأخلاق، التشكيك بالدين، والحط من تصرفات لا تتماشى مع البوصلة الأخلاقية للمسيئة.

هناك جيش آخر من المغردين الذكور وبعض الإناث من الذين يتابعون الحسابات الخاصة بالنسوية، أو أي مغرّدة تتكلم عن أي موضوع متعلّق عن حقوق المرأة وحريّاتها لينهالوا عليها بالشتائم، والسب والقذف، والنعت بأبشع الصفات، بقصد إسكات أي امرأة تتمتع بوعي نسوي مهما كان بسيطاً. يريدون منع نشر أي فكر نسوي عن طريق التهديد والعنف اللفظي، وبيان سذاجة المرأة الكويتية عند مطالبتها بأي حق،

واستنكارها لأي سلوك ذكوري تحكمي عن طريق تذكيرها بأنها تعيش "بخير ونعمة" وأن حياة المرأة الكويتية راحة، وترف وبذخ مادي تُحسد عليه، وأن الدين قد سبق كل هذه النظريات الغربية السخيفة بمنح المرأة كافة حقوقها.

هذا لا يعني بالطبع أن العنف الجسدي، أو الجنسي، أو العقلي، أو النفسي ضد المرأة في تراجع، أو ليس منتشراً في الكويت. فقد أجرت د. فاطمة السالم دراسة نشرتها في جريدة القبس في نوفمبر 2018 أن 53.1% من النساء في الكويت يتعرّضن للعنف، وأن العنف يحصل في 79% من الأسر في الكويت[1]

كما أشارت الصحف الكويتية المحلية أنه في 2016 كانت هناك 365 قضية عنف مرفوعة من قبل نساء معنفات أمام المحاكم الكويتية. ونسبة كبيرة من النساء المعنّفات لا يبلّغن بسبب الخوف من التعرّض للمزيد من التعنيف من قبل الأب، الأخ أو الزوج، وفي بعض الأحيان الابن. خصوصاً مع غياب ملجأ تستطيع المعنّفة اللجوء إليه إذا ما تعرّضت للعنف. وفي الكثير من الأحيان تكون المعنّفة صغيرة غير قادرة على تقديم بلاغ بالمخفر، ولا يوجد خط ساخن يمكن للفتاة الاستنجاد من خلاله.

وباعتباري محامية سابقة عملتُ كثيراً في قضايا الأحوال الشخصية (في محاكم الأسرة)، كنت أتعامل بشكل يومي مع نساء يتعرّضن للضرب، والعنف الجنسي، والنفسي، والعقلي من قِبل أزواجهن، بشكل همجي، منهجي، ومستمر. كما أن العنف يُمارس بكثرة على المرأة من قِبل أسرتها، من قِبل الأب، الأخ، وحتى الأم. لكن العنف الجسدي يظل مستتراً خلف أبواب وجدران المنازل، لا يظهر بوضوح إلاّ في صحف الدعاوي، وقاعات المحاكم، وغُرف المداولة. هذه القضايا التي أدى تضخمها وتضاعفها المخيف إلى حاجة دولة صغيرة كالكويت لبناء محكمة أسرة في كل محافظة، بعد أن كانت هناك محكمة أسرة واحدة للدولة كافة، ليست استثناء عن القاعدة كما يظن البعض، وليست حالات نادرة بعيدة عن واقع المرأة الكويتية الذي غالباً ما يتم تلوينه زيفاً بالترف، والرفاهية، والدلال، بل هي الواقع، هي الانعكاس الحقيقي لمجتمع قبيح مشوّه، يسود فيه تسلّط وعنف الرجل، ويستمر فيه سكوت المرأة.

[1] دراسة د. فطمة السالم، منشور في جريدة القبس الإلكترونية، 24 نوفمبر 2018 https://alqabas.com/607181/

العنف النفسي، والعقلي الذي تتعرّض له المرأة الكويتية والذي يعادل العنف الجسدي قسوة، أو في بعض الأحيان يكون أشد قسوة، وأسهل من حيث التستر والكتمان، لأنه من الصعب جداً رؤيته أو قياسه. فيظهر على شكل آثار جانبية للعنف اللفظي والجسدي، أو نتاج سنوات طويلة من الإحباط المنهجي المنظم الذي تتعرض له الفتاة منذ صغرها، في مجتمع لازال يفضّل المولود الذكر على الأنثى، يفخر بالذكر دون الأنثى، يعطي حريّات وحقوق وسلطات أكبر للابن، عنها للابنة. يأخذ رأي، فكر، طموح، وأحلام الابن بجدية، بينما يصغّر ويهمّش الابنة. يركز على أهمية دور المرأة فقط كحاضنة، طاهية، أو أداة جنسية. يلوم الأنثى على تحرّش الذكر فيها من دون أن يوجه أي لوم للمتحرّش. يعزز فكرة أن الأنثى مجرّد جسد، ويربط جسدها بشرف الذكر، وفي ذات الوقت يعلّم الأنثى أن تكره جسدها مشيراً إلى أن جسدها ليس إلاّ مصدر خزي وعار. يُقنع الأنثى أن طموحها يجب ألا يتعدى الزواج وتكوين أسرة. يدعم/ينشر/يؤكد للأنثى أن عنف الأب، الأخ أو الزوج، وخيانة الزوج ماهي إلاّ جزء لا يتجزأ من رجولتهم، أما أنوثتها وكرامتها فتكمن في الالتزام بالصمت، والرضوخ والرضى. ويتلاعب بالدين ويستخدمه كأداة للتحكم بالأنثى، ولتشكيكها بآدميتها بشتى الطرق والعبارات من تكرار "عيب انتِ بنت" أو "حرام" خصوصاً عند المبالغة بتحريم الشيء على الأنثى دون الذكر، أو مطالبة الأنثى بالعفّة والشرف من دون الذكر، و إساءة استخدام بعض الأقوال أو استخدامها خارج نطاق المقصود منها: "النساء ناقصات عقل ودين" و "أكثر أهل جهنم من النساء"، أحقية الرجل بتأديب الزوج، أحقيته بتعدد الزوجات، وغيرها.

ما أود تحقيقه من كتابي هذا، هو إلقاء نظرة واقعية لما تتعرض له المرأة الكويتية من تمييز وتهميش على كافة الأصعدة: الاجتماعية، الثقافية، الاقتصادية، والسياسية. لكن أيضاً النظر بقرب لشتى أنواع التعنيف، والتسلّط، والتحكم الذي تتعرّض له المرأة الكويتية بشكل يومي تحت النظام الأبوي في نطاق البيت ومن قِبل الأسرة، في مكان دراستها أو عملها، وفي الشارع. قد لا تكون لدي الحلول، أو الأجوبة، وقد تكون لي مجرد اقتراحات، لكن من الضروري أن يتم فتح نقاش صادق، حوار خالٍ من المجاملة، بعيداً عن العواطف الفارغة، والولاء لِفكرة الوطن، الأسرة أو القبيلة.

كما ذكرت مسبقاً ليس لدي اهتمام أكاديمي بالنسوية، بالرغم أنني نسوية جادة ومتحمسة، لذلك كتبت مقالاتي هذه بأسلوب بسيط ومباشر، هذه المقالات مشابهة جداً للحوارات التي غالباً ما تدور بيني وبين صديقاتي،

وبيني وبين طالباتي وطلابي في الجامعة، أريدها أن تصل لكل من يقرأها أياً كان مستواه العلمي أو الفكري، أتمنى أن تثير اهتمام قارئها. بالرغم أن الكثير من مقالاتي هنا لن تكون سهلة القراءة، فتعرية واقع المرأة الكويتية من قناع المظاهر، والبذخ المادي، والنفاق الديني سيثير حزن أو غضب القارئ (أو بعض القراء)، لأنه ليس من السهل أن تتنازل عن وهم مريح عشت خلفه غالبية حياتك. لكن أتمنى أن لا تكون قراءتها مملة كما في الكتب العلمية الأكاديمية المفعمة بالتواريخ، والهوامش، والإحصائيات.

بذرة النسوية ونموها العضوي بداخلي

أنتِ امرأة، إذاً أنتِ في المطبخ

لا أعرف متى بالضبط بدأت بذرة النسويّة تنمو بداخلي، لكنني متأكدة بأنها غُرست فيّ منذ ولادتي. حتى كلمة "نسويّة" ذاتها لم تكن من المفردات المتاحة لي. لم أسمع بكلمة "نسوية" ولم أعرف ما معنى النسوية، لذا أعرف أن الفكر النسوي نما بداخلي نمواً عضوياً، لم يكن تأثيراً خارجياً، كسماعي لنقاش يدور حول موضوع النسوية على التلفاز مثلاً، أو نتيجة لمشاهدتي لفيلم أجنبي، ولم يكن نتيجة قراءتي لأي كتاب، بالرغم أنني قرأت كتباً حول موضوع النسويّة ونشأتها عندما تقدمت بالعمر، وبالتحديد في أواخر العشرينيات من عمري. أما عن "السوشال ميديا" المشبّعة بالنقاشات حول هذا الموضوع، والإنترنت - بشكل عام - المليء بالمصادر وسهولتهما في إيصالي للمعلومة، فلم يقتحما حياتي حتى أصبحت بالعشرينات من عمري. صيرورة النسويّة، وتكوينها وظهورها في إدراكي كان نتيجة المواقف الحياتية اليومية الروتينية. كنتُ أرى بوضوح الفجوة الاجتماعية والثقافية الشاسعة في التعامل بين المرأة والرجل في المجتمع الكويتي الذكوري وأتساءل "لماذا؟".

عندما كنت في التاسعة أو العاشرة من عمري، وأظن أنه سن الوعي لدى الكثير من الأفراد، كنتُ أذهب مع أسرتي لبيت جدي كما كنّا نفعل في كل يوم جمعة، وفي الأعياد. وكان الروتين ذاته يتكرر في كل مرّة. يأتي وقت الغداء، يقمن كل النساء والفتيات (خالاتي، وزوجات أخوالي، وبناتهن وأنا من ضمنهن) لنحضّر المائدة، كانت هناك بضعة خادمات، لكن عددهن قليل مقارنة بكل الضيوف، وبالتالي على النساء جميعهن أن يشاركن عملية تجهيز الوليمة، كما أن الخادمات يحتجن إلى توجيه لأن هناك الكثير من الأمور التي لا يُتقن عملها، أو لا يتقن عملها بالطريقة التي تتطلبها الثقافة الكويتية الصحيحة، وبالتالي وجود النساء ضروري ليتم تنفيذ وجبة الغداء بالصورة التي تنال على رضى الرجال. في أثناء عملية تحضير الوليمة وتحضير المائدة، ولأن عدد الضيوف كبير، ولا تكفي طاولة الطعام للكل، يتم صف الأطباق كلها على الطاولة ويتم تقديمه على شكل "بوفيه"،

بحيث يأخذ كل منهم طبقه، يختار طعامه، ثم يجد لنفسه مكاناً للجلوس. نلجأ لأسلوب البوفيه في المناسبات والأعياد، أما في الزيارة الأسبوعية المعتادة عندما لا يكون عدد الحاضرين كبير جداً، فيتم تقديم وجبة الغداء بالطريقة التقليدية، أي: مد السفرة على الأرض، عن طريق وضع "سماط" أو "بساط" بلاستيكي. لا يساهم أي رجل من الرجال الموجودين في مساعدة النساء، بل يظل الذكور في صالة الجلوس يشربون الشاي، ويتحاورون حول كيفية حل مشاكل العالم، ويتباهى كل منهم بدهائه وذكائه السياسي الذي يفوق كل رؤساء العالم، وبين برهة وأخرى نسمع أحدهم يتذمر عن تأخر الوجبة ويصرخ "يلاّ - فلانة - متى الغدا؟ يلا يبا يواعة!". بينما نحن النساء والفتيات نسرع أكثر وأكثر في خطواتنا ونحمل عدداً أكبر من الأطباق، حتى نلبي لهم رغباتهم. بعد أن يتم صف المائدة بشكل تام، تدعو خالتي الكبرى الرجال للأكل بينما ننتظر نحن النساء انتهاء الرجال وبعد انتهائهم يتسنى لنا أن نأكل!

كنتُ أتساءل دائماً لماذا علينا أن ننتظر؟ أليس من الأحرى أن تأكل النساء والفتيات أولاً؟ باعتبار أننا من جهزنا الأكل وجهّزنا المائدة؟ أو على الأقل لماذا لا نأكل معاً؟ لماذا لا نقف صفاً كما نفعل في المطاعم، ويحمل كل منآ طبقه، ويضع لنفسه الطعام. لماذا علينا أن نجلس في غرفة أخرى، حتى يأخذ الرجال راحتهم بالاختيار وبعد انتهائهم يصبح دورنا؟ وعندما يتسنى لنا أخيراً الأكل، نجد أن الأطباق تم العبث فيها و تخريبها، الرز مبعثر في كل مكان، السلطة مترامية على مفرش الطعام، بقع الزيت، الملاعق مبعثرة، "المرق" مسكوب، منظر المائدة كريه وغير مشهٍ. ولأنهم رجال، فبالطبع ليس من المعقول أن نتوقع منهم الرقة أو التحضّر في الأكل. أما نحن النساء فعلينا التحمّل، وبالطبع وصول النساء لمائدة الطعام لا يكون مباشراً، حتى عندما ينتهي الرجال، لأن كل أُم لها طفل صغير (أو أكثر) لا يستطيع وضع الطعام لنفسه، ستقوم برعايته قبل أن تأكل هي نفسها، وفي المناسبات الكبيرة كالأعياد، عدد الأطفال كبير جداً حيث أن كل أُم، أو أُخت، أو أي فتاة فوق سن الخامسة عشر يجب أن تساعد في إطعام الأطفال، أو على الأقل مناولتهم ما يريدون، وتلبية حاجاتهم، والرّد على إلحاحهم أولاً قبل أن تستطيع هي أن تأكل. وحتى عندما تتمكن النساء أخيراً من الوصول للطعام، يشعرن بوجوب الإسراع، لأن الرجال قريباً سيطالبون بالشاي، والقهوة، والحلويات، باعتبار أنهم بدؤوا بالأكل قبل النساء فسينتهون قبلهن أيضاً وبالطبع يريدون الشاي، والقهوة، والحلويات مباشرة بعد الانتهاء من الغداء.

عملية رفع المائدة، وإزالة الأطباق أيضاً مهمة النساء، ولا يحرّك الرجال ساكناً للمساهمة، بل يتركون الأمر كلّه للنساء، بينما يعودون هم لحل مشاكل العالم، ويتذمرون من البطء في إحضار الشاي والقهوة.

كنتُ أستاء جداً من هذه الممارسات، لماذا لا يتساعد الرجال مع النساء كنتُ أسأل؟ فأرى نظرة ضجر ونفاذ صبر على وجوه الذين أسألهم، عادة والدتي أو خالتي الكبرى، وحتى وإن حصلت على رد، فغالباً ما يكون رداً يثير غيظي أكثر، "هاذه طريقتنا" بمعنى أن هذه هي الطريقة التي يأخذ بها المجتمع وبالتالي لابد منها، ولا نستطيع انتقادها أو تغييرها. وعندما أسأل بغضب: لماذا نأكل بعدهم، لماذا لا نأكل معهم؟ يأتي الرد الذي لا يسمن ولا يغني من جوع: "لازم الريايبل ياكلون أوّل، بعدين احنا ناكل"، مع الكثير من التأفف و التذمر من اعتراضي الدائم على كل شيء، وأسئلتي التي لا داعي لها، وأخيراً يطالبونني بالسكوت.

في الكثير من الأحيان أرى أحد الرجال، خالي مثلاً، يقول لزوجته وهو في عز نقاشه مع رجل آخر "صبّي لي شاي" بأسلوب الأمر، بالرغم أن الشاي، الأكواب، السكر، والملاعق أقرب منه هو، مما هي من زوجته، ومع ذلك تقوم لتقديم الشاي له، حتى لو كانت هي ذاتها تتحدث مع أحدهن، أو لازالت تأكل، أو لازالت تطعم صغيرها.

الأولاد الصغار الذكور منهم والإناث يرون كل ذلك بالطبع، وتترسب في عقولهم صورة المرأة الخادمة، التي تحضر المائدة وتزيل المائدة، وتقدم الشاي، وتطعم الصغير والكبير، وتضع نفسها في ذيل قائمة الأولويات، فيكبر الولد متيقناً أن وجود المرأة هو لغرض واحد فقط، إشباع رغباته. وتكبر البنت إما راضخة للدور الاجتماعي بخدمة الرجل، أو تصبح ساخطة، رافضة، ثائرة وتقول "لا". تظن الأولى أنها تتحاشى المشاكل في رضوخها لكنها لا تفعل. أما الأخيرة فتتعلم درساً قاسياً في رفض الرجل والمجتمع للمرأة المعترضة، الغاضبة، الناقمة، لكنها تستمر بالرفض على أيّ حال.

أحد أقاربي الرجال، كان في كل مناسبة من هذه المناسبات الاجتماعية، كطريقته في المزح، يذكر اسم إحدى الفتيات، ويقول "فلانة لا تجيد تحضير أي شيء، حتى (اسم أكلة بسيطة) لا تعرف تحضيرها". على سبيل المثال ينظر إليّ ويقول: "فطوم ما تعرف تسوي حتى "فيمتو". باعتبار أن شراب الفيمتو لا يتطلب سوى إضافة الماء (وأحياناً القليل من السكر) وبالتالي فأنا عديمة الفائدة تماماً لأنني لا أعرف حتى كيفية تحضير الفيمتو.

وعندما يرمي بنكتته المتكررة هذه، يضحك الجميع. وفي كل أسبوع يختار إحدى الفتيات ليبيّن للجميع عدم فائدتها للأقارب بهدف إضحاكهم. مبيناً أن قيمة الفتاة فقط بما تتقن تحضيره من طعام يملأ به بطنه. بينما تقوم أم الفتاة المستهدفة بالدفاع عن ابنتها، بالقول أنه بعكس ما قاله قريبنا، فابنتها ربة منزل ممتازة وتتقن الطهي وتحضير الأكلات اللذيذة، مؤكدة بدورها أن قيمة الفتاة يكمن بمهارتها في المطبخ. عندما يقوم قريبي "النكتة" بضغط الفتيات، وإحراجهن، وإضحاك الجميع على عدم مهارتهن في الطهي، كنتُ دائماً أرغب بالرد عليه: "وأنت؟ ما الذي تتقنه؟ هل تتقن تحضير الكبسة، أو ورق العنب، أو حتى الفيمتو؟"، لكن طبعاً لم أفعل، فهو أكبر مني سناً، ويجب عليّ عدم التكلم معه بهذه الطريقة، كما أنني لو فعلت أو تذمرت من أسلوبه، فسيكون الرد عليّ مباشرة: "عيب"، أو "ما تعرفين الغشمرة؟"، أو "ليش معصبة؟" وسيغضب منيّ الجميع، وبالتالي كنت أسكت وأطعنه بسكين في مخيلتي من دون أن تظهر على ملامحي أي علامة من علامات عدم الرضى أو السخط.

كنتُ أكره الزيارات الأسبوعية والأعياد، لأنني كنتُ أكره فكرة إجابة طلبات الرجال، كنتُ أكره الأكل بعدهم، ولما كبرتُ، كنتُ غالباً أمتنع عن الأكل، فيتم إرغامي: "فطوم! ليش ما تاكلين؟ اكلي شي، حتى لو سلطة"، وبعد أن يتم الإلحاح علي، أتوجه للمائدة لأضع لي ملعقة رز، أو ملعقة من السلطة. لكنني لم أستطع التخلف عن واجب تحضير السفرة ورفعها، لأن البنات كلهن يساهمن، فسيكون من الخطأ أن أتخلّف، لم أرغب أن أكون الوحيدة الممتنعة عن المساعدة، أو الكسولة، أو غير المبالية، لأنني كنت أبالي، كنت أبالي كثيراً، أكثر من أختي الكبيرة، وأكثر من بنات خالاتي اللاتي لم يتساءلن أبداً لماذا الأمور كما هي؟ لماذا المرأة تخدم الرجل؟ لماذا المرأة لا تأكل إلا بعدما يشبع الرجل؟ لماذا المرأة تزيل فضلات الرجل؟

الأمر في بيت جدي، أو في بيت خالتي الكبرى حيث انتقلت الزيارة الأسرية بعد وفاة جدي، لم يكن غريباً عليّ تماماً، لأنه صورة مطابقة لما كان يحصل عندنا في البيت أيضاً. في أسرة مكوّنة من خمسة بنات، أخ واحد، أم وأب. كانت أمي مسؤولة عن تحضير الطعام، صف السفرة ورفع السفرة، ونحن الفتيات نساعد، والخادمة بالطبع. لكن والدي وأخي لم يكن لهما أي دور أو مساهمة أو مساعدة في تحضير المائدة أو إزالتها. عندما تكون الوجبة اليومية المعتادة يكون الأمر هيناً، يُصفّ الغداء وغالباً ما يكون غداءً بسيطاً على الطاولة (ليست كبيرة) ثم يرفع. هناك صعوبة أكثر عندما تكون الخادمة قد سافرت لبلدها لزيارة أهلها، فيقع العاتق علينا نحن الفتيات في غسل الصحون وتنظيف المنزل، من دون مساهمة من الذكور،

بالرغم أنه منزلهم أيضاً وطعامهم أيضاً. في حال حضور الضيوف، نقوم نحن الفتيات بتجهيز الصواني الأنيقة المخبأة فقط للضيوف، بتحضير الحلويات وصفّها بطريقة أنيقة، وغسل وتحضير أكواب الشاي الأنيقة المخصصة للضيوف، أيضاً من دون مساهمة من الذكور. لكن ما كان يثيرني ويغضبني هو قيام أبي بتقديم عزائم كبيرة لعدد كبير من الرجال، ونكون نحن الفتيات المسؤولات عن تحضير كل شيء. الوقوف لساعات في مطبخ حار تتعالى منه الأدخنة، ملء أطباق عملاقة بالأرز والسمك والدجاج واللحم، صوانٍ عملاقة من الخضار والفاكهة، ولأنه في سرداب المنزل صالة كبيرة تكون الوليمة هناك، فننزل ونصعد السلالم عشرات المرات، لنضع الطعام، ثم نزيله، وغالباً ما يكون كل هذا الجهد مصحوباً بصراخ والدي علينا، لأن نسرع أكثر، أو أن طريقة صف الطعام لم تنل رضاه. وكل ذلك التعب لماذا؟ لأن مجموعة من الرجال يريدون الأكل!؟ كنت أكره هذا الولائم التافهة، والتي غالباً تحصل لأن ابن عم لنا تخرّج من الجامعة! أو ابن عم لازال يدرس في الخارج وعاد لزيارة مؤقتة. وكأن التخرج من الجامعة أمر مستحيل! وبالطبع لا تُمد الولائم عندما تتخرج الفتيات من الجامعة، ولا عندما تحصلتُ على الماجستير، ولا عندما تحصلت على الدكتوراه، لأن نجاح الفتاة لا يُكافأ ولا يُحتفى به! كنتُ أكره هذا الولائم البائسة، كنتً أكره الوقوف بالساعات لتلبية طلباتهم، وسماع تذمر والدي وصراخه، لأن الأكل لم يتم تحضيره بسرعة، والسفرة لم يتم صفها بسرعة، أو طريقة وضع الفاكهة في الوعاء لم تكن صحيحة.

وفي عملية التربية أيضاً ساعدتُ أمي في الاهتمام بإخوتي عندما كانوا أطفالاً من تغيير للحفاظات، تنظيف، تلبيس، ورعايتهم عندما تخرج هي. أما أبي فلم أره يغيّر حفاظة أبداً، يأتي دوره غالباً عندما يدخل الطفل المدرسة، فيقوم أحياناً نادرة بإيصاله للمدرسة. فقط لا غير. لأن عملية الإيصال للمدارس كان دور أمي، ثم دوري أنا بعد أن حصلت على رخصة القيادة. حتى إحضار أغراض الجمعية لم يكن والدي يحضر الأغراض، ثم يتذمر لعدم وجود سلعة أو أخرى في المنزل!

هكذا بدأت نسوّيتي، بدأت بسؤالي، لماذا؟ لماذا على المرأة أن تفعل ما لا ترغب بفعله، متى ما طالبها الرجل بذلك؟ لماذا عليها إرضاء الرجل؟ أما الرجل فلا يفعل أبداً أي شيء لا يرغب بفعله، وحتى في الاهتمام ببعض الأمور التي غالباً ما تدخل في نطلق واجبات الرجل، فهو يفعلها متى ما شاء، وإذا شاء: أخذ السيارة للتصليح، تصليح شيء ما داخل البيت، شراء السمك من سوق السمك،

يكون حسب رغبته ومزاجه، ومتى ما ناسب مزاجه، لا يوجد إجبار أو محاسبة أو مطالبة، وغالباً ما يتم تأجيله وتأجيله إلى أن يرغب الرجل بفعله.

كان والدي يعمل في مركز أبحاث، وبين فترة وأخرى يقوم باحث أجنبي بزيارة المركز، كما يقوم باحث كويتي بزيارة مركز أبحاث في الخارج، كوسيلة لتبادل الأفكار، وتطوير البحوث، ومناقشة النتائج. لذا غالباً ما يدعو والدي بعض الباحثين الأجانب لوليمة في بيتنا، وطبعاً يجب أن تكون الوليمة شعبية جداً كي يتعرّف الأجانب على الثقافة الكويتية في الطهي والطعام. وطبعاً نقوم نحن النساء في المنزل بالاهتمام بكل التفاصيل، لكن لا يكون لنا وجود! نطهي، نصفّ الطعام، نضع كل شيء، ثم نختبئ في غرفة ما، حتى نسمع أنهم انتهوا من الأكل فنذهب لإزالة الفضلات. يجب ألاّ نظهر، فالنساء كالجواسيس أو العملاء السِريّين في الأفلام الأمريكية، يفعلن كل شيء بإتقان من دون أن يراهن أحد. في إحدى هذه الزيارات لم يكن هناك سوى باحث أمريكي واحد، جهزنا أنا وأخواتي وأمي طاولة الطعام للباحث ولوالدي، وكنتُ أضع اللمسات الأخيرة على المائدة، وأستعد للاختباء، حيث اختبأت أمي وأخواتي قبلي، فدخل الأمريكي وأبي، شاهدني الضيف وأنا أصب الماء واللبن في الكؤوس، وبدأ بشكري، وقال لي كم تبدو المائدة شهية، فرحبت به، وبينما أنا ذاهبة باتجاه السلالم لأصعد إلى الطابق العلوي، حتى لا يكون لي وجود. كان ينظر إليّ الأمريكي بدهشة، يتساءل لماذا أذهب؟ لماذا لا أبقى معهم وآكل معهم؟ فهذا الأكل يكفي لعشرة أشخاص! فلماذا ليس هناك سوى شخصين؟! وبينما أن مسرعة أصعد السلالم، سمعته يسأل أبي: "ألن تأكل أسرتك معنا؟ أين هي أسرتك؟ لماذا لا يأكلون معنا؟ هذا الأكل كثير جداً"، بينما قام أبي بتغيير الموضوع.

تلعب المرأة دائماً دوراً ثانوياً بالرغم أن لا حياة من دونها

من الظواهر التي ساهمت في طرحي للأسئلة عن اللامساواة في الأدوار بين الرجل والمرأة، والتي عززت مفهوم النسوية لدي في صغري. هي ظاهرة عدم وجود المرأة في الأدوار الحياتية الضرورية، أو بالأصح وجودها الثانوي، ظهورها خلف الرجل، بحيث يظهر الرجل كبطل القصة أو الرواية، بينما تظهر المرأة كخلفية للقصة أو الرواية. المرأة هي السماء الظلماء التي يستطيع الرجل من خلالها أن يسطع، أن يتلألأ

كالنجم. وجود المرأة هو مجرّد تمكين الرجل من اللمعان والتألق.

هذه القصص والحكايات لونت حياتي منذ صغري، الأمير الذي ينقذ الأميرة، فوجود الأميرة الضعيفة المغدور بها، التي تحتاج لمن ينقذها، سواء كانت بياض الثلج التي أطعمتها الملكة الشريرة تفاحة مسمومة، حوّلتها إلى جثّة لا تُحييها سوى قبلة الأمير الشجاع. أو الأميرة النائمة، التي نالت منها الجنيّة الشريرة عن طريق المغزل المسموم الذي طرحها في سبات عميق، لا تكسره سوى قبلة سحرية من الأمير الفارس. أو سندريلا التي ستبقى أسيرة وخادمة لزوجة أبيها وأخواتها البشعات، لولا إصرار الأمير على إيجادها. وحتى في قصة ليلى والذئب، التي تذهب فيها ليلى ضحية للذئب، لولا شجاعة الحطاب الذي يخرجها من بطنه.

من حكايات الأطفال التي تظهر فيها الفتاة أو الأميرة كالمسكينة، الضعيفة، وأحياناً الغبية التي لا تحسن التصرّف، فتبرهن من خلال قلّة حيلتها على قوّة، ذكاء، وشهامة الرجل أو الأمير. إلى قصص الأنبياء التي كانت تُدرّس لنا في المدرسة، حيث تكون المرأة في الخلفية، موجودة لكن وجودها كوجود الأشباح لا نعرف شيء عن شخصيتها، أوعن مظهرها، أوعن دوافعها الشخصية. وجودها ضروري فقط كي تكتمل القصة، لكن لا وجود لها بالمعنى الحقيقي، لا شيء عمّن هي؟ من تكون؟ ما اسمها؟ ماهي خصائصها؟ ماذا كانت تقصد؟ ما هي أهدافها؟ أحلامها؟ دوافعها؟

فشقيقة النبي موسى، على سبيل المثال، كان لها دور رئيسي في نجاته من بطش فرعون، حين أقنعت والدتها ألا تخاف وأن ترميه في اليم (النهر) لينجو. ثم تعود لتلعب دوراً رئيسياً آخر، عندما أقنعت نساء القصر بإعادة النبي الرضيع إلى أمه، حيث أرشدت نساء القصر، وزوجة فرعون لمرضعة تهتم برعايته، وبذلك أُعيد النبي إلى أمه. هذا الدهاء، وهذه الحنكة، وسرعة البديهة، ومع ذلك فهي في خلفية القصة، الهدف منها ليس بطولتها ولا تأكيداً على حكمة وذكاء المرأة، ليس هناك تركيز على من هي؟ ما اسمها؟ حيث اختلفت الروايات بين مريم وكلثمة، ما عمرها؟ حيث اختلفت الروايات بين ثمانية سنوات، وعشرة سنوات، وهو عمر صغير لمثل هذا التفوق العقلي. السبب من ذكرها في القصة هو فقط لِبيان كيف تجاوز النبي طفولته من دون أن يكون ضحية فرعون.

في قصة النبي يوسف دور زوجة فرعون هو دور محدود، قولبي، للمرأة الفاسِقة، الهدف منه تعزيز طهارة وعفة النبي يوسف، لا نعرف شيء عن دوافعها، أو شخصيتها.

لا نعرف شيء عن زوجة النبي أيوب، التي يقال في بعض الروايات أن اسمها "رحمة"، وفي روايات أخرى أن أسمها "ليا"، نعرف أنها صبرت معه على زوال ماله، وموت أبناءه، وصبرت على مرضه

الشديد، وأنها خدمت الناس لتكسب العيش لها وله، وأنها عندما عجزت عن إيجاد عمل، قطعت ضفائرها لتحصل مقابلهما على شيء، وعندما علم أيوب بما فعلت حلف أن يضربها بالسوط مائة مرّة عندما يُشفى.

معظم زوجات النبي محمد لا نعرف عنهن أي شيء سوى أسمائهن، غالبية القصص تحكي مواقف عن السيدة عائشة، والسيدة خديجة، وحتى السيدة خديجة التي عُرفت بنسبها ومالها، لا نعرف ما إذا كانت قد طُلّقت أم رُملت، قبل زواجها من النبي. بعض الروايات تنص على أن السيدة خديجة طُلّقت مرتين قبل زواجها من النبي، وأن لديها ولدان من زيجاتها السابقة. وفي رواية أخرى، أنها طُلِّقت مرّة، وترملت مرّة، قبل زواجها من النبي، وأن لديها ولد واحد من زواج سابق.

وجود المرأة في هذه القصص التي لوّنت وطغت على طفولتي هو لإتمام القصة فقط. وجودها ضروري لِتتابع أحداث القصة، لكنها ليست بطلة القصة، لا وجود حقيقي لها في القصة. في قصص الأنبياء، تظهر المرأة مهمشة، لا نرى لها ملامح، ولا خصال، لا نعرف شيء عن رغباتها، أو أهدافها، بماذا تفكر؟ ما هو رأيها؟ أو هل لها رأي أصلاً؟ ليس لدينا أجوبة لهذه الأسئلة. تبدو وكأنها شبح أو طيف بعيد ليس لنا رؤية تفاصيله، لأنه ببساطة ليست المقصودة من القصة، بالرغم أن أحداث القصة تعتمد على وجود تلك المرأة. أماّ في أساطير الأميرات، مهمّة المرأة فقط تعزيز صورة الرجل الأمير، الفارس، المنقذ. هي العامود الذي يحمل البناء، بينما يتجه نظر المشاهد إلى جمال البناء، لا على قوته، متانته، أو ثباته. هي الظلام الذي لا يمكن للنجوم أن تسطع إلا به، لكن الكل يشير لروعة ولمعان النجوم، ويغفل عن أهمية سواد الليل في لمعانها. بالرغم أنه في أساطير الأميرات، لا يمكن للأمير بمفرده أن ينقذ الأميرة، تتدخل الأميرة (أو شخصية أخرى في الحكاية) لمساعدته، فسندريلا، تترك حذاءها للأمير، فيستدل من الحذاء عليها. في بياض الثلج، يدله الأقزام عليها. في الأميرة النائمة، تدله الجنيّات الطيبات إليها. في الحسناء والوحش، لا يعود الوحش لهيئة أمير إلاّ إذا أحبته الحسناء بصدق، ولكي تحبه بصدق، يجب عليها أن تتغاضى عن قبح شكله، وشخصّيته المنفرّة، فهو أنانيّ، سريع الغضب، مغرور، متعالٍ، وبخيل.

التمييز ضد المرأة في المجتمع الكويتي

لماذا أنتن النسويات غاضبات؟

كثيراً ما يندهش الذكور من غضب النسويات في مجتمع يهمّش المرأة وينتقص من عقلها وحقوقها وحريّاتها، ويسأل لماذا أنت النسويات غاضبات؟

لماذا نحن النسويّات غاضبات؟

قد يكون لأن الفرح والفخر والاهتمام بالمولود الذكر أكبر بكثير منه بالمولودة الأنثى.

"قد يكون لأن أوّل ما يتم تعليمه للبنت الصغيرة هو "ضميّ رجليكِ" و "اصمتي" و "عيب".

قد يكون لأن أوّل درس يتم تعليمه للفتاة عندما تكبر قليلاً هو "لا تقتربي من الأولاد، لا تتحدثي مع الأولاد، لا تثقي بالأولاد حتى لو كانوا من أقاربكِ لأن الولد يريدُ فقط استغفالك، واستغلالك". لكنه لا يتم تعليم الولد أن عليه احترام الفتاة، وأنه لا يحق له التطاول عليها.

قد يكون لأننا نرى الفرق في التعامل بيننا وبين أشقائنا الذكور، فهم يحصلون على الحب، الدلال، الاحترام، الاهتمام، والفرص، حقوقهم وحرياّتهم غير مقيّدة. الأخ يخرج ويعود متى ما شاء، يسافر متى ما شاء، يصاحب الفتيات كما يشاء، يخطئ كما يشاء. أما الفتيات فيتم مراقبتهن، وتقييد حرّيتهن، وإسكاتهن، وتوبيخهن، ومحاسبتهن، وتصغيرهن، وتعنيفهن، وتحقيرهن.

قد يكون لأنه يتم فصل الفتاة عن آدميّتها من عمر صغير جداً؛ فيقال لها حلوة كالقمر، رشيقة كالغزال، أو قطوة، أو ثعلوبة لتشبيهها بحيوان جميل وماكر، أو باللهجة العامية "شحلاتها كلبة"، أو "مزّة" ومعنى مزّة: ما يمزمز بها السكران، شارب الخمر ليغطي رائحة الخمر الكريهة التي تفوح من فمه، فيدفع السكران لفتاة من فتيات الليل لتقبله و تلغي بتقبيلها رائحة الخمر التي تفوح من فمه، حتى صارت كلمة "مزّة" تستخدم لفتيات الليل اللاتي يبعن أجسادهن بمقابل. وعندما يركّز المجتمع الذكوري على جمال الأنثى، ويلاحظه، ويعطي اهتماما و قيمة، ووزناً أكبر للجميلة، فهو بهذه الطريقة يلقّن الفتاة من سن مبكر أن جمالها هو أهم ما فيها، وأنها لا شيء إن لم تكن جميلة.

فتلغي المرأة عقلها وتلهث وراء التجميل، وتغيير الشكل بما يتناسب مع ذوق الرجل. أما الرجل فيتم مدحه بالذكي، أو القوي، أو الشجاع، وإن اتصف بالجمال يُقال عنه جميل أو وسيم، فلا تنتزع منه آدميّته. ولا يتم إهانته بتشبيهه بحيوان إلاّ في حالة ذمّه، فيقال عنه "حمار" إذا كان غبياً، أو "كلب" إذا كان غير وفيّ، أو لئيم (رغم أن الكلب حيوان وفيّ وليس لئيماً). ما أقصده هنا أن المرأة يتم تشبيهها بالحيوان في كل الحالات؛ عند مدح شكلها الخارجي، وذّم شكلها الخارجي، كأن تُقارن السمينة "بالبقرة"، وذم شخصيّتها فيقال عنها حيوانة أو "ثعبان" لوصف الماكرة، المتحايلة، أو "نسرة" إذا كانت متسلطة. لكن الرجل لا يتم تشبيهه بالحيوان إلا في حالة النّقد.

قد يكون لأنه إذا تجرأ رجل على لمسي، أو هتك جسدي، أو حتى اغتصابي بالقوّة فهو ذنبي وليس ذنب الرجل؛ ويتم مساءلتي ماذا كنتِ تلبسين؟ لعل ما كنتِ ترتدينه أغراه؟ لماذا كنتِ لوحدكِ؟ لماذا لم تُقاوميه؟ هو خطؤكِ أنتِ لأنكِ ذهبتِ إلى ذلك المكان. أما الرجل فلا يُلام على تطاوله على جسد المرأة.

قد يكون لأنه إذا ذهبت المجني عليها للمخفر لتقديم شكوى ضد رجل تطاول عليها (تحريض على الفسق والفجور، هتك عرض، أو مواقعة بالإكراه) يجتهد المحقق في إقناعها ألاّ تستمر بالشكوى لأن ذلك سيؤثر سلباً على سمعتها و سمعة أسرتها، خصوصاً إذا كانت فتاة صغيرة غير متزوجة، فيقنعها أنها لن تستطيع الزواج، فالرجل سيتحاشاها عندما يكتشف أن هناك قضيّة جنائيّة مسجلة باسمها. فلا يهم المجتمع الكويتي الذكوري أن المرأة مجني عليها في هذا النوع من الجرائم، لأنه يلوم المرأة أياً كانت الظروف، فلا يُنظر للمرأة على أنها ضحيّة أبداً. كما أن الرجل في المجتمع الكويتي يجتهد في استخراجه للمعلومات عن المرأة التي يفكر الزواج بها، يصبح محققاً وجاسوساً ماهر. تشكيكه بأخلاقيات الفتاة يصل إلى حد البحث في الأنظمة الإلكترونية الخاصة بالمخافر والنيابة؛ فإما أن يسيء استخدام سلطته إن كان هو ممن يعملون في المخافر أو النيابة لاكتشاف معلومات عن الفتاة، أو يسيء استخدام سلطته من أجل صديق له طلب منه أن يستخرج معلومات عن فتاة يفكر بالارتباط بها. بكل الحالات فهو يفعل ما لا يحق له. أما أخلاقيّات العريس وماضيه فلا تعرف عنها العروس سوى ما يتم الاستفسار عنه من قبل أقاربها في مكان عمل الرجل، حيث يبدو لمديره وزملائه بأفضل حالاته، فيقال عنه أنه "محترم" وأنهم يرونه يصلي الظهر، بالرغم أن تلك ليست معايير حقيقية لمعرفة أي شيء عن ماهيّة الشخص.

قد يكون لأنني أحقق دخلاً أقل من دخل الرجل حتى وإن كُنآ نؤدي ذات العمل، ونحمل ذات الشهادة العلمية، ولدينا نفس سنوات الخبرة.

قد يكون لأنني أرث نصف ما يرثه الرجل فقط لأنني امرأة.

قد يكون لأن الرجل يحق له أن يعدد في الزواج متى ما شاء، ويحق له أن يُطلّق متى ما شاء فالعصمة في يده وحده.

قد يكون لأنني إذا تزوجت من غير كويتي صار أولادي مهمشين، مضطهدين، محرومين. أما إذا تزوج الكويتي بغير كويتية فتعيش زوجته التي يتم تجنيسها وأولادها منه براحة واستقرار.

قد يكون لأن المجتمع لا يزال يلقّن الفتاة في سن مبكر أن رسالتها في الحياة هي فقط الإنجاب والتربية.

قد يكون لأنني أعيش في مجتمع لازال يردد أن تعليم المرأة مهم لأنها مربية الأجيال القادمة. فتعليمي ليس لي، لا يضيف لقدري أو قيمتي كإنسان في المجتمع هو فقط لتعليم ولإفادة الأجيال القادمة. بينما عندما يحصل الرجل على التعليم العالي يتم تقديسه.

قد يكون لأنني إذا أحببت فأنا عاهر، فاسدة، ساقطة، غير محترمة، قد جلبت العار لأسرتي، وأفسدتُ شرف الذكور من أقاربي. أما الرجل إذا أحب، فهو فارس رومانسي.

قد يكون أن الزوج كلما ملّ من وزوجته وأبنائه تركهم وسافر مع أصحابه. للرجل الحق بأخذ إجازة من أسرته لأنه يرى أسرته كوظيفة متعبة، بينما الزوجة عليها فقط الصبر والتحمّل والسكوت.

قد يكون لأن لفظ "مطلقة" لايزال عاراً، خزياً، وانتقاصاً من المرأة وقدرها، لكن "مطلّق" لا عيب فيها.

قد يكون لأنه يتم تلقين المرأة بوجوب إشباع كل حاجات زوجها النفسية، الذهنية والجنسية، وإلاّ فلا تستغرب تلك إن تزوّج زوجها بأخرى أو بدأ بخيانتها، فإشباع حاجات الزوج واجب المرأة. لكن إشباع حاجات الزوجة ليست واجب الرجل.

قد يكون لأن المجتمع لا يزال يعتبر أسوأ إهانة يمكن توجيهها للذكر هو تشبيهه بالأنثى، ويمدح ويرفع شأن المرأة بتشبيه أفعالها بأفعال الرجال.

أتكفي كل تلك الأسباب لتكون النسوّية غاضبة؟ هل سيعدّ المجتمع الذكوري الأبوي الكويتي كل ذلك التمييز الظلم، والاضطهاد مبرراً كافياً لغضبنا نحن النسويات؟ أم أن كل ما ذكرته هنا غير مهم، وغير كافٍ، ولا يعتبر عذراً يبرر غضب النسويّات؟

السؤال الأهم؛ لماذا يخشى المجتمع الذكوري الأبوي الكويتي غضب المرأة؟ يتقبّل غضب الرجل ويعتبره ردّة فعل إنسانيّة طبيعية، لكن المرأة إن هي غضبت فهي قليلة أدب وطويلة لسان، ووقحة؟ لأن المجتمع الكويتي يُفضّل الصامتة عن حقوقها، التي لا تتجرأ بالكلام والاعتراض على الواقع الذي ينتقص حقوقها ويقيّد حريتها، تلك يراها المجتمع ساقطة، كيف تتجرأ تلك الناقصة وتعترض على ما حدده لها الذكر من حدود دينيّة، اجتماعية، سياسية، واقتصادية؟ طبعاً لا يحق لها الاعتراض، يجب عليها أن ترضى، وترضخ وتصمت.

والغضب هو شعور مهم في الكثير من الأحيان، وأنا قد علّمت ابنتي عندما كانت صغيرة أنه إذا حاول رجل أن يلمسها فيجب عليها أن تغضب وتصرخ، عليها أن تغضب لأن هذا النوع من اللمس ممنوع، لا يحق لأي رجل (ولد) أن يلمسها في أي منطقة حساسة في جسدها، وأن ماما هي الوحيدة التي ترى هذه المناطق وقت الاستحمام، وماما الوحيدة التي يمكنها لمسها في هذه الأماكن عندما تقوم بغسلها. وعليها أن تصرخ وبشدّة إذا حصل وحاول أي ولد أو رجل لمسها بهذه الطريقة لكي تلفت انتباه الكبار ممن هم حولها، إذا أنا لم أكن موجودة لسبب ما، أو حصل الفعل بينما أنا لم أنتبه له. أحرص على تعليم و تذكير ابنتي بذلك لأنه كثيراً ما يتم تلقين الفتيات الصغيرات بالسكوت وعدم الاعتراض، حتى أنهن يصبحن عرضة للتحرّش الجنسي، و يصبحن هدفاً سهلاً للمتحرّش، لأنهن يخشين البوح بما يحصل لهن، خصوصاً إذا قام المتحرّش بتخويفهن "إذا تكلّمتِ أو قلتِ شيئاً لوالديكِ أو لأي أحد عمّا فعلناه سأقتلكِ" فتخاف الفتاة وتصمت.

كما أن الغضب والصرآخ هو المرحلة الأخيرة التي يصل إليها الإنسان المُضطهد، المظلوم، المقموع. نرى الشعوب تُطالب بالتغيير، تنادي، تتكلّم، تكتب، تهتف، لكن إذا ما استمرّت السلطة القامعة لتلك الشعوب بالظلم والتمييز والاضطهاد، وتأكدت تلك الشعوب أنه حكوماتها القامعة لا تهتم، ولا تسمعها، ولا تأبه بما تعاني منه شعوبها، فستبدأ تلك الشعوب بالصراخ، ستعبّر عن الغضب، ستخرج في الشوارع، ستتمرّد، ستستخدم العنف والتخريب إن كان ذلك هو الوسيلة الوحيدة للفت نظر حكوماتها الظالمة الغافلة عن ظلمها.

لذا فإن غضب النسويآت ما هو إلاّ ردة فعل طبيعية، لعدم الاستماع لمطالبهن، لعدم الاهتمام لهمومهن، لعدم الاعتراف بحقوقهن، لعدم إعطاء أي وزن أو قيمة لما يعانين منه من تمييز في المجتمعات الذكورية الأبوية.

الكويتية عايشة عيشة الأميرات!

كلما تكلّمت المرأة الكويتية عن التمييز والاضطهاد الذي تعاني منه في مجتمعها الذكوري الأبوي، ثار الرجل الماسوجيني وقال: "ماذا تريد الكويتية؟ بماذا تُطالِب؟ ما الذي ينقصها؟ الكويتية تعيش عيشة الأميرات، لديها وظيفة، وراتب، وسيارة. ماذا تريد أكثر من ذلك؟ الكويتية تعيش في ترف وبذخ ونعيم. مطالبتها بالمزيد من الحقوق والحريّات ليس إلاّ تماديا، وخروجاً عن ما هو مألوف، ودلعاً، ومبالغة."

هناك نظرة خاطئة لطبيعة المجتمع الكويتي، وهذه النظرة مبنيّة على أساس أن كل الأُسَر في الكويت تتمتع بدرجة عالية جداً من الثراء. هذه "المسلّمات الجاهزة" Steroptype تعطي انطباعاً مغلوطاً عن مجتمع تتكوّن غالبيّته من الطبقة المتوسطة أو ما تحت المتوسطة، أي تعتمد فيه معظم الأُسر على الدخل أو الراتب الذي تحصل عليه من الوظيفة الحكوميّة أو في القطاع الخاص، وتجد نفسها في أواخر كل شهر قبيل نزول الراتب في حسابها البنكي في ضيق وحيرة عن كيفيّة مواجه مصروفات تلك الأيام التي تسبق نزول الراتب. وأما عن ارتفاع القوّة النقدية للدينار الكويتي، فيقابلها دائماً غلاء المعيشة، فقيمة السلع والخدمات المرتفعة جداً في الكويت تغطي على القوّة النقدية للدينار وترذله إلى حالة من الضمور والانكماش.

لكن وإن سلّمنا بأن المرأة الكويتية ليست فقيرة، وتعيش في أريحية ماديّة نسبياً، كيف لذلك أن يحل محل حقوقها وحرياتها المهضومة في مجتمعها الذكوري؟ الراحة المادية (وإن كانت نسبية) لا تجعل الظلم والقمع مستساغاً. لا يمكن أن نتصوّر للمرأة أن تقول: قد يفضّل والداي أخي، ويدللانه ويمنحانه حقوقاً وحريات يحرمونني منها، وقد أتعرّض للتعنيف على يد الذكور في عائلتي أو قبيلتي، وقد أُزوّج غصباً عنيّ، وقد أُجبر على تحمل ضرر الضُرّة، وقد أحصل على راتب أقل من راتب الرجل رغم أننا نؤدي ذات الوظيفة، ونحمل ذات الشهادة، وذات سنوات الخبرة، وقد يُعامل أبنائي أسوأ معاملة إن تزوّجتُ من رجل غير كويتي ويتم حرمانهم من الطبابة والتعليم والوظيفة والإرث، وقد أرث أقل ممّا يرثه الرجل، لكن لا بأس فلدي راتب وسيارة.

كما أن الحقوق والحريّات لا يُعوّض بعضها بعضاً، فهل يتصوّر للرجل أن يكون مرتاحاً مادياً وفي نفس الوقت يتعرّض للتعنيف؟ هل يعوّض الامتلاء المادي الأذى النفسي والجسدي؟ وإن كان يملك الرجل سيارة فهل ستغنيه سيارته عن المطالبة بالمساواة في الدخل إن كان يحصل على دخل أقل من دخل المرأة بالرغم أنه يتساوى معها بعدد ساعات العمل، والخبرة، والشهادة العلمية؟

هل تملّكه لسيارة وراتب سيمنع الرجل المتزوّج من غير كويتية عن المطالبة بمساواة حقوق أبنائه، بأبناء الكويتية المتزوجة من غير كويتي، لو كان القانون يحرم أبناءه من التطبيب، والتعليم، والتوظيف؟ كما يحرم القانون أبناء الكويتية المتزوجة من غير كويتي من كل تلك الحقوق؟

ثم أن المعايير الدينية والاجتماعية التي تقع على الأنثى الكويتية لا يمكن مقارنتها بتاتاً بتلك الواقعة على الذكر. فالمجتمع الكويتي يتطلب أن تكون الأنثى على قدر عالٍ من التديّن، مما يدفع الكثيرات باتجاه الرياء والنفاق الديني والتغطية بالحجاب بالرغم أنه لا يعني لهن شيئاً، فقط كي لا تخسر فرصتها بالزواج، وذلك لأنها تُعلّم أن غالبية الرجال في الكويت يفضلون الزواج من فتاة محجبة. تتصرّف الفتاة بحياء مبالغ فيه، لأنه يتم تلقينها في سن مبكر أن زينة المرأة حياؤها واحتشامها، وتلقينها أن الكويتي يفضّل ذات الحياء، فنراها تتصنع الحياء. والمجتمع يضع على عاتقها أيضاً مسؤولية الاحتشام، ويلومها في حالة تعرضها للتحرش من قِبل الذكر- بأنها ليست محتشمة بما يكفي ولا يُلام الذكر على التحرّش. يتطلّب المجتمع من الأنثى أن تكون ذات خُلُق، وخُلُق الأنثى في المجتمع الكويتي محصور في عدم دخولها في علاقات عاطفية مع الذكر، الخوف من محادثة الذكر (من غير محارمها)، الحياء الشديد من التحدّث مع الذكر. وهذه الشروط الثلاثة هي ما تجعلها ذات خُلق ويرغب الذكر الكويتي في الزواج منها. أما التي تتحدث مع الذكور وتصادقهم، أو لديها تجربة عاطفية مع أحدهم، فتلك لا يمكن للرجل الكويتي احترامها واختيارها كزوجة. والمرأة المطلقة تعتبر امرأة سيئة، ولا يُعرض عليها الزواج بناءً على أنها لو كانت زوجة ناجحة لما تم تطليقها، ولا يُفترض أبداً سوء عشرة الزوج. بمقابل كل تلك المظاهر الخارجية الكاذبة لعفّة الأنثى؛ نجد الذكر الكويتي يتفاخر بعلاقاته المتعددة بالنساء، واستغلالهن، والكذب عليهن، نراه متذبذباً في أداء العبادات إن كان يؤديها أصلاً، نراه يضع اللحية قاصداً الميل للتديّن ثم حلقها عند الميل للجانب الآخر، نراه يطلّق زوجته، ثم يبحث عن امرأة بكر لم يسبق لها الزواج، لأن الطلاق لا يعيبه لكنه يعيب المرأة.

وفي مرحلة التقدّم للزواج يسأل الرجل الكويتي عن التي سيختارها ويدقق في تفاصيل كل أفراد أسرتها، فاكتشافه لعيب في أحد أفراد أسرتها ولو كان بعيداً، كأن يسمع شيئاً مشينا عن إحدى زوجات أعمامها، أو بنات خالاتها فهذا من شأنه أن يجعلها في نظره غير صالحة كزوجة، بالرغم أنه إن أراد الزواج من امرأة أجنبية (غير كويتية) تسقط كل تلك المعايير، فلا يعرف عن أهل الأجنبية أو أقاربها أي شيء. أما أهل الفتاة التي يتقدم لها أحدهم فلا يسألون إلا عن الرجل نفسه، ولا يقحمون أهله وأجداده بالسؤال، وغالباً سؤال بسيط لزملاء العريس في العمل عمّا إذا كان يصليّ من عدمه، كافٍ لِقبول أهل الفتاة به. لا، بل تغض الفتاة وأهل الفتاة نظرهم عن الكثير من العيوب، فلا يشترط بالرجل التديّن، ويُسمى ماضيه العاطفي الطويل الذي قام من خلاله باستغلال الكثير من الفتيات والكذب عليهن "مجرّد طيش" وأنه بالتأكيد نضج الآن بما أنه تقدم لطلب الزواج من ابنتهم. ويتفاخر الرجل الكويتي بمغامراته العاطفية ويحيكها لزوجته وكأنها إنجاز. وقد قالت لي امرأة أنها بعد زواجها ببضعة أشهر وجدت هدية في خزانة زوجها (عاشت معه في بيت أهله فخزانته هي ذاتها) وكان داخل الهدية رسالة حب، فضحك الزوج عندما واجهته، وقال أنها من الماضي، وبالرغم أنه نظف الخزانة جيداً من كل هدايا حبيباته السابقات إلا أنه لم يرَ تلك. وأخرى لم يمضِ على زوجها إلاّ بضعة أيام، تقول كنتُ معه بالسيارة فلمآ مررنا من مجموعة بنايات، قال لي وهو يشير للبنايات "كنت أكذب على حبيباتي عندما كنتُ آخذهن بالسيارة وأقول لهن أن كل هذا البنايات ملك أبي" وضحك، وكان يتوقّع منها أن تضحك معه، لأنه أمر مضحك بالنسبة له أن يخدع الرجل فتيات وثقن به.

في مجتمع يتطلّب العفّة والأخلاق من المرأة، ولا يتطلبها من الرجل، يصبح الرجل وقحاً، بل يتفاخر بوقاحته، لأن ليس هناك من يحاسبه، ليست هناك معايير يجب عليه أن يُحافظ عليها وإلا أصبح غير صالح كرجل، كزوج، أو كإنسان. يرى بوضوح أنه مهما كان فاشلاً، سيئاً، دنيئاً، خسيساً، ظالماً للمرأة، ستقبل به المرأة، لأنها لا تملك سوى أن تقبل به. فإذا كانت المعايير التي يضعها المجتمع للمرأة عالية، ستسعى المرأة لإشباع تلك المعايير وإن كانت عالية، حتى لو اضطرّت للنفاق والتمثيل، لأنها لا تريد خسارة فرصة الزواج. لكن إن لم تكن هناك معايير اجتماعية للرجل فسيتمادى في حماقته وانحلاله. وأريدُ أن أوضّح هنا لعلّ القارئة تتساءل في نفسها لماذا ترضى المرأة بذلك الرجل الخسيس؟ لتمتنع عن الزواج و ترفضه وينتهي الأمر، فليس الزواج طموح المرأة الوحيد.

وبالرغم من صحة ذلك الرأي إلاّ أن المرأة غالباً ترغب في الزواج وتكوين أسرة إن كانت لديها عاطفة الأمومة قويّة، إلى جانب ذلك قد تكون تحت ضغوطات أسرية، ووالداها يدفعانها بشدّة نحو قبول ذلك الذي تقدم لخطبتها، وأخيراً قد تكون حياتها في بيت أهلها سيئة جداً بحيث أن الزواج قد يكون حلاً وطريقة لخروجها من الجحيم الذي تعيش فيه، خصوصاً أن المجتمع الكويتي يرفض أن تستقل فتاة غير متزوجة في السكن.

كون المرأة الكويتية تحصل على دخل مقابل أدائها لعملها ليست نعمة يجب أن تشكر المرأة مجتمعها عليها طيلة حياتها، فكل إنسان يؤدي عملاً يستحق مقابلاً لذلك العمل. وكون المرأة الكويتية تقود سيارة ليس أمراً يعفيها عن المطالبة بحقوقها وحريّاتها الأخرى. ولا يحق لأي إنسان أن يرغمها على إنزال سقف مطالبها، وأن يتجمّل عليها، ويمتن عليها بقول "لتحمد الكويتية ربها فهي تعيش برغد مقارنةً بحياة المرأة في الدول المجاورة، حيث النساء مضطهدات ومحرومات"، هذا قول سفيه، لأن المرأة الطموحة - والمرأة الكويتية طموحة - لن تُقارن نفسها وظروفها بمن هن أسوأ حالاً منها، لكنها ستقارن نفسها بمن هن أفضل حالاً، وستسعى لتحصل على ذات حقوقهن وحرياّتهن.

كما أنه من الحماقة تسمية الراتب والسيارة رغداً في مجتمع يعتبر الراتب والسيارة أساسيات يحتاجها الإنسان للعيش.

إن كان الحجاب خياراً فلماذا نستحقر من تختار خلعه؟ وإن كان واجباً فلماذا نتكلّم عن القناعة؟

عندما منعت فرنسا المرأة المسلمة من لباس "البوركيني" أو "لبس السباحة الشرعي" في أغسطس 2016 أثار ذلك القرار ضجة كبيرة في الإعلام. كانت بعض التيارّات السياسية في فرنسا تنادي بتحرير المرأة، وكان رد النساء المسلمات المحجبات بأنهن اخترن لبس الحجاب، لأنها حريّة شخصية، هنّ نساء مسلمات اخترن تغطية الجسد كاملاً والشعر، ولم يتم إجبارهن كما يظن بعض الفرنسيون، وبالتالي فهن لسن بحاجة لتحرير لأنهن حُرّات أصلاً.

أعجبني تصدي النساء المحجبات في فرنسا للقهر الذي كان يُمارس عليهن عن طريق إجبارهن على خلع "البوركيني"، وكيف أنهن حاربن من أجل حقّهن وحريتّهن في اللباس المحتشم، كما أعجبني موقف الكثير من النساء غير المسلمات اللاتي وقفنَ مع المرأة المحجبة ودافعنَ عن حقها في اللباس المحتشم. بل أفادت الكثير من النساء غير المسلمات أنهن يلبسن "البوركيني" أحياناً عندما لا يرغبن في إظهار أجسادهن عند السباحة، وأكدنَ أن ذلك من حقهن سواء أكان السبب دينياً أو شخصياً. وقد قررت المحكمة العليا في فرنسا إلغاء المنع وأكدت عدم دستوريته لمخالفته للحريات الأساسية للإنسان.

ما أشكّ فيه هنا هو إصرار النساء المسلمات المحجبات أن الحجاب هو خيارهن الشخصي .

في مدارس الكويت يتم تعليم الفتاة ابتداءً من المرحلة المتوسطة في درس التربية الإسلامية أن الحجاب واجب. وكانت معلمة التربية الإسلامية تقول لنا باستمرار أن الحجاب واجب، وأن الفتاة التي لا تتحجب سيعاقبها الله عقاباً شديداً. فهل هو فعلاً خيار إن كانت الفتاة مخيّرة بين لبسه أو الاحتراق في جهنّم؟

عندما كبرتُ اشتد الإلحاح والضغط، صارت أغلبية زميلاتي في المدرسة يرتدين الحجاب، وفي كل مرة تحضر طالبة لم تكن محجبة بالأمس - إلى الفصل مرتدية الحجاب، تقوم المعلّمة بالإغداق عليها بالمديح، والثناء، وأروع وأجمل الكلام، وتقول لنا نحن اللاتي لم نتحجب بعد، بأنه يجب علينا أن نمتثل ونحتذي

بزميلتنا التي صار وجهها يشع بنور الإيمان - على حد تعبير المعلمة. أما أنا فلم أكن أرى نوراً، كنت أرى زميلتي كما هي، وجهها الجميل كما هو، لم يتغير شيء غير أنها الآن تغطي شعرها.

في المدرسة تم تلقيننا أن ارتداء الحجاب واجب وليس خيار، وبأن ديننا لن يكون صحيحاً ولا كاملاً إلاّ بارتدائه، وذات التعاليم تم تلقيني إيّاها في البيت. صارت كل قريباتي يلبسنهُ، وصرتُ أتعرّض لضغوطات شديدة، في كل مناسبة، وفي كل زيارة أسرية؛ "لماذا لا تكونين فتاة مؤدبة وصالحة كأخواتكِ وبنات خالاتكِ وترتدين الحجاب؟" و "هل تعلمين أنكِ إذا مُتِّ وأنتِ غير محجبة فلن يغفر الله لكِ أبداً، هل تعلمين أن الله "سيقذفكِ بالنار وسيعذبكِ عذاباً شديداً، فلم يعد لديك أي عذر أنت امرأة راشدة الآن.

عندما كنت أجادل بأن ملابسي محتشمة وبأنني لا أظهر شيء من جسدي، كان الرّد دائماً "الاحتشام وحده لا يكفي يجب تغطية الرأس" وإذا حاولت المناقشة أو الحوار فالرّد دائماً: "لا تتفلسفين، كلنا لبسناه، لا تبحثين عن أعذار، يجب على المرأة أن تتحجب وإلاّ فهي غير محترمة وغير مؤدبة، ولن يقبل أي رجل صالح بالزواج منكِ طالما كنتِ لا تغطين شعركِ، فالرجل الصالح يرى غير المحجبة أنها غير خلوقة وغير صالحة" واستمرت أساليبهم بالضغط من تخويف، وتسفيه، وربط قيمتي بمدى رغبة الرجل بالزواج مني، وإشعاري بالخزي والعار.

إن كانت تغطية الشعر واجبة فلماذا يستمر البعض بالاستفهام عن قناعة المرأة، كما نسمع كثيراً عندما يتم تسفيه امرأة محجبة لا ترتدي ملابس شديدة الاحتشام "لماذا ترتدين الحجاب إن لم تكوني مقتنعة به؟"، أو يقال للتي خلعته "ولماذا لبستيه إن لم تكوني مقتنعه به؟". لم تتوافر القناعة لأنه بكل بساطة تم إجبارها على لبس الحجاب، إن لم يكن الإجبار عن طريق العنف الجسدي، فهو قهر نفسي.

لبستُ الحجاب. لبسته لأنني أردت أن أكون فتاة صالحة، لبسته لأنني كنت أرغب بإرضاء أهلي، لبسته لأنه قد تم تلقيني بشدّة أنه واجبي كامرأة مسلمة أن ألبسه، لبسته لأنني خشيت العذاب والإحتراق في النار كما تم تلقيني منذ الصغر، لبسته لأنني لم أرغب بأن يهلك أهلي بالنار بسببي كما تم تلقيني أيضاً – بأن المرأة الغير محجبة تُعذّب ويُعذّب المسؤول عنها سواء كان الأب أو الزوج. لبسته لأنني كنت أطمح أن يختارني رجل صالح كزوجة كما تم تلقيني أيضاً منذ صغر. هل كان لديّ خيار؟ هل هو خيار إن كان الذين نحبهم، ونخشاهم، ونثق بهم، ونحترمهم يقولون لنا ليلاً ونهاراً أنه يجب علينا لبسه؟ هل هو خيار إن كان الخياران الوحيدان هما إما لبس الحجاب أو النار والنظرة المجتمعية الدونية؟

وإن كان فعلاً خيار، فلماذا لا يكون للمرأة أيضاً خيار خلعه؟ لماذا تُضطهد، ويتم استحقارها والحكم عليها بالخزي والعار كما حصل معي عندما قررت خلعه؟ وكما يحصل مع كثيرات قررنَ خلعه؟

تقول بعض الأُسر "نحن لم نجبرها هي لبسته من نفسها"، وتكون الفتاة قد لبسته عندما كان عمرها لا يتجاوز التسع سنوات أحياناً، فقط لأنه تم تخويفها بعذاب القبر والآخرة، أو لأن أختها الكبيرة لبسته وحصلت على الثناء والهدايا، فلبسته الصغيرة كي تحصل هي أيضاً على الثناء والهدايا. ثم إن كبرت هذه الفتاة و قالت لأهلها أنها ترغب بخلعه، منعوها، وأجبروها على الاستمرار في لبسه، وهددوها بكل العذاب الذي سيلحق بها من الله إن هي خلعته، والناس!؟ ماذا سيقول الناس عنها؟! ومن سيرغب بها كزوجة؟! فهي لن تكون فتاة صالحة إن هي خلعته. إن كانت الصغيرة ذات التسع سنوات لم تبلغ سن التمييز عند لبسه، فلماذا لا يحق لها خلعه عندما تكبر وتميّز؟

ولما ازدادت ظاهرة خلع الحجاب مؤخراً، شنّت دولة الكويت حملة دعائية مكثّفة بين إبريل و يونيو 2018 تحث المرأة على التمسّك بالحجاب بإعلانات في الشوارع تسوّق الحجاب بأنه "سر سعادة المرأة"، و بأن بالحجاب "ستحلو حياة المرأة". ونتيجةً لانتشار التشدد الديني في الكويت وبشكل خاص على المرأة وحريآتها، وبسبب توغّل الفكر السلفي والإخواني في السلطة التشريعية والتنفيذية، تم تحويل الحجاب إلى سلعة تجارية يتم التسويق لها كما يتم التسويق للوجبات السريعة في إعلانات دعائية عملاقة على جانبيّ الشوارع. وصار الحجاب وسيلة أخرى يستخدمها المجتمع الذكوري الأبوي للتحكم بالمرأة؛ فإن كانت صالحة ومؤدبة ونقيّة، فالدليل على ذلك تغطية الرأس، برغم علم المجتمع أن غطاء الرأس وإن كان رمزاً دينياً إلاّ أنه ليس دليلاً قطعياً على النقاء الخُلُقي. كما أن هذا الفِكر يهمّش التي تختار عدم تغطية الرأس و يظهرها بمظهر السيئة الساقطة، مما يجعل الكثيرات يخترن الحجاب (أو يخشين خلعه) فقط كي لا يتم تصنيفهن من المتحررات اللاتي يقسو عليهن المجتمع بأبشع الصفات.

تجد الفتاة نفسها وكأنها في لعبة إلكترونية Video Game يجب عليها تحصيل عدد نقاط معيّنة كي تحظى بالقبول المجتمعي والأسري، ولكي يتم تصنيفها من ضمن العفيفات، الطاهرات، الصالحات، المرغوبات من قِبل الذكر. إن هي لبست الحجاب حققت عدّة نقاط، وإن بالغت بالحياء، والخوف، وادعاء البراءة حققت المزيد من النقاط، وإن مارست الرياء الديني على مواقع التواصل الاجتماعي من المبالغة في كتابة الأدعية، والقرآن، ووضع صور أثناء أداء العمرة والحج، وانتقاد النساء المتحررات أيضاً تكسب نقاط.

تتعلّم الفتاة في سن مبكّر أن عليها ممارسة الرياء الديني، فمعلّمة ابنتي للتربية الإسلامية قالت للطالبات في الفصل "من لا تصلّي الظهر أثناء الفسحة سوف أنقص من درجاتها"، وهذا النوع من التلقين يعوّد الفتاة على أداء العبادات من أجل الحصول على شيء بالمقابل، على مكافأة (درجات إضافية)، أو تجنّب شيء كتجنّب خسارة الدرجات. هذه البرمجة تتطابق تماماً مع: "إذا لم تلبسين الحجاب فسينظر لك المجتمع نظرة سيئة" فتلبسه خوفاً من نظرة المجتمع الدونية. أو "إن لم تلبسيه فستزداد سيئاتك، وتقل حسناتك" فتلبسه خوفاً من العذاب. أو "إن لم تلبسيه فلن يرغب بك الرجل كزوجة" فتلبسه خوفاً من العنوسة. وهؤلاء الذين يدفعون المرأة ويضغطون عليها بلبس الحجاب، هم ذاتهم الذين يركزون على أهميّة النيّة في أداء العبادات، يقولون لها أن أهم شيء النيّة فالله سيحاسبها على نيّتها، فإن كانت نيّتها ليست خالصة لإرضاء الخالق فلن تحسب لها أي عبادة، ثم يجبرونها على التغطية من أجل المجتمع ومن أجل الرجل.

أما الرجل فيستطيع بكل أريحية تربية اللحية (التي يُقصد بها التديّن واتباع السنّة) ثم حلقها من دون تعرضه للحرج، ولا يلحقه العار. يستطيع تقصير الدشداشة (الثوب) ثم تطويلها، يستطيع أن يمر في "مرحلة" يداوم فيها على المسجد، ثم يكف عن ذلك من دون أن يتهمه أي شخص أنه غير صالح، أو أنه غير خلوق. لا تلاحقه ألسنة الناس ولا أحكامهم. فالرجل يتذبذب في الدين من دون أن يفقد نقاءه، ومن دون أن تتأثر فرصه بالزواج بمن يريد. لا يتعرّض للضغط النفسي ولا الاضطهاد المجتمعي، ولا التمييز بينه وبين من هو أكثر تديناً، ولا يُحقّر أو يُهمّش، أو يُهدّد بعذاب الآخرة.

انتي وين قاعدة بأمريكا؟

في كل مرّة تُطالب المرأة الكويتية بحريّات وحقوق اجتماعية أكبر: إسقاط ولاية الأب، الزوج، الأخ. حريّة السفر، حريّة التنقل، حريّة اختيار التخصص الدراسي، حريّة اختيار العمل والمهنة، حريّة الزواج من عدمه، حرّية اختيار الزوج، حريّة الزواج من أجنبي، حريّة الانفصال عن الزوج وتطليقه، حريّة الإنجاب من عدمه، حريّة الاحتفاظ بحضانة أبنائها، حريّة الهجرة، حريّة إبراز الهويّة الخاصة بها سواء عن طريق اللباس، أو التوجه الفكري، أو الميل الجنسي، أو المهارات وممارسة الهوايات. وذلك لأن في ممارسة كل تلك الحرّيات تجد المرأة الكويتية في أحيان كثيرة قوانين أو عوائق اجتماعية مانعة، أو على الأقل أعراف إما تمنعها تماماً أو تحد من حرّيتها في الاختيار. وفي كل مرّة تعبّر فيها المرأة الكويتية عن مطالبتها بحقوق وحريّات أكبر تجد ردّة فعل الرجل الكويتي كالتالي: "إنتي وين قاعدة بأمريكا؟"

طبعاً تلك العبارة من الرجل الكويتي تعطي انطباعاً للمستمع، وكأن الكويتي يحتقر الثقافة الأمريكية أو ينظر لها نظرة دونية. لكن في الواقع الكويتي يعيش حياة الأمريكي: يركب سيارة أمريكية، يعشق الأكل الأمريكي، يسمع الموسيقى الأمريكية، ينتظر وصول فيلم "آكشن" أمريكي إلى دور السينما بفارغ الصبر، يدرس في أمريكا ويتفاخر بشهادته التي حصل عليها من هناك، يحب تقليد الأمريكي في اللباس من حيث بنطلون "الجينز"، و"التيشيرت"، والكاب (القبعة)، يتغزل بجمال المطربات والممثلات الأمريكيات، ويُقلّد حرية الأمريكي في أنه يعطي نفسه الحق في مصاحبة الفتيات وملاحقتهم حتى بعد الزواج.

ما يقصده الكويتي عندما يضطهد المرأة النسوية بِعبارة: "إنتي وين قاعدة بأمريكا؟" وعادةً يرميها وبنبرة صوته الكثير من التسفيه والتهميش، هو أنه يحق له هو فقط كرجل أن يعيش وكأنه "قاعد بأمريكا". أما أمه، أخته، زوجته، ابنته، عشيقته! فعليهن العيش في الكويت، تحت تبعيّته وحسب أهوائه، ويبقين مجرّد تابعات له.

هناك ازدواجية أخرى يعيشها الرجل الكويتي، فهو يتحرّش بالمرأة الكويتية إن مارست حرّيتها باللباس بحجّة أنها غير محتشمة، فوفقاً لمنطقه الذكوري، أي امرأة لا تلبس الحجاب تستحق التحرّش، بل وتبحث عنه، و حجّته في ذلك أنه كرجل لا يستطيع التحكّم بغرائزه، إن هو رأى امرأة غير محجبة فطرياً سيتحرّش بها، وعلى هذا الأساس يُجبر نساء أسرته (أخته، زوجته، ابنته، وحتى أمه) بالاحتشام، بحجّة أن المرأة المحتشمة لا يتعرّض لها الرجل، بالرغم أن هذا غير صحيح. لكن الغريب في الأمر هو عندما يسافر هذا الرجل إلى الغرب ويدرس مع فتيات يلبسن ملابس قصيرة وضيّقة لا يتجرأ على مضايقتهن، وإن رأى فتاة تلبس "البكيني" على الشاطئ لا يتجرأ على التحرّش بها. يخاف التحرّش بالمرأة الغربية لأن مجتمعها لا يسمح له بممارسة ذكورّيته كما يشاء كما كان يفعل بالكويت، وسيحملّه المسؤولية كاملة إن هو تعرّض للمرأة وتحرّش بها، ولن يفيده الهراء الذي يردده في الكويت "أنا رجل ولا أستطيع التحكّم بغرائزي، لذلك من واجب المرأة الاحتشام عنّي". ومن هنا يتضّح كذب الرجل الكويتي، ونفاق المجتمع الكويتي، فالمجتمع هو الذي سمح له بالتمادي بتصديق كذبة أن الرجل لا يستطيع التحكّم بغرائزه.

نصف حياة – فراشات لا تُحلّق

تأتي لزيارتي إحدى طالباتي السابقات، بعد مرور سنة أو سنتين من تخرّجها من كلية الحقوق، لتفضفض لي عن كل ما اصطدمت به من معوّقات بعد تخرجها. فهي كانت ترغب بالعمل في المحاماة، كان هذا هدفها عندما التحقت بكلية الحقوق، وهذا هو ما حلمت به طوال السنوات الأربع التي قضتها في كلية الحقوق. حرصت على حضور محاضراتها من دون تهاون، دوّنت الملاحظات، ذاكرت، حضرت محاضرات المراجعة، ذهبت لأساتذة المواد ليساعدوها في فهم جزئية تعذر عليها فهمها، سهرت، قضت شهور طويلة في حفظ المعلومات القانونية (والكل يعلم مدى صعوبة المواد القانونية، وعسر المناهج، وتشدد أساتذة القانون)، وحرصت على تحصيل معدل دراسي جيد. ثم أخيراً جاء التخرّج. التحقت بالعمل في أحد مكاتب المحاماة، بعد أن أدت القسم أمام القاضي، وقيدت في جمعية المحاميين، وفصلّت الرداء الأسود، وتغلّبت على الهيبة الشديدة التي يشعر بها المحامي المبتدئ عند الوقوف أمام القضاة في قاعات المحاكم، ولم تعد ترتبك أو تخاف عندما تطالب بشراسة بحقوق موكليها، وتعلّمت كيف تحفظ مرافعة قانونية مقنعة، وتحيك دفاعاً مبنياً على الأدلة والبراهين، وأن تكون متهيأة نفسياً وشفهياً للرد على أي أسئلة من المحكمة، أو أي تشكيك بقوّة دفاعها من قِبل محامي الطرف الآخر. بدأت تشعر بالفخر في نفسها، فالمحامي صاحب المكتب الذي تعمل فيه أشاد وأثنى على مجهودها، والمستشارون القانونيون في المكتب كذلك، وشجعوها على الاستمرار. اكتسبت خبرة، وصارت تعرف أدق التفاصيل القانونية، وتدل طريقها في أروقة المحاكم المعقدة، والتفاصيل الدقيقة لرفع الدعوى وتنفيذ الأحكام، وبسبب فطنتها وقوّة ملاحظتها بدأت تعرف طِباع وشخصيات القضاة، فهذا القاضي يجلس باكراً ويرفع الجلسة باكراً من دون نداء ثاني[2] لذلك يجب عليها أن تصل للمحمة أبكر من المعتاد، وهذا القاضي يوجه نوعا معيّنا من الأسئلة للشهود، فيجب أن تنبه الشهود وتدربهم قبل الجلسة بيوم على الأقل على أسلوبه، وذاك القاضي يتأخر في الجلوس، لذا سيتسنى لها أن تنجز بعض الأعمال الإدارية في المحكمة قبل أن تتوجه للقاعة. بل إن القضاة ذاتهم حفظوا اسمها، ولم يعودوا يسألونها من هي قبل تدوين الاسم في محضر الجلسة. أصبح لها كيان، وصارت تشعر أنها تنضج، وتتعلّم كيف تتعامل مع الناس، من كثرة الاحتكاك بالمحاميين، والقضاة، ووكلاء النيابة، والمحققين، وشتى

[2] النداء الثاني هو إجراء قضائي، بعد أن يتم النداء على كل المتقاضين (المتخاصمين) وسماع طلباتهم المرة الأولى، يطلب بعض القضاة من الحاجب المناداة ثانية على المتخاصمين الذي لم يكونوا متواجدين خلال النداء الأول لإعطاء الخصوم المتأخرين فرصة أخيرة قبل شطب الدعوى

أنواع الموكلين. قراءتها اليومية لأنواع مختلفة من القضايا والأحكام ساعدها على حفظ الكثير من القوانين عن غيب، ومنحها مفهوماً أعمق للقوانين والإجراءات القضائية التي درستها في الجامعة من دون أن تفهمها بشكل تام لأنها لم تطبقها على أرض الواقع. صارت تطمح في أن تفتح مكتبها الخاص يوماً ما، أو أن تتشارك مع مجموعة من زملائها في المهنة لفتح مكتب.

لكن بالرغم من كل ما تحققه من نجاحات صغيرة في بداية الطريق، وبالرغم من مضيّها إلى الأمام في مهنة متعبة بهدف الوصول إلى شيء ذي معنى. ببذرة غرستها واهتمت بها، وسقتها، وصبرت على نموها البطيء، والآن أخيراً بعد سنوات طويلة من التعب، والتضحية، والمواقف المحرجة التي غالباً ما يحب القضاة تعريض المحامي الصغير في السن لها ليربكوه، والكثير من الإحباطات الاجتماعية أيضاً عندما رأت أكثر من مرّة كيف أن الموكل (رجلاً كان أم امرأة) يفضّل اللجوء لمحامي ذكر، ويثق بمهارته أكثر من الأنثى مهما كانت ماهرة. وصديقاتها اللاتي رضخن لوظيفة حكومية ذات ساعات عمل قصيرة، وراتب إن لم يكن مغرياً، إلا أنه ثابت، يقولون لها "انتي من صجج تشتغلين صبح وعصر!! خبلة؟! واااي من له خلق!؟ طلعي من المحاماة وروحي وزارة أحسن لج، صج انه ملل، وماكو شغل، ورتابة، وروتين، وودي أنتحر من كآبة الدوام، وودي أذبح البنات اللي معاي، ومسؤولتنا قشرة، ومديرنا نحيس، بس والله أحسن! "وبعدين قوليلي فهميني، شلون بتتزوجين وتيبين عيال؟ وشلون بتربينهم إذا انتي طول اليوم في الدوام؟

ومع ذلك استمرت، ضد التيار الشديد الذي يحاول تمزيقها، يحاول اقتلاعها من طريقها، يدفعها باتجاه الاستسلام والتخلي عن حلمها الشاق، لقصد طريق أأمن وأسهل ولا يناسب طموحها. بالرغم من كل ذلك ظنت أنها على الأقل لديها حليف (أو نصير) في والديها، اللذين يعرفان حق المعرفة كم يعني لها الأمر، لكن يومياً والدتها تنتقدها لتأخرها في الرجوع للمنزل، والدها يصرخ عليها لأنها تقضي كل وقتها في المكتب، والداها يذكرانها يومياً أنها لن تستطيع الحصول على زوج، لأن الرجل الكويتي يرفض الزواج من محامية "تراكض بالمحاكم". يومياً، وأحياناً مرتين في اليوم، والدتها تذكرها بأنها بلغت الثالثة والعشرين، تذكرها بأنها بلغت الرابعة والعشرين، بأنها بلغت الخامسة والعشرين، وأنها قريباً سيفوتها "قطار" الزواج، لأن الرجل الكويتي لا يرغب بالزواج من امرأة تحتك كثيراً بالرجال في عملها، الكويتي لا يرضى أن تدخل

زوجته المخفر لحضور جلسة تحقيق مع الموكل في غرفة المحقق، الرجل الكويتي يرفض الزواج من امرأة تعمل دوامين صبح وعصر، الرجل الكويتي يكره "المبلتعة" أو "طويلة اللسان" وهي صفة دونيّة يُقصد منها تحقير المرأة التي تتكلم بثقة، ولا تتردد بالمطالبة بحقوقها، ولا تتكلم بصوت خافت، ولا تطأطئ رأسها بحياء.

في كل مرة تتواصل والدة شاب مع والدتها عبر الهاتف، تسأل أم العريس عن وظيفة الفتاة، فتقول لها الأم بحسرة أن ابنتها محامية، فترد عليها والدة العريس بأن ابنها يشترط ترك الفتاة للمهنة. وفي المرّات التي جاء فيها خاطب مع والدته لرؤية الفتاة، تتصل أم الشاب بأم الفتاة في اليوم التالي لتخبرها ان ابنها يرغب بالزواج من ابنتهم بشرط أن تتخلى عن المحاماة.

ويتكرر السيناريو ذاته؛ عريس يرغب بها فقط إذا تغيّرت، فقط إذا تركت عملها، وضحّت من أجله، وهي لا تعرفه ولم تره من قبل، فالتضحية لرجل تحبه أسهل من التضحية لغريب. وإن كانت ستضحي بعملها له، فما التضحية التي سيقدمها هو لها بالمقابل؟ وإن كانت أولوّية هؤلاء الشبان وظيفة وعمل العروس، لماذا يأتون لخطبتها هي؟ فهم بالتأكيد سألوا عنها، وعن أسرتها، وعن وظيفتها قبل التقدم لها بطلب الزواج؟ لماذا لا يخطبون معلّمة مثلاً، أو موظفة في أي وزارة حكومية؟ لماذا يرغبون بتغييرها، ليقلبوا حياتها رأساً على عقب؟ ولماذا عليها أن تختار بين عملها وبين زوج؟ أيخيّر الرجل بين عمله وبين الزواج؟

عندما تحاول نقاش والدتها بالأسئلة السابقة، عندما تريد أن تفتح نوع من الحوار الحميم الصادق مع والدتها بأنها لا ترفض الزواج وتكوين أسرة، لكن هذه الضغوطات التي تجبرها على التخلي عن عملها تشعرها بالتهميش، بأنها تشعر أن لا أهمية لما ترغب هي به، ما تحلم هي به، الكل مهتم بما يريده العريس، وما يرغب به العريس، ولم يسألها أحد ما تريده هي؟ حتى العريس نفسه لا يبدو أن لديه أدنى اهتمام بما يسعدها أو يريحها هي. أحلامها، وأهدافها، وما سعت له، وما اجتهدت من أجله ليست من أولويّاته بتاتاً. أولوّيته كما يبدو هي "إذا كنتِ تريدينني كزوج فيجب عليكِ أن تبدئي بالتنازلات منذ الآن، قبل أن تصبحي زوجتي حتى". فمن المخيف حقاً بالنسبة لها كم أن طموحاتها ليس لها أي قيمة أو معنى، وخصوصاُ أنهما في البداية، فإذا كانت رغباتها لا قيمة لها في البداية، فكم من تضحيات ستبذل لاحقاً؟ وعن كم حلم وطموح ستتخلى كي يرضى الرجل؟ هل عليها كامرأة أن تتجرد من كل ما يجعلها من هي؟ خصالها، طباعها،

مميزاتها، أفكارها، شخصيتها، آراؤها، فقط ليرضى بها زوج؟ أن تتحول لقشرة خاوية؟

لكن بدلاً من أن يفتح مثل هذا الحوار قناة توافق/تفاهم بين الأم والابنة، وبدلاً من تحقيق الهدف المرجو وهو تقليص الفجوة بين فكر الأم وابنتها، وخلق مساحة آمنة للابنة للتعبيرعما يؤرقها، أو أن تجد على الأقل إيماءة رأس متفهمة، أو تنهيدة متعاطفة. تثور الأم أحياناً على أفكار ابنتها التي لا مكان لها في هذا المجتمع، وأحياناً تسخر من تفكيرها، وتذكرها بقسوة أن خيالها الواسع، والأفلام الأجنبية التي تظن أنها تعيش فيها لن تفيدها. وأنه من الأفضل لها أن تعقل وتفعل ما يريده هؤلاء الشبان، لأن غداً سيتوقف الهاتف عن الرنين، والسنوات هذه ستمر بسرعة شديدة، وستجد نفسها قد أدركت عمراً لا تكثر فيه خياراتها وبعد ذلك لن يفيد الندم.

تترك الفتاة المحاماة رغبة في إرضاء أهلها وخوفاً من فوات الأوان كما أقنعتها أمها. تذهب بقلب مكسور من وزارة إلى أخرى ومعها نسخ كثيرة من سيرتها الذاتية، تتقدم للوظائف، تملأ استمارة تلو الأخرى على المواقع الإلكترونية، تحضر المقابلات الشخصية، صوت بداخلها يخبرها كم هي مستاءة، تسكته، تصمته، تخمده، تحاول إقناعه من دون جدوى أنها تفعل الصواب، أنه من الأفضل لها أن تكون كما يريدها المجتمع أن تكون، أن تكون كما يريدها أهلها أن تكون، والأهم، كما يريدها الرجل أن تكون، أن تنزع رداء المرأة الطامحة، أن تتجرد من كل أحلامها، أن تكون بسيطة، هدفها في الحياة بسيط، وطريقها ممهد، تتزوّج تنجب، وتربي. أي فخر ستشعر به في المستقبل فسيكون بإنجازات زوجها أو أولادها، أما هي فلا يحق لها أن تفخر بذاتها.

لا أستطيع أن أحصي عدد المرّات التي حكت لي طالباتي السابقات ذات القصة. ذات الخذلان يتكرر يوم بعد يوم، سنة بعد سنة، يشرحن لي كم يكرهن وظائفهن الحالية، كم يشتقن للمحاماة، ويتمنين الرجوع لذلك الصخب، تلك الثورة في الدم، قضية مختلفة كل يوم، محكمة مختلفة كل يوم، لا روتين ولا رتابة، بل طاقة، وحيويّة، وسرعة بديهة للانتقال من قاعة محكمة إلى أخرى، ومن غرفة مداولة إلى أخرى، ومجهود عقلي وجسدي لذيذ يشعرهن أنهن أحياء، وما بذلوه من جهد أكاديمي لم يذهب هباء. أما الآن فيجلسن على مكاتبهن طوال اليوم، يتذمرن من بؤس المكان، وعدم وجود أي عمل يشغلهن، بطالة مقنعة، حيث تكثر النميمة بين زميلات العمل، والأكل المبالغ فيه، فكل موظفة تحضر معها الكعك، والفطائر، والقهوة،

وتصبح المجاملة واجباً، لا نقاش يثري العقل ولا الفكر، ولا عمل يُكسب مهارات، ولا مجهود ينشط الذهن ولا الجسد. كما أن هناك تكلفة مادية كبيرة تقع على كل موظفة، حين تشتغل مجموعة من النساء في مكتب واحد، ففي كل مرة تتزوج إحداهن، تنجب، تعود من سفر، تتعافى (أو يتعافى طفلها) من مرض، تحصل على ترقية، تستقيل، تنتقل لإدارة أخرى يجب عليهن جميعاً المشاركة في ميزانية الهدية التي يجب تقديمها، وبالطبع من العيب شراء هدية بسيطة، وبالتالي جزء كبير من دخلهن الشهري يذهب في المجاملات المبالغ فيها. أما رفض إحداهن المشاركة في هذه الطقوس غير الضرورية فسيؤدي إلى حساسية، وكلام، وزعل، وخصام، وانتقاد لا نهاية له.

أعرف هذه القصة تماماً، أحفظها عن غيب، فهي قصتي أنا أيضاً، كنت تلك المحامية الشغوفة، النشيطة، لا سقف لأحلامي وطموحاتي. في العمل (في المحكمة أو في المكتب) كنت أشعر أنني ذات قيمة، أن لِعملي ولحياتي وما أبذله من جهد معنى، وبمجرد رجوعي للبيت أجد أمي تنتظرني لتصرخ عليّ من جديد (وكأنني نسيت كم صرخت عليّ بالأمس، أو ذلك الصباح) ذات الأسطوانة: "كبرتي! متى ستتزوجين؟ لن تتزوجي إن لم تتركي هذه المهنة اللعينة، لن يرضى بكِ أي رجل، فالرجال لا يرغبون بالمحامية، لا يرغبون بمن تعمل دوامين، من سيتزوجكِ وقد بلغت الرابعة والعشرين من عمركِ؟". ثم تبعث والدي ليصرخ عليّ المزيد.

عندما جاء أحد الخطّاب مع والدته لمنزلنا، قال لي مباشرة أنه إن صار توافق بيننا فعليّ أن أترك المهنة. كانت والدته ووالدتي تجلسان مجرد بضعة أمتار منّا، لم يكن ما قاله جديداً عليّ، كنت قد قررت رفضه مسبقاً فقد قال الكثير من الأشياء التافهة التي تدل على غبائه وعدم نضجه، رغم أنه كان في الثلاثينيات من عمره، لكنني تشجعت وسألته لماذا يرفض لزوجته أن تمتهن هذه المهنة بشدة؟ فقال "شغل المحاكم ما يتناسب مع بنت" سألته إن كان قد دخل المحكمة قط، فقال: "لا، بس صديقي محامي، ويقول اختلاط كثيف بالرجال، والممرات ضيقة، وريحة سجائر، هذه الأجواء لا تناسب البنت". سألته "وأنت؟ ألا تدخن؟" قال "بلا أدخن، بس لا تقولين حق أمي".

اليوم أرى طالباتي اللاتي كانت عيونهن مليئة بالشغف والتفاؤل، وأرواحهن جائعة للمعرفة، وقلوبهن عامرة بالطموح، كالفراشات اللاتي كافحن للخروج من يرقاتهن فقط ليتساقطن على الأرض، قبل أن يتسنى لهن التحليق.

للرجل في المجتمع الكويتي أن يعيش حياة كاملة، أما المرأة فلها فقط نصف حياة. لا يتوجب على الرجل التضحية ولا التنازل عن أي شيء؛ لا عن أحلامه، ولا طموحاته، ولا رغباته، ولا عن راحته. أما المرأة فالتنازل والتضحية يصبحان جزءاً ثابتاً ومستمراً في حياتها. للرجل أن ينمو، ينضج، يتغيّر، يسعى لحلم جديد، وهدف مختلف كل ما طاب له ذلك، أما المرأة فتتلاشى تدريجياً، تضمر، ويصغر عالمها حتى يتمحور فقط حول طلبات الزوج والأولاد.

هذا لا يعني أن مهنة المحاماة (أو غيرها من المهن الشاقة) خالية من العيوب، فهناك فعلاً تحديات؛ أهمها طول ساعات العمل، لكن لماذا يضع الرجل الكويتي على عاتق المرأة أكبر المسؤوليات وأشدها ألا وهي التربية، ويثق بقدرتها على تربية أولاده، ويوليها هذه المسؤولية من عمر صغير (عادة منذ بلوغ الفتاة الثامنة عشرة من عمرها)، لكن لا يثق فيها كامرأة قادرة على أن تتخذ القرار الصحيح حين يحين الوقت؟ فحين تجد المرأة نفسها غير قادرة على موازنة مهنتها مع مسؤوليتها كأم، حتماً ستختار أبناءها، أو ستتفاوض مع رب عملها على ساعات عمل مريحة، أو قد تكون هي في ذلك الوقت قد أصبحت صاحبة مكتب وقادرة على التحكم بساعات عملها. الرجل يعرف أن المرأة تتسم بنضج عاطفي وعقلي كافٍ، لكن المسألة بالنسبة له مسألة تحكم، وإلاّ لماذا يتقدم لِمحامية من الأساس. الأمر ذاته يحدث عندما يتقدم لفتاة غير محجبة ويشترط عليها الحجاب (أو العباءة، أوالنقاب)، يريد التحكم بالمرأة ولا يشعر برجولته إلا إذا تحكّم فيها، وإلاّ فلِمَ لا يختار فتاة محجبة من الأساس.

إجبار المرأة على التخلي عن طموحها ليس كتخلّيها هي عن طموحها بمشيئتها المنفردة، ففي الحالة الأولى نحن نقول للمرأة أنتِ طفلة لا تفهمين شيئاً، ولا تعرفين مصلحتكِ، ولذلك سنصرخ عليكِ، ونهددكِ بفوات فرصة الزواج، وسنزجّ بكِ في زاوية ضيّقة بحيث يكون الخيار إما عملكِ، وإما السعادة والاستقرار والأمومة. ننزع بقسوة جزءاً من ذاتها وكيانها، فتفقد الثقة بنفسها. أما عندما نمنحها المساحة الكافية لاتخاذ

قراراتها، عندما نثق بنضجها، عندما نؤمن بها كإنسان كامل، بضمير، وعقل، وإدراك، ووعي كافٍ وقادر على التمييز بين ما يتناسب معها وما يعرقل حياتها، قادرة على تحمّل نتيجة أخطائها، فنحن نطرح فيها ثقة أكبر في ذاتها، تستطيع هي من خلال هذه الثقة أن تقيس وتوازن الأمور، تصبح إنسانة أقوى وأما أفضل. خصوصاً أن عبء التربية - في المجتمع الكويتي - غالباً ما يقع بالكامل على المرأة.

نعلّم الفتاة منذ عمر صغير أنها غير قادرة، نكسر ثقتها بنفسها شيئاً فشيئاً: "دعي أخوكِ يذهب، أنتِ لا تعرفين، أنتِ بنت"، "لا تتكلمين عن هذه المواضيع، أنتِ بنت"، "لا تمشين بهذه الطريقة أنتِ بنت"، "لا تجلسين بهذه الطريقة انتِ بنت" "أنتِ اسكتي! أنتِ لا تفهمين!؟ أنتِ في النهاية بنت". وعندما تكبر قليلاً نقنعها أن لا قيمة لها بتاتاً إلاّ بارتباطها بزوج. هذا يؤدي إلى شيئين سلبيين: الأول أن الفتاة الشابة تبدأ تلهث وراء الرجل إيماناً منها أنها لا تكتمل إلاّ به، فتقذف بنفسها في علاقات عاطفية غالباً ما تدمرها معنوياً وتعبث بسلامها النفسي والروحي.

والثاني أن المرأة التي تجد نفسها من دون زوج بعد الطلاق أو الترمّل، تصبح وكأنها في صحراء شاسعة فارغة، لا تعرف أين تتجه، أو ماذا تفعل بنفسها، لأنها تبرمجت منذ الصغّر أنها غير مكتملة من دون الرجل، وبدلاً من أن تنتهز هذا الفصل من حياتها في تطوير ذاتها، أو السعي وراء هدف كانت تتمناه من إكمال تعليم، أو ممارسة هواية، أو حتى توسيع مداركها بشكل بسيط في السفر أو القراءة، أو في عمل تطوعي يشبعها نفسياً. نجدها واقفة تائهة، تبحث عن زوج آخر، مكتئبة ومكسورة الخاطر أنه لا يوجد من يطلب يدها، وقد تقنع بعد طول انتظار وخوف من الوحدة ووحشتها بمتزوج يبحث عن زوجة ثانية فترمي بنفسها في جحيم وألم لا نهاية لهما.

التحكم ليس حباً

أهوَ حب إن كان يجبركِ أن تتغيري تغيراً جذرياً من أجله؟ أن تتركي عملكِ الذي يسعدكِ من أجله، لأنه يرى أن مهنتكِ "غير مناسبة" للمرأة. ويجبركِ على إظهار علامات تديّن لا تعني لكِ شيئاً لكي تُرضي أهله، فأهله المتدينون - على حد قوله - لن يقبلوا أن تكون زوجة ابنهم أقل تديناً منهم، وكأنكِ تتزوجين من أهله بدلاً منه! ويتوقع منكِ أن تتجردي تماماً من أحلامكِ وطموحاتكِ، وأفكاركِ، وآمالكِ وكأنه يطلب منكِ خلع فستان يظن هو أنه لا يليق بكِ، فعلى حد رأيه هذه الطموحات والأحلام الكبيرة لا تتناسب مع المرأة الخاضعة، الصامتة، الخَجِلة، الضعيفة التي يتصورها زوجة له وأما لأبنائه. هل هو حب إن كان يتوقعكِ أن تطيعيه طاعة عمياء، وأن تفعلي كل ما يريده هو من دون أي اعتبار لما تريدينه أنتِ؟ أن يحد من حريّتك ويقيّدها ويُقنعك أن ما يقوم به ليس تحكماً بل "غيرة".

الغيرة ليست إلاّ مسمى رومانسياً للتحكم، فالرجل في المجتمع الكويتي الذكوري الأبوي يستمتع بالتحكم بالمرأة لأن ذلك التحكم يعيطه شعورا مزيّفا بالسلطة، وحب الرجل الماسوجيني للسلطة والتحكم ينبع من مصدرين: الأول هو اعتقاد الرجل أنه آلهة، فالألوهية فكرة ذكوريّة، أوجدها الذكر وأسسها وفقاً لِصفاته ومعاييره الذكورية، ولأن الإله في الديانات السماوية يتسم بالذكورة، يستفيد الذكر من هذا التشابه بينه وبين الآلهة، لأن تطابقه مع الآلهة يمنحه سلطة وشرعيّة على المرأة، التي صوّرها الذكر في الديانات السماوية بأنها ملحق للذكورة، ومكمّلة لحاجات الذكر، وأن دورها في الحياة هامشي ودونيّ، ولابد من مراقبتها والسيطرة عليها، والتحكم بها لأنها سبب خراب المجتمع وارتكاب المعاصي. والسبب الثاني، هو أن الاضطهاد مرض اجتماعي طبقي، ففي البلدان الأبوية القمعية يضطهد الحاكم أي شخص ينتقد نظام الحكم ويسجنه، ويتم قمع وسجن أي شخص ينتقد الدين أو يأتي بفكر مغاير للفكر السائد، ويتم تهميش ومعاقبة أي شخص يستنكر ويحارب الفساد أو يطالب بالمزيد من الحقوق والحريآت، ففي هذه المجتمعات يجد الذكر نفسه مهزوماً منكسراً مُضطهداً من قِبل السُلطة، فيرغب بدوره بممارسة القمع والاضطهاد، فيتسلّط على من هي أضعف منه؛ المرأة، فيتحكم بها، ويحد من حريّتها ليشعر بشيء يشبه القوّة.

الرجل يتحكم بالمرأة ويسميّ تحكمه حباً، لأنه يعلم أن المرأة ستتقبل وتستسيغ ذلك التحكم أكثر إن كان مرتبطاً بالحب والرومانسية. كما يحد الأب/الأخ من حرية ابنته/أخته ويسميه خوفاً، لكنه في الواقع يراقبها ويسيطر عليها ويقيّد حريّتها لأنها في نظره كائن هش، قابل للكسر، تكمن قيمتها فقط في عذريتها، وبالتالي يجب مراقبتها وحجبها ومنعها من كل أشكال الحريّة. فلو كانت الأنثى بالنسبة له إنساناً ذا كيان وقيمة خارج الفرج والعذرية، لكان كرّس وقته وطاقته بتعليم وتوعية الذكر بعدم التعرّض للأنثى واحترامها، وليس حجب الأنثى عن نظر الذكر. خصوصاً أن حجب المرأة عن نظر الرجل يعزز لدى الرجل اعتقادات خاطئة؛ أن الرجل غير قادر على كبح رغباته وشهواته الجنسية، لذلك فلابد من المرأة التحجب عنه، لأنه لن يستطيع السيطرة على نفسه إذا ما كشفت المرأة عن جسدها أمامه، فهو كالحيوان الشهواني الذي لا يملك كبح نفسه أو شهواته. وأن المرأة غير المحجبة تقصد إغراء الرجل وتناديه للتحرّش بها، كما أنها ساقطة أخلاقياً. وأن الحجاب رمز للعفّة والطهارة، والمرأة المحجبة تُوضع بدرجة اجتماعية أعلى من تلك غير المحجبة. ونحن نعلم أن الرجل الكويتي ليس حيواناً وأنه قادر على التحكم بشهواته، والدليل على ذلك درجة الرقي والاحترام التي يتعامل فيها مع النساء الغربيات العاريات عندما يختلط بهن، ويعيش بينهن بسبب الدراسة أو العمل، فإذن هو المجتمع والدين الذي يلقّنه عدم احترام المرأة الكويتية غير المحجبة والتحرّش بها، وليست فطرته. أما رفع مكانة المحجبة اجتماعياً واعتبار الحجاب رمزاً للعفة والطهارة فهو يشجع على النفاق في الدين، واستغلال الحجاب كوسيلة للمرأة لفعل ما تريده خلف ستار الحجاب، فتتحجب لتثبت أنها على درجة عالية من الأخلاق، العفة، والطهارة، بالرغم أن الواقع قد يكون أنها إنسانة عادية تخطئ وتتعلّم من أخطائها.

عندما يسمح المجتمع الكويتي الذكوري الأبوي للرجل أن يتحكم بجسد المرأة، تفقد المرأة ملكيّة جسدها، فجسدها يصبح ملكاً للرجل، فلا تستطيع أن تختار ما يحق لها وما لا يحق لها فعله بجسدها، فلباسها يصبح حسب رغبة الرجل وهواه، و الأماكن التي يسمح لجسدها بالتواجد من عدمه يكون حسب رغبة الرجل، فهو يحدد أين يمكنها الذهاب ومع من، كما أنه يتدخل بحجم الجسد ومظهره، كأن يعبر لها عن وجوب خسارتها للوزن، أو زيادة الوزن، أو أنه يريد منها تكبير الصدر، أو شدّ البطن، نفخ الفم، تصغير الأنف، قص الشعر، تطويل الشعر، أو تغيير لون الشعر، أو العينين. وأيضاً التحكم بِرَحِمْ المرأة، فالكثير من الأزواج يمنعن زوجاتهن من أخذ موانع الحمل بحجّة أنها محرّمة دينياً، لكنها في الواقع صورة من صور تسلّط الزوج وتحكمه بجسد الزوجة. والدليل على ذلك أن لكل زوجة مجبرة على الحمل والولادة لأن زوجها

يمنعها من أخذ موانع الحمل، هناك زوجة عقيمة أو ذات زوج عقيم، يرفض زوجها الذهاب معها لإيجاد علاج لها أو له، وبالتالي فالأمر ليس متعلقاً بحب الأطفال من عدمه، وليس الأمر متعلّقاً بالدين، لكن الأمر متعلّق تماماً بتسلّط الرجل على جسد المرأة والتحكم به كما يشاء.

تقول لي إحدى النساء التي لا ترغب بإنجاب المزيد من الأطفال بعد أن أنجبت ستة، أن زوجها يمنعها و يعنفها إذا تحدثت معه عن رغبتها بالتوقف عن الإنجاب وأخذ مانع. لكنها هي التي تعاني، فالحمل متعب، والإنجاب مرهق، وتربية عدد كبير من الأطفال بِفارِق عمري بينهم لا يتجاوز السنة ينهكها ويستنفذ كل طاقتها النفسية، العقلية، والجسدية. كما أنها لا ترغب بالمزيد من الأطفال فلماذا تُجبر على إنجابهم، وهي لا تطيق رضاعتهم، ولا تربيتهم، ولا تمريضهم، ولا تدريسهم، ولا تأديبهم. أما امرأة أخرى، فقد دار على زواجها خمسة سنوات، لم ترزق خلالهما بطفل، وترغب بشدة بالإنجاب، وبعد ذهابها وزوجها لطبيب متخصص، أفاد بأن العلّة في الزوج، ومن ذلك الحين وزوجها يرفض الذهاب لطبيب آخر لمعرفة ما إذا كانت هناك سُبل أو حلول، يرفض النقاش، ويرفض الحديث بالموضوع، ويصرخ ويعنّف إن هي أبدت رغبتها بتبنيّ طفل، ويرفض أي اقتراح للبحث في الإمكانيات العلمية الحديثة التي قد تساعدهما على الإنجاب. فكلا المرأتين تُعانيان بصمت من دون أي تفهّم أو أي تعاطف من قِبل الزوج، ولا تملك أي منهن سلطة على جسدها ورحِمها، فأجسادهن بالكامل تحت تحكم وسيطرة أزواجهن.

وفي قصة أخرى، تحكي لي امرأة أنها لم تستطع الإنجاب لسنوات، وبعد ذهابهما لأكثر من طبيب أكّد لهما جميع الأطباء والمتخصصون أن الزوج عقيم تماماً ولن يستطيع الإنجاب. عبّر لها زوجها أن عقمه يحزنه كثيراً لأنه يتعلّق برجولته وينتقص منها، ولأنه رفض فكرة تبنيّ طفل، فلم تفاتحه زوجته بموضوع الإنجاب مرّة أخرى، وقررت بأنها تحب زوجها أكثر من رغبتها بأن تكون أما، رغم أن عاطفة الأمومة لديها كانت قوّية جداً، لكنها ستصبر على حرمانها، وسترضى بما قسمه الله لها. لكنها تفاجأت بعد عشرين سنة من زواجهما أن زوجها تزوّج بالسر من امرأة مطلقة ذات أبناء، ظناً منه أنه إن تزوج بامرأة قد أنجبت من قبل، قد يُحالفه الحظ وتنجب منه! وبهذا يكون قد أثبت أن كل الأطباء مخطؤون بأمر عجزه، وأنه رجل فحل وقادر على تلقيح المرأة، وأن العقم كان في زوجته التي تحمّلت وصبرت على حرمانها من الأمومة من أجله. لكنه بالطبع كان عاجزاً عن تلقيح زوجته الثانية لأن كلام الأطباء له قبل خمسة وعشرين عاماً عندما أكدوا له أنه عقيم كان صحيحاً.

الأمر لا يتعلق بحب الأطفال من عدمه، فنحن نعلم أن بمجرد خروج هؤلاء الأطفال إلى الحياة تُرمى مسؤوليتهم بالكامل على الأُم، المسألة تتعلّق بالكامل بذكورية الرجل الماسوجيني، وأنانيّته، وحبه لذاته، وإصراره على تملّك أجساد النساء ووقوع أجسادهن تحت سيطرته وتحكّمه.

التحكم ليس حباً. فإن كان حبهم لكِ مشروطاً بطاعتكِ لهم، فهو ليس حباً.

وإن كان حبهم لكِ يعتمد كل الاعتماد على أن لا تخالفيهم الرأي، فهو ليس حباً.

وإن كان حبهم لكِ مشروطاً بأن تظلي تتبعيهم بكافة إيمانيتاهم وأيديولوجيتهم، وقلبكِ يخبركِ بأن اعتراضكِ على طريقتهم في الحياة، وخروجكِ أو حتى احتجاجكِ على فكرهم سيؤدي حتماً إلى تهميشكِ واقصائكِ، لا بل وتعنيفكِ ومعاقبتكِ، فهو ليس انتماءً وليس حباً. لأن الحب المشروط ليس حباً.

كيف يصنع مجتمعنا الماسوجينية

عندما يرضع المرء الماسوجينية[3] من صدر أمه، تصبح الماسوجينية أمراً عادياً جداً لا يدعو للاستنكار. لأن الماسوجيني كالعنصري، لا يدرك أن ما يقوله أو ما يفعله ماسوجينية. فعندما ينعت العنصري شخصاً ذا بشرة سمراء "بالعبد" أو أن يقول له "يا أسوَد" بقصد الجمع بين السخرية والمزاح، لا يرى حرجاً في قوله، ولا يعده أسلوباً للتحقير، أو للتصغير، أو للاضطهاد. لأنه منذ سن مبكر جداً استمع لوالده ووالدته، وأجداده ينادون شخصاً "بالعبد" أو "بالأسوَد" بقصد تحقيق السخرية والمزاح معاً. لكنك إن واجهت هذا الذي ينادي إنساناً "بالعبد" بأن ما يقوله هو من قبيل العنصرية، سيستغرب جداً من اتهامك له بالعنصرية، لأنه عندما استخدم لفظ "عبد" أو "أسوَد" لم يفعل سوى ما يفعله كل من حوله، وبما أنه لم يرَ أي حرج أو استنكار من ذلك الفعل ممن هم حوله من مربيّن، أو أب، أو أم، أو أجداد (الأشخاص الذين يتعلّم منهم ما هو صحيح وما هو خطأ)، فلن يدرك أبداً أن ما يفعله أو ما يقوله هو من قبيل العنصرية.

كذلك بالنسبة للماسوجيني، فهو تعلّم منذ صغره أن الرجل أفضل من المرأة. أمهُ تفضله على أخته، ووالده يفخر بلقب "أبوفلان"، والده يصرخ على أمه، أو يسخر من رأيها، أو يُسكتها إن لم يعجبه كلامها، أو يعاملها وكأنها لا تفهم. ولأنه رأى والده يصرخ على أمه، فهو يبدأ بالصراخ على أخته. يرى أيضاً أن له حقوق وحريات لا تتمتع بها أخته، يسمع بالمدرسة حديث عن الرسول أن أكثر أهل النار من النساء، يذهب إلى الديوانية مع والده فيسمع أحد الرجال يحتقر قول آخر بمقولة: "اترك عنك سوالف الحريم"، وآخر يحتقر شجاراً بين رَجُلان بوصفه "هوشة جناين[4]". يكبر أكثر فيسمع صديقه يحقّر شاباً آخر بوصفه "بالأنثى". يكبر أكثر فيسمع من أحد أصدقائه أنه يعنف أخته بالصراخ عليها أو ضربها إن كانت قد لبست ما لا يعجبه بعذر أنه يغار عليها ويحميها، وأنه إن لم يفعل ذلك فهو بالتأكيد كما قال مدرس التربية الإسلامية "ديوث". فيذهب الآخر إلى البيت ويبدأ بالتحكم في أخته عن طريق الحد من حريتها، ويهددها بالتعنيف إن لم تمتثل لأوامره، ويقتنع تماماً أن ما يفعله هو من حقه لأنه رجل، ومن مصلحة أخته، وأنه لا يتحكم بها كما يشاء

[3] الماسوجينية لفظ مأخوذ من الكلمة الإنجليزية misogyny ، الماسوجيني هو الذي يكره المرأة ولا يرى أن من حقها أن تحيا بمساواة مع الرجل. وقد تكون المرأة ماسوجينية أيضاً

[4] هوشة أي شجار. جناين وهي كلمة كويتية شعبية، الجيم تُنطق "تش" والقصد منها زوجات الأبناء اللاتي يكثر الشجار بينهم بسبب المنافسة والغيرة

ليشعر برجولته المزيّفة، بل يحميها من نظرات الرجال لأنه رجل ذو "غاريّة". يستمع لرجل دين في التلفاز يكرر حديث "لن يفلح قوم ولوّ أمرهم امرأة"، وفي إذاعة الراديو يسمع رجل دين آخر يكرر حديث "أن النساء ناقصات عقل ودين". وعندما يستمع لحوارات النساء، يرى أن أهم معيار لتقييم كلٌ منهن للأخرى هو معيار الشكل الخارجي، فيسمع أمه تقول لخالته "شفتي فلانة كانت حلوة الحين شمتنها[5] صارت مسكينة"، وبينما جميعهم يشاهدون العرس الملكي البريطاني تستغرب أخته من اختيار الأمير هاري "لتلك السمراء" أو "الشيفة"[6] ميغان ميركل، بينما كان بإمكان الأمير هاري أن يتزوج أجمل امرأة، وما تقصده الأخت "بأجمل امرأة" هو المعايير الأوربية الكلاسيكية؛ امرأة شديدة البياض، ذات شعر أشقر، وعينين زرقاوتين، وشفتين زهريّتين. وعندما يصبح دور هذا الشاب في الزواج يقول لأمه أنه يريد فتاة بيضاء، ذات شعر أشقر، وعينين زرقاوتين. هكذا يصنع مجتمعنا الرجل الماسوجيني. هكذا نخلق رجلاً يستخدم كلمة "امرأة" أو "أنثى" أو "بنت" ليُهين بها رجلاً آخر، لأن المرأة هي أدنى شيء يعرفه. بهذه الطريقة نلقّن الرجل في مجتمعنا أن المرأة لا يصلح حالها إلاّ بالحزم والشدّة والعنف، يجب مراقبتها وتأديبها، فهي لا تحسن التدبير وليست ذات حكمة أو فطنة فيجب على الرجل أن يحكمها، هكذا نعزز لدى الرجل في مجتمعنا أن المرأة مجرد جسد جميل، فإن لم تكن جسداً جميلاً فهي لا شيء.

سيتضح للقارئ أنه لكي يخلق المجتمع رجلاً ماسوجينياً فلابد أن تكون الأمُ ماسوجينية أيضاً، لأنه يتربى بحضنها من الولادة وحتى العشرينيات. فالمسؤولية ليست فقط مسؤولية الأب الذي لقّن ابنه أن المرأة أقل من الرجل عن طريق التعامل المستهتر مع الأُم، بل مسؤولية الأمِّ أيضاً. الكثير من النساء الكويتيات ماسوجينيات، لأن الماسوجينة لا تقتصر فقط على الذكور، الماسوجينية فِكر يحمله الكثير من الرجال و النساء. فالأم - في المثال أعلاه - تم تلقينها في سن مبكر أن الذكر أفضل من الأنثى، وأن إنجاب الذكر يعطيها نوعاً من "بريستيج" لا تتمتع به التي لم تنجب سوى الإناث، إلى جانب صيرورة ابنها مصدر فخر لها، لأنها صارت "أم فلان"، فهو أحياناً يحل محل الزوج في تحقيقه لأحلام معيّنة، كأن يخذها للعمرة/للحج إن امتنع الزوج، يصبح طبيباً كما تمنت له أن يكون، لأنها كانت تتمنى أن تتزوج طبيباً.

تفضّل الأم الماسوجينية ابنها الذكر لأنه تم تلقينها منذ الصّغر أن أخاها الذكر أفضل منها، وأذكى منها و أكثر نفعاً وفائدة منها، وهي ليست إلاّ أنثى، فتتعلّم أن تكره و تصغّر ذاتها بسبب أنثويتها، ولأنها تصغّر و

[5] تعبير عاميّ يقصد به ازداد وزنها كثيراً

[6] لفظ عاميّ يقصد به القبيحة

تحقّر ذاتها فهي بالمقابل تقوم بتصغير وتحقير بناتها. ولأنها نشأت في بيت لا حرج فيه للأب والأخ أن يضربها ويعنفها، فهي أيضاً لا تجد حرجاً في تعنيف ابنها لابنتها أو زوجها لبناته فهذا حقهم كذكور.

وليثبت لمتابعيه أنه ابن بار يكتب الرجل التغريدة التالية يومياً: "اللهم اجعل أمي من نساء الجنة"، كما أنه يقول "الوالدة الله يحفظها" عندما يتكلّم عنها، ويحب ترديد التعبير الكويتي الشعبي الذي يثير الغثيان "أمي حلوة اللبن"، فالمستمع للتعبير الشعبي السابق يقشعر بدنه عندما يتخيّل صورة رجل بالغ، برأس كبير وأسنان وشنب وهو يرضع من صدر أمه.

ما أقصده من كل ما سبق أن الأم تفضل ابنها الذكر وبالتالي تشجعه على الماسوجينية، والأم تفضّل ابنها الذكر لأنها نشأت في ظل مجتمع ذكوري أبوي كيّفها تكييفاً عقلياً عميقاً جداً على ذلك التفضيل، وبرمجها عليه برمجة منظمّة ودقيقة، حتى صار صوت الفكر الماسوجيني هو صوتها الذاتي الباطني. وأنا لا أستخدم هذا التفسير لأقول إن الأم ضحيّة المجتمع الذي لقّنها التمييز بين الرجل والمرأة، وبالتالي فلا حول لها ولا قوّة، بل بالعكس، أنتقد الأم التي تطبّق وتشجّع الفكر الماسوجيني وتورّثه لأبنائها الذكور والإناث. فنحن كبشر مخيّرون، حتى وإن كان المجتمع والدين يلقّاننا يومياً بأن الرجل أفضل من المرأة، فالإنسان العاقل، الواعي، المُدرِك، يقع على عاتقه التساؤل والتعبير عن شكه وارتيابه اتجاه الثوابت الاجتماعية التي تبدو وكأنها لا تقبل الجدال. وهذا المعيار ينطبق على الرجل الماسوجيني أيضاً؛ قد يكون فعلاً أنه لم يتم تشجيعه في محيطه الأسري، الاجتماعي، السياسي، والاقتصادي على احترام المرأة أو اعتبارها مساوية له بالحقوق والحريّات، لكنه بعد بلوغ سن معيّن، وهو سن التمييز أو الإدراك فلا عذر لديه، لابد له من التحرّي والقراءة والاطلاع والمعرفة بأن التمييز ضد المرأة لا يضر المرأة فقط بل يضرّه هو أيضاً.

المجتمع قادر على تغيير فكره، وقادر على تغيير نظرته للأقليّات الذين اعتاد التمييز ضدهم، فمن خلال التوعية الاجتماعية المكثّفة رأينا تغيّرا لمفهوم "المعاقين" في الكويت إلى ذوي الاحتياجات الخاصة، وازداد الوعي بضرورة عدم الاستيلاء على مواقف السيارات المخصصة لهم في كل مكان، وفي الإمارات تم استبدال لفظ معاقين، بأصحاب الهمم. ولم يعد استخدام لفظ مجنون أو معاق للمصابين بمتلازمة داون أو المصابين بالتوحّد. كما أصبح المجتمع الكويتي أكثر وعياً وتقبلاً للأمراض النفسية، وأصبح هناك وعي أكبر بالنسبة للمثليين، والملحدين، واللادينيين[7] ، بالرغم أنهم لازالوا يتعرضون للكثير من الاضطهاد والقمع والتهميش الاجتماعي، الأسري والقانوني، لكن هناك إقراراً واعترافاً بوجودهم بدلاً من الإصرار القديم بأن

[7] يؤمنون بوجود الخالق و يرفضون فكرة الدين

المجتمع الكويتي المثالي المتلبّس بلباس الفضيلة لا تشوبه مثل تلك المعتقدات والأفكار والتوجهات، والإقرار بوجودهم، وأنهم ليسوا مجانين أو ضحيّة التأثير الغربي هو أوّل خطوة لتقبلهم كجزء من المجتمع. وفي الإمارات هناك حملات دعائية مكثفة تحث الزوج على تقدير الزوجة، والاهتمام بها، ومراعاة مشاعرها، بدلاً من إلقاء كل الأعباء المنزلية ومسؤولية الأبناء عليها، واعتباره للمنزل مجرّد فندق يأكل وينام فيه. المجتمع الكويتي يحتاج لذات الحملة لأن الرجل الكويتي لازال يعتبر بيته فندقاً، وأبناءه ونظافة منزله وواجباته مسؤولية زوجته، وبما أنه دفع لها مهراً قبل الزواج بها فقد أخلى مسؤوليته تماماً من التعبير لها عن أي شكر أو تقدير. ولأن المجتمع قادر على التغيير عن طريق التوعية فهو أيضاً قادر على نبذ وتغيير التعابير والأمثلة الكويتية الحاطّة للمرأة لأنها من المظاهر الاجتماعية الضارة التي لازالت تُمارس بكثافة في المجتمع الكويتي.

لازال الرجل الكويتي يهين رجل آخر بإلصاق صفة نسائية فيه، فأكبر إهانة يمكن أن يتلقاها الرجل الكويتي هو وصفه بالأنثى، ولازال الأب يقول لابنه أنه إن لم يفعل كذا وكذا، فمن الأحرى له أن "يلبس حجاب أخته". ولا زال الرجل إذا أراد أن ينتقد ثرثرة أصحابه يسألهم "شخليتوا للحريم؟!"[8] ، وإذا أقدم الرجل على تصرّف مكروه يتم نسب ذلك التصرّف للنساء، فالرجل النمّام يُوصف بأنه يمارس النميمة كالنساء، والرجل الذي يغتاب، يُقال عنه أنه يحب الغيبة كالنساء، والرجل الذي يغار من نجاح رجل آخر، يُشبّه بالنساء اللاتي يكرهن بعضهن البعض بسبب غيرتهن وتنافسهن المستمر. في الكويت، كل صفة مكروهة اجتماعياً هي صفة نسائية، وكل تصرّف سفيه يُنسب للنساء لأن المجتمع يراهن سفيهات. عندما عملت كدكتورة في كليّة الحقوق شهدتُ الكثير من الشجارات التافهة بين زملائي الذكور أساسها الغيرة والمنافسة، وقد أتى لي أكثر من زميل لِيغتاب زميله الدكتور الذي يتضح جلياً لي أنه يكرهه وينافسه، وعندما كنتُ أحضر اجتماعات القسم أجلس متضايقة جداً لأن معظم مدة الاجتماع يتم هدرها في ثرثرة الدكاترة الرجال التي لا علاقة لها بالعمل أو مناقشة الأهداف التي اجتمعنا لِنقاشها. أما طليقي فكان يغتاب أصحابه الذكور وأقرباءه الذكور والإناث باستمرار حتى اتضح لي أنه لا يحب أحداً على الإطلاق، فينتقد أصحابه على كل تصرّف وكل رأي، مشيراً بطريقة غير مباشر أنه أفضل رجل على الإطلاق، لكن تصرّفه هذا شديد الحماقة، لأن الإنسان الأحمق فقط هو الذي يعيب الآخرين ويحط من قيمتهم كوسيلة ليزيد نفسه لمعاناً.

[8] أي ماذا تركتم للنساء؟ فالنساء معروفين بالثرثرة أما الرجال بالنسبة له فلا يثرثرون

وفي إحدى التغريدات علّق أحدهم على خلاف بين رجلين من السّاسة بأنه "هوشة نساء" قاصداً تفاهة الرجلين وتفاهة موضوع شجارهم. والغريب في هذا الأمر بالذات أن ما نشهده من ممارسات سياسية رديئة، وما نشهده من حروب بسبب الطائفية، والعنصرية، وما نشهده من قطع كامل لعلاقات دولية بسبب كلمة أو تصريح هو كله بفعل الرجل وليس المرأة، فلماذا يتم تحقير تصرفات الرجل بتشبيهها بتصرفات النساء. الرجل هو الذي يشن الحروب التي يُقتل فيها ملايين من الأبرياء، الرجل هو الذي يقتل باسم الدين والمذهب، الرجل هو الذي يغتصب النساء والأطفال كأداة من أدوات الحرب، الرجل هو الذي يتفنن في تعذيب الأسرى، الرجل هو الذي يصنع المقابر الجماعية، ويثير الصراعات الأهلية بسبب الكراهية القبليّة والغيرة، الرجل هو الذي يسجن أبناء شعبه الذين يعترضون على أسلوب حكمه الفاسد، فلماذا لا ننتقد ونستنكر أفعاله كفعل ذكوري بدلاً من أن نسبغه بوصف أنثوي؟ لابد أن يغيّر الرجل منهجه ويكون بالشجاعة الكافية أن يعترف أن السياسات التي ينتهجها الرجل ليست حكيمة، فما نراه من حماقات وقتل للأبرياء، وتهميش للضعفاء هو من فعل الرجل بسبب ذكوريّته التي تقوده لِحب التسلّط، وممارسة الظلم، والقمع، واستمتاعه بالقهر والتعنيف، ولا علاقة لهذه التصرفات بالإناث.

هرم القمع والاضطهاد

إحدى النساء الكويتيات التي تنتمي لِلظاهرة المستحدثة التي تم تسميتها "فاشنيستا". وظيفتها في الحياة وضع الأصباغ على وجوه النساء، تقضي أيامها في تعلّيم النساء حِيَلاً لتصغير الأنف، ونفخ الفم، وتكبير العين بالمكياج، لا يعنيها ولا يعنيهن بتاتاً أن الرموش الاصطناعية التي يتهافتون على شرائها لتجميل عيونهن يتم نزعها من أجساد حيوانات ضعيفة، لأن همهّن الوحيد هو العيش في كذبة الجمال التي خدعتهن بها شركات التجميل الأوربية ليصرن مصدر دخل عظيم لتلك الشركات العبثيّة التي تقتات على تكسير ثقة المرأة بذاتها بإيهامها أنها لا شيء إن لم تكن جميلة.

تصرّح هذه المرأة بأنها غير راضية عن التعديلات القانونية التي صارت تلزم كفيل الخادمة بإعطائها يوم واحد راحة في الأسبوع كحق بشري أساسي. وعبرّت عن سخطها اتجاه التعديل الآخر الذي يمنع الكفيل من الاحتفاظ بجواز سفر الخادمة لأن في ذلك مخالفة للحقوق اللصيقة بالإنسان. جاءت هذه التعديلات القانونية أخيراً بعد عدد هائل من وقائع تعذيب، والظلم والجور، والمعاملة الدونيّة وغير الإنسانية التي يتم التعامل بها مع الخادمات في المجتمع الكويتي.

وسائل الإعلام التي تداولت الخبر لقبّت المرأة - خبيرة المكياج - بأنها "شخصية مؤثرة"! لا أدري هل أضحك أم أبكي، إن الشخصيات المؤثرة في الكويت هم بائعون الكذب والوهم، بينما الشخصيات المؤثرة في الدول الراقية هم المثقفون، الكتّاب، العلماء، الفنانون والمفكرون.

اضطهاد وقمع المرأة الكويتية للمرأة الأضعف منها (الخادمة) نتيجة طبيعية وحتمية في بلد ذكوري، أبوي كالكويت. لأن القمع والاضطهاد هو مرض اجتماعي سياسي يعتمد على "الفوقيّة". ففي النظام الأبوي يكون هناك سلطة ذكورية مستبدة تجثم على البلاد وتراقب: إن تكلّم هذا بكلمة مخالفة للسلطة سجنته، وإن ذاك عبّر عن رأي مخالف لرأي السلطة عاقبته، وإن ارتدت تلك ملابس لا تتماشى مع الفكر السائد هددتها بجهنم وبجواز اعتداء الرجال عليها، وهكذا.

النظام الأبوي المستبد الذي يحكم الدولة ويتسلّط ويضطهد، تنعكس صورته في الأسرة، فالأسرة هي النواة المصغّرة للمجتمع، والمجتمع هو النواة المضخّمة من الأسرة، وكل منهما يعكس الآخر في الممارسات، والاعتقادات، والأيديولوجيات.

تحت النظام الأبوي الرجل الكويتي مقيّد ومُضطهد يتحكم رجل آخر (غالباً والده/جده/عمه) بمصيره، يجبره على تخصص دراسي معيّن، ويختار له سيارته ويشتريها له، فالشاب الكويتي لا يسعى ولا يعمل من أجل أي من ممتلكاته حتي يتخرّج من المعهد أو الجامعة - بينما الشاب الأجنبي يعمل ويعتمد على ذاته في سن مبكرة لذلك فهو ينضج ويصل للإدراك والوعي مبكراً - ثم إن الكويتي لا يختار وظيفته، بل يقوده والده باتجاه وظيفة محددة، أو الحكومة ترمي به بوظيفة لا يرغب بها ويؤمن هو أنه لا يملك خياراً آخر. غالباً ما يعتمد الكويتي على والده (أو عمه أو خاله) لِيتوسّط له من أجل وظيفة يرغب بها. ويعتمد على والده في مصروفه أحياناً حتى بعد انخراطه بالعمل وتحقيقه للدخل، وحتى بعد الزواج. والرجل الكويتي لا يختار زوجته حسب رغبته، بل حسب ضوابط حددها له المجتمع مسبقاً، أو يُجبر على الزواج من ابنة عمه أو من قبيلة محددة. ولا يختار أسماء أبنائه بل يجبر على التسمية على أبيه، أمه، جده، إلخ. ولا يختار عدد أبنائه، فالمجتمع يفرض عليه إنجاب ثلاثة على الأقل. وفي مجتمع يكون الرجل فيه دائماً تحت المراقبة كي لا يخطئ، لا ينضج الرجل أبداً. لأن النضوج يعتمد على ارتكاب الأخطاء والتعلّم من التجارب. لذلك فالرجل الكويتي ساذج، سطحي، هش، لا يحسن التصرّف، ولا يتقن اتخاذ قرارته، ويحتاج لمن يتخذ قرارته بدلاً منه.

ولأن الرجل الكويتي مُضطهد، يشعر بالقمع وبالضعف لأنه تحت سيطرة السلطة الأبويّة التي تتحكّم به، لا يشعر بكيانه ولا حريته، لذلك فهو يحتاج لشخص يقوم هو باضطهاده، حتى يشعر بشيء من القوّة، فيضطهد المرأة التي هي أضعف منه جسدياً، يحدّ من حريتها، يحدد لها ما يجوز وما لا يجوز لها فعله، لبسه، قوله، التفكير به، يُحقّرها، يخوّفها، ويصغرها عن طريق إسكاتها، تهميشها، والضحك على رأيها، وفي الكثير من الأحيان يضربها ويعنّفها كوسيلة للتعويض عن ضعفه وانكساره وانعدام حيلته تحت ضغط السلطة الأبوية عليه.

المرأة بدورها تشعر بالاضطهاد والانكسار تحت سلطة الرجل الأبوية الذكورية، تشعر أن الحريّة الوحيدة المتاحة لها هو اللعب بشكلها الخارجي، فتقضي حياتها بالخربشة بالمكياج على وجهها كالدمية حتى يُخيّل لها أنها تملك خيارات، وتلبس وتخلع الثياب حتى يبدو لها ولو للحظة أنها حرّة وأنها تحيا، وإن كانت ربع حياة. ولأنها مُضطهدة فهي تبحث عمن تستطيع أن تمارس عليه الاضطهاد، فتضطهد الخادمة لأنها أضعف منها، تحد من حريّتها، تحدد لها ما يجوز وما لا يجوز فعلُه، لبسُه، قولُه، والتفكيرُ به، تحقّرها، وتعنفها، وتدفنها تحت الأعمال المنزلية التي لا تنتهي حتى تشعر أنها ذات سلطة وذات قرار. وفي الكثير من الأحيان ينصب جور واضطهاد المرأة على أبنائها وخصوصاً الإناث. والأبناء بدورهم تعلموا التسلط والاضطهاد من والداهم، فإما أن يمارسوه على بعضهم البعض (الكبير على الصغير، والذكر على الأنثى) أو يمارسوه على الخادمة كما تفعل ماما، أو يمارسوه على ماما كما يفعل بابا، أو يمارسوه على حيوان ضعيف، كالاستمتاع بحبس عصفور في قفص، ركل قطة، ضرب كلب، وهكذا.

الاضطهاد والقمع مرض "فوقي"، حتى أنني أحياناً أشاهد موظفاً مصرياً يعمل عملاً وضيعاً في الكويت (حارس، مندوب، سكرتير) يتسلط ويضطهد عامل النظافة الأسيوي، لأن الأسيوي هو الوحيد الأصغر منه، فيضطهده ليشعر بذاته.

لكن لكي نقضي على الاضطهاد يجب أن نبدأ من التحت إلى الفوق. أن نبدأ بالعصفور المحبوس في قفص، الذي ندعي أنه يغني لنا فرحاً بحبسه، يجب أن نبدأ بتحرير أضعف مخلوق في هرم العنف الذي بنيناه أولاً. فما دُمنا نستمر بالعيش في الوهم القائل أن الطائر الحبيس يغرّد من شدّة فرحه وحبّه لسجّانه، سيستمر الأطفال بقمع وباضطهاد بعضهم البعض، ستستمر المرأة باضطهاد الخادمة، والرجل باضطهاد المرأة، والسلطة باضطهاد الرجل. وذلك لأنه أكثر الناس ظلماً قمعاً واضطهاداً، هو ذاته أكثر من يُعاني من الظلم، والقمع والاضطهاد.

كما قال الكاتب والمفكر الفرنسي - فيكتور هيوغو: "لدينا طغاة لأننا نحن طغاة."

لماذا يكره الرجل الماسوجيني النسويّة؟

في المجتمع الذكوري الأبوي الكويتي، يتحسس الرجل الماسوجيني ويغتاظ من كلمة "نسويّة" وكأنها لفظ فيه سب أو إهانة له. ويبدأ يجادل أن النسوية مفهوم غربي لا يتناسب مع مفاهيم مجتمعه المحافظ، ولأنه لم يقرأ أي كتاب ولا أي معلومة عن النسويّة من قبل، فهو يرى النسويّات كمجموعة من النساء اللاتي اعتنقن أفكاراً ونظريّات غربية، وينادين للانفلات والانحلال الخُلُقي. بالرغم أنه لم يعترض على "الإنترنت" الذي هو منتج غربي، ولا الهاتف الخلوي، ولا لباس "الجينز" أو لباس الرياضة الغربي الذي يجده مريحاً وعملياً. هذه الأفكار الغربية لا تخيفه لأنها تسّهل حياته، وتمنحه حرّية أكبر وتحقق مصلحته. لكن اعتراضه على النسوية ينشأ من خوفه من فقدان سيطرته وسلطته على المرأة التي يريد أن يراها دائماً خلفه، ولا يريدها أن تكون بجانبه أو أمامه.

النسوية ليس مفهوماً غربياً، وليس بدعة حديثة، فأينما تواجد القمع والقهر على المرأة، والتمييز والتهميش ضدها تواجدت النسويّة. فلما سمعت السيدة عائشة حديث أبو هريرة الذي نسبه للرسول: "ما يقطع الصلاة الكلب، الحمار، والمرأة" ردت عليه عائشة: "شبهتمونا بالحمير والكلاب. والله لقد رأيت النبي يصلي وإني على السرير بينه وبين القبلة مضطجعة فتبدو لي الحاجة فأكره أن أجلس فأوذي النبي فأنسلّ من عند رجليه"، نستشعر هنا غضبها واستنكارها للاضطهاد الواقع على النساء بتشبيههن بالكلاب والحمير، ونرى أيضاً سلطتها وفرض رأيها في تغيير حكم يتعلق بإحدى العبادات. وعندما علمت عائشة أن عمرو بن العاص أمر المسلمات أن ينقضن رؤوسهن (يفككن ضفائرهن) عند الاغتسال (ليتخلل شعرهن الماء)، ردّت على ذلك: "يا عجباً لابن عمرو، يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن أفلا يأمرهن أن يحلقن رؤوسهن؟ لقد كنتُ أغتسل أنا و رسول الله في إناء واحد وما أزيدُ أن أُفرغ على رأسي ثلاث إفراغات"، و نستشعر في ردها على عمرو بن العاص الكثير من التحدّي والاستخفاف برأيه، وفي مناقضتها لأمره فيما يجب وما لا يجب على المسلمات فعله شجاعة ومواجهة وسلطة، ونرى مرّة أخرى سلطتها باتخاذ القرارات بتدخلها وفرض رأيها في كيفية ممارسة العبادات فيما يخص الاغتسال والطهارة.

لكنها ذهبت إلى ما هو أبعد من ذلك، فلما أراد الرسول الزواج من زينب بنت جحش بعد أن طلّقها زيد بن حارثة، ونزلت الآية 37 من سورة الأحزاب مؤكده أنه لا حرج على النبي في زواجه من طليقة ابنه بالتبني، غضبت عائشة وقالت للنبي "ما أرى ربك الا يسارع في هواك"، تحدّت حكم الله في اتهامها الرسول أن الله يحلل له كل ما يشتهيه. نعم قالت ما قالته نتيجة الغيرة والغضب، لكن تمرّدها ورفضها وعدم قبولها للواقع الذي تعيشه، برفع الله الحرج عن كل ما يشتهي الرسول فعله، خصوصاً في موضع حساس جداً وهو زواجه من طليقة ابنه، كان موقفاً نسوياً ثورياً لِعائشة، امرأة تتمرّد على مجتمع وواقع ذكوري، لم تطأطئ رأسها وتسكت وترضخ، بل عبّرت عن رأيها، وكان في كلامها تشكيك في نزاهة ذلك الحكم الذي أتت به الآية.

أما السيدة خديجة، الزوجة الأولى للنبي فتصرفها الجريء في اختيار النبي كزوج، وإرسال صديقتها "نفيسة" إليه لتعرض عليه الزواج، بالرغم أنه يصغرها سناً، كان تصرفها هذا نسويّا، لأن في المجتمعات الذكورية المرأة مغلوبة على أمرها لا تختار زوجها، بل تنتظر الرجل أن يختارها، لذا فخطبة خديجة للنبي كانت خطوبة نسوية. كما أنها لم ترَ حرجاً في خطبة رجل يصغرها سناً، وهو أمر يعدّ عيباً في مجتمعنا الذكوري الحديث. فهي لم ترَ نفسها في ذلك الوقت أنها امرأة مقيّدة، محكومة، غير مخيّرة بما يناسبها وما لا يُناسبها من الرجال، ولم ترَ نفسها أنها غير حكيمة لا تفقه بأمور الرجال واختيار الرجال، لم تفعل ما تفعله الكثير من النساء في المجتمعات الذكورية؛ تقبل من يعرض عليها الزواج ثم تدعي أنه نصيب ولا يد لها فيه، وقد كان الكثير من الرجال يتنافسون للزواج منها لأنها كانت ذا مال ونسب. بل كانت ناضجة، متمكنة اجتماعياً قويّة ذات قرار، ممسكة بزمام حياتها، مقررة لمصيرها. كما أنها تزوّجت زيجتين قبل زواجها من النبي وكان لها من إحديهما ولدان.

وزوجة النبي أم سلمة، التي قالت له "ما لنا لا نُذكر في القرآن كما يُذكر الرجال". ففي سؤالها نجد أساس النسويّة؛ وهو التمييز المفرط بين الذكور والإناث، بتفضيل الذكور، وعدم الاهتمام بالإناث، عن طريق عدم إظهارهن، أو ذكرهن، أو التحدث عنهن وكأنه لا وجود لهن، أو لا أهميّة لوجودهن في حياة الذكور.

وقد قام المؤرخ والأديب ابن طيفور (819 – 893 ميلادي) و (204 – 280 هجري) بتأليف كتاب "بلاغات النساء" وهو كتاب يحوي أخبار ذوات الرأي من النساء، أشعار النساء، وطرائف كلامهن، وأخبارهن، ونوادرهن، فكان المؤلّف الأول من نوعه الذي يعكس بلاغة النساء، وحكمتهن، وجمال الشعر النسوي الذي لم يكن يُجمع أو يؤرخ في ذلك الوقت. وبالتالي كان ابن طيفور يؤمن بالنسويّة لأنه يؤمن بقدرات النساء.

أما الفيلسوف والعالم العربي ابن رشد (1126 – 1198 م) فنادى بتعليم المرأة، و رفض فكرة الفروقات بين الرجل والمرأة التي نادى بها الفلاسفة من قبله، وأصرّ على مساواة المرأة بالرجل من حيث الكفاءة الذهنية والعملية، وأكدّ كفاءة المرأة في كل الميادين حتى في الحروب.

وقد طالب رفاعة رفعة الطهطاوي (1801 – 1873) بتعليم الإناث وأهمية التعليم المختلط بين الإناث والذكور، قائلاً أن تعليم المرأة يساعدها في أن تحدد لنفسها مكاناً في الحياة، ويعوّدها على العمل مضيفاً أن العمل يصون المرأة ويدنيها من الفضيلة. أما الموسوعي والمؤرخ اللبناني بطرس البستاني (1819 – 1883) وضع برنامجاً تعليمياً متكاملاً للنساء. وقد وقف ابنه الصحفي سليم بستاني عام 1883 على منبر مدرسة البنات في بيروت وقال: "عشر نساء رصينات مثقفات فاضلات يكتمل في نفوسهن الوعي القومي، يستطعن أن يصلحن في الأمة، ويرفعن من نفوس أفرادها، وأن يدفعنها إلى الوحدة الوطنية وإلى الخير والصلاح وعظائم الأمور، أكثر من مئة رجل لم يكتمل في نفوسهم هذا الوعي". والكاتبة المصرية عائشة تيمور (1840- 1902) غيّرت مفهوم القوامة و رأت أن قوامة الرجل على المرأة ليست مطلقة بل تقتصر على قيام الرجال بواجباتهم الأسرية و منها إعالة الزوجة. والشاعرة والمؤرخة اللبنانية زينب فواز (1844 – 1914) نادت بتحرير المرأة في جميع المجالات والنشاط الإنساني. أما محمد عبده (1849 – 1905) فقد ركّز على حقوق المرأة الاجتماعية من زواج وطلاق، وطالب بتحريرها خصوصاً ضد مسألة تعدد الزوجات، وانطلاقاً من إيمانه بتحرير المرأة أفتى بحقها في فسخ عقد الزواج في حال تعنيف الزوج لها أو الإساءة لها. و قاسم أمين (1863 – 1908) الذي نادى إلى تحرير المرأة من الحجاب[9].

[9] فرج، ريتا، "امرأة الفقهاء وامرأة الحداثة – خطاب اللامساواة في المدونة الفقهية" دار التنوير للطباعة والنشر، 2015، ص 16، 219

وهناك النسوية هند نوفل، والنسوي الطاهر حداد، و هدى شعراوي، و نبويّة موسى، و مي زيادة، وملك حفني ناصف، و نظيرة زين الدين، و د. نوال السعداوي، و هشام شرابي، و نورية السداني، و د. مية الرحبي، وفاطمة المرنيسي، ود. منى الطحاوي، وخلود السباعي، ود. عبدالله إبراهيم، و ريتا فرج، وآخرين قد لا أكون قرأت لهم أو سمعت عنهم.

النسوية ليست مفهوماً جديداً أجنبياً قد دخل على المجتمع الكويتي، فالسيدة الكويتية نورية السداني أنشأت أول جمعية نسائية كويتية تهتم بقضايا المرأة في عام 1962، وقدمت عريضة لمجلس الأمة تطالب فيها بحقوق المرأة السياسية، وحقوق اجتماعية أخرى كمنع تعدد الزوجات من دون إذن الزوجة الأولى في عام 1971. لكن ارتفاع صوت النسويّة مؤخراً هو نتيجة سوء حال المرأة الكويتية، والرجعية التي تعيشها، والتمادي في التمييز بينها وبين الرجل، والاستمرار بالانتقاص من حقوقها وحريّاتها، بدلاً من مواكبة التطوّر النسوي الذي نراه في المجتمعات المتقدمة من تمكين المرأة، ومنحها الفرص، وتقليل الفروقات الاجتماعية، الاقتصادية والسياسية بينها وبين الرجل. فصارت المرأة في تونس مثلاً ترث مثل حق الرجل، ولا يمكن لزوجها أن يتزوّج عليها بأخرى، ولا يمكن لوالدها تزويجها غصباً عنها، ويُمنع تزويج القاصرات، ويُعاقب الرجل إن هو عنّفها سواء كان والدها أو أخاها أو زوجها. أما في الكويت فلازالت المرأة تحت وطأة وتحكم الرجل، يبخس حقوقها وكرامتها متى ما شاء.

تسفيه الرجل الماسوجيني للنسوية في المجتمع الكويتي الأبوي الذكوري، ورفضه لها على أساس أنها بدعة غربيّة لا تتناسب مع مجتمعه المتديّن، هو في الواقع ناجم عن كراهيّته للمرأة. ففي المجتمعات الذكورية يرى الابن كيف يتحكّم والده بأمه، ويقيّد حريتها، ويهمّش رأيها، وفي الكثير من الأحيان يعنّفها (بالقول أو الفعل أو العنف النفسي أو العقلي)، يرى الابن أيضاً أنه يملك حقوق وحريّات لا تملكها أخته، ويرى تفضيل والديه له على أخته، ويرى التدليل المبالغ فيه الذي يحظى به من دون أخته، ويرى أن الخادمة التي تطهو طعامه وتزيل قمامته، ويحق له مناداتها في أي لحظة لإدلاء الأوامر عليها، هي أيضاً امرأة. فيتكوّن لديه إيمان تام أنه أفضل من المرأة وأن المرأة خُلِقت فقط لخدمته وتدليله. فرجولته برمّتها قائمة على أن الرجل أفضل من المرأة، ويؤمن أنه لا يمكن للمرأة أن تملك نفس حقوقه ولا أن تتمتع بنفس حريّاته. فيثور غضباً إذا طالبت المرأة بحقوق وحريّات مساوية له، وطالبت برفع التمييز بينه وبينها، لأن مطالبتها تلك تعتبر بالنسبة له هدماً شاملاً ومؤلماً لرجولته المبنية على أفضليته على المرأة.

كما أنه يرفض وبشدّة أي قول أو دراسة تثبت أن المرأة أذكى من الرجل في مجال معيّن، أو أنها تفوّقت على الرجل في علم أو آخر، ونراه يحارب أي مقارنة تخرج منها المرأة بالأفضلية عليه، لأن هذه الأفضلية تطمس رجولته المزيّفة التي كوّنها له مجتمعه الذكوري.

الرجل الماسوجيني يستفيد استفادة عظمى من تمييز المجتمع بين الرجل والمرأة، وتفضيل المجتمع له كذكر، فبناءً على تلك الامتيازات الذكورية تُتاح له الفرص بشتى أنواعها اجتماعية، اقتصادية، وسياسية، ويكون نصيبه فيها أعظم لعدم منافسة المرأة له فيها. ومن خلال ذلك التمييز أيضاً يشعر ببطولة، وقوّة، وسلطة مزيّفة لن يستشعرها لو كان المجتمع يساويه بالمرأة. كما أن هذا التمييز يتيح له فرصة تعنيف المرأة واستغلالها مادياً وجسدياً دون محاسبة قانونية، فالمجتمع لن يستحقر الرجل الذي يأخذ من راتب زوجته، بل يلقّن الزوجة أن الحياة الزوجية مشاركة. ولن يقف المجتمع ضد الرجل الذي يعدد بالزوجات، بل يلقّن المرأة أن هذا حق الرجل. والمجتمع لن يتعاطف مع الزوجة، أو الابنة، أو الأخت التي تتعرّض للتعنيف، بل ينظر لعنف الرجل على المرأة على أنه حق الرجل في التأديب. ولأن ذلك التمييز من صالح الرجل الماسوجيني فهو لن يحاول أو يطالب بتغييره، بل سيحارب لبقائه واستمراره. الرجل الماسوجيني أناني لا يريد للمرأة أن تتمتع بذات الحقوق التي يتمتع بها هو، فهو يبتهج أكثر، ويشعر بإشباع أكبر في حقوقه وحريّاته التي تحرم منها المرأة، لأن استمتاعه وحده وحرمان المرأة يمنحه توهماً بأنه أعلى درجة منها.

كنت أستمع لإذاعة البي بي سي، حيث كان خبير في إدارة الهجرة البريطانية يتحدث عن ارتفاع نسبة المهاجرات الإناث إلى بريطانيا منه عن المهاجرين الذكور، وقد علل هذه الظاهرة بأن الإناث يُهاجرن لبريطانيا هرباً من القمع والاضطهاد الذي يعانين منه في بلدانهن، أما الذكور من تلك البلدان القامعة يخشون الهجرة بالرغم أن فيها مستوى معيشة أفضل، لأنهم يخشون بشدة خسارة سلطتهم على نساءهم إن هم انتقلوا لتلك البلدان التي تحترم النساء وتمنحهن حقوقاً مساوية للرجل.

الرجل السجآن

تقول لي إحداهن: نادراً ما يسمح لي والدي بالخروج ونادر ما نسافر معاً. في الصيف السابق أخذنا إلى لندن، فرحت جداً لأنها أوّل زيارة لي لِلعاصمة الشهيرة. لكن ما أن وصلنا حتى بدأ أبي بتعامله العسكري معي: لماذا تضعين المكياج؟ لماذا تتلفتّين؟ إلى ماذا تنظرين؟ لماذا تضحكين؟ صرت أمشي كالرّجل الآلي، متشنجة، متيبّسة، خائفة، وجهي إلى الأمام أخشى أن ألتفت لأنظر لجمال الزهور، أخشى أن ألتفت لأنظر لواجهة المحلاّت، أجلس في المقهى أمام أبي ورأسي منحنٍ للأسفل أنظر فقط في كوب قهوتي، لا ألتفت يميناً ولا شمالاً خشية من التعنيف أو الصراخ أو التهديد.

امرأة متزوجة تقول: ذهبتُ لإحدى الوزارات لأنهي بعض الأوراق الرسمية لأحد أولادي، وقد ألحّيت على زوجي مسبقاً لإنهاء الأوراق لكنه كان دائماً يتعذّر بانشغاله. عندما قلت لزوجي أثناء الغداء أنني كنت في إحدى الوزارات، صرخ عليّ أمام أبنائنا: "ومن قال لكِ تذهبين؟ ألا تستحين وأنتِ تمشين بين الموظفين الذكور؟ أليس لديكِ حياء؟ أنتِ لستِ محترمة."

أخرى تقول أن أخاها كان يهددها يومياً بإخراجها من الجامعة أثناء دراستها، في كل مرّة يغضب عليها، يهددها بحرمانها من حقها في الدراسة، حتى بعد أن تخرّجت وصارت تعمل، كلما صرخ عليها هددها: "حسناً سأخرجكِ من عملك حتى تتأدبين."

إحداهن تقول: كنتُ بالجامعة يوم السبت بسبب نشاط أكاديمي ثقافي مُقام من قِبل الطلبة، تواصل معي والدي الذي يعلم عن مكان تواجدي لأنني استأذنته مسبقاً يطلب منّي إرسال "اللوكيشن" عبر الهاتف. في البداية بسبب سذاجتي أرسلت له "اللوكيشن" ظناً منّي أنه يرغب بحضور النشاط والذي تعبت أنا وزميلاتي بالتحضير له، ففرحت أنه مهتم ويريد الحضور، أسعدني اهتمامه بي الذي نادراً ما أراه أو أشعر به، لكن بعد مرور ساعات من دون أن يحضر اكتشفت أنه فقط يريد التأكد من صدق كلامي، وأنني فعلاً في الجامعة ولم أكن أكذب.

أخرى تقول أن والدها درّب أخاها الذي يصغرها كثيراً بالسن على مراقبتها وأخواتها. فإذا سافر الأب، تولى الأخ مراقبة أخواته والتحكم بهن وبتحركاتهن.

عندما لا تخرج المرأة إلا بإذن الرجل، ولا تدرس إلا بإذنه، ولا تعمل إلا بإذنه، ولا تتزوّج إلا بإذنه، وتعيش طوال حياتها رهينة تهديداته فالمرأة هي السجينة والرجل هو السجّان. فهل من الممكن أن تتكوّن علاقة طبيعية بين السجين والسجّان؟ هل من الممكن أن يحب السجّان سجينه؟ أو أن يحترمه؟ أو أن يثق به؟ أو أن ينظر له كشخص مساوٍ له بالحقوق والحريات؟ طبعاً لا.

الرجل "السجّان" لن ينظر أبداً للمرأة "السجينة" على أنها إنسان كامل، إنسان حر، إنسان ذو أهلية، إنسان يستطيع أن يحبه ويحترمه ويتشارك معه بالأفكار. لن يقبل السجان أبداً أن ينظر للسجينة على أنها تقف معه على عتبة المساواة، سينظر الرجل السجّان دائماً للمرأة السجينة على أنها رهينته وأنه يجب عليه دائماً أن يراقبها، ويشك في نواياها وأخلاقها، ويعنفها إن هي تجرأت أن تخرج عن طاعته، سينظر لها سواء كانت ابنته، أخته، زوجته أو عشيقته على أنها ماكرة، لا تفكر بشيء سوى كيف تخدعه وتتملّص من رقابته وتفعل ما تشاء من دون علمه. يظن الرجل السجان أن المرأة السجينة لا تفكر ولا تبحث إلاّ عن العلاقات المحرّمة، ولأنه لا يحترمها، فهي في نظره لا تملك أي احترام لذاتها، وبالتالي لا يستطيع أن يتصوّر أن المرأة تفكّر بأي شيء آخر غير الجنس، إن أرادت الخروج فهي تريد الخروج للتورّط مع رجل، وإن هي تزيّنت فهي تتزيّن لجذب الرجل، يظن الرجل السجّان أن المرأة مهووسة بالرجل، مثلما هو مهووس بالمرأة وبمراقبتها وتقييد حريتها.

المأساة الأخرى التي تحصل عندما يضع الرجل نفسه سجّاناً للمرأة، هو أن الرجل أيضاً يصبح مقيّداً. يجب أن يراقب المرأة طوال الوقت، ويشك في كلامها ونواياها، وينظر لها بنظرة الريبة. يريد الرجل أن يثق بالمرأة ويصادقها ويحاورها لكنه لا يستطيع، لا يستطيع أن يحترمها أو يحترم عقلها، فهو السجّان وهي مجرّد سجينة، هي المذنبة الساقطة، وهو مدّعي الشرف والفضيلة المسؤول عن تأديبها. يتوق الرجل لخلق صداقة صادقة مع المرأة، صداقة طبيعية خالية من الرغبة الجنسية، خالية من النفاق والتصنّع لكنه لا يقدر، لا يرى نفسه سوى العاشق الغيور الشكاك، أو الأب/الأخ الغيور الشكاك، وفي كلتا الحالتين فهي تحت سيطرته وسلطته، ولا يمكن أن تتحقق صداقة حقيقية تحت هذه الظروف،

تتطلّب الصداقة أن يرى الطرفان نفسيهما متساويين، لكن الرجل السجّان يعتبر مساواته بسجينته إهانة له. يريد الرجل السجّان أن يُحب المرأة لكنه غير قادر على احترامها، وبالطبع لا وجود للحب من دون احترام. حتى العاشق السجّان يرى عشيقته كما يراها أبوها وأخوها، غشاء بكارة زجاجي هش تنتهي قيمتها بفكّه.

والدها وأخوها يقضيان عمرهما كله في حراسة ذلك الغشاء الزجاجي، ووضع قيمة مادية عالية لمن يريد أن يكون الأوّل في فكّه (المهر)، ثم يدفع العريس - الذي كان حبيباً - ثمن الغشاء فتتحوّل حبيبته في نظره مباشرة من سلعة جديدة غير مستعملة إلى سلعة مستعملة. ويبدأ بممارسة دوره كسجّان، يراقب ملكيّته المستعملة بشيء من الغثيان والغضب والاستحقار، **"أين تذهبين؟ مع من تتكلمين؟ لمن تتزيّنين؟ اسكتي و اهتمي بأولادك!"**. بالأمس كان يحبها! ماذا حصل؟ لماذا أصبحت رخيصة ووضيعة جداً هكذا في عينيه؟ لأنه لا يمكن للسجّان أن يحب أو يحترم السجين.

المرأة المِنظار – المرأة المِجهر

تقول الكاتبة الإنجليزية "فيرجينيا وولف" في كتابها "غرفة تخص المرء وحده" A Room of One's Own:

"أن المرأة عبر القرون لعبت دور المِجهر (المِنظار) للرجل، ففي عيني المرأة يتضاعف حجم الرجل. ولهذا يُصر الرجال إصراراً شديداً على دونية المرأة، فإن لم تكن المرأة أدنى منه ستكف عن أداء دورها في تضخيمه، وبلعبها لهذا الدور تكون المرأة ذات أهمية للرجل. ومن هنا أيضاً يتضح سبب سخط الرجل الشديد إذا ما انتقدته المرأة، فلا يحق للمرأة أن تصف كتاباً ألّفه الرجل بأنه رديء، ولا أن تقول عن لوحة فنيّة رسمها بأنها واهنة، أو غيرها من الأعمال الأخرى، فانتقادها لأعماله يوقد بداخله ألماً وغضباً أكبر بكثير ممّا إذا كان الذي أدلى بذات النقد رجلاً. فالمرأة إن هي بدأت في قول الحقيقة وكفّت عن مجاملة الرجل، فإن صورته التي كان يراها مضاعفة في عينيها ستنكمش، دوره في الحياة سيضمر ويصغر، فكيف له أن يستمر في الحكم على الآخرين، في نشر الحضارة، في سن القوانين، في تأليف الكتب، في التأنق وإلقاء الخطابات والمواعظ، إن لم يرَ نفسه - يومياً - على مائدة الإفطار والغداء ضعف حجمه الحقيقي.."

عندما يُصر الرجل أن المرأة أقل منه حتى يستطيع أن يرى ذاته مضاعفة في عينيها، فهو في الحقيقة يريد أن يعيش في وهم، هذا الوهم الذي لا يمكن أن يكون أو يستمر من دون تصغير الآخر، الجنس الآخر، نصفهُ الآخر: زوجته، أخته، ابنته، زميلته في الدراسة أو العمل، أمه، حبيبته. لذلك يسعى الرجل غالباً للزواج من امرأة أقل منه درجة علمية، أو امرأة سطحية، ساذجة، ويتجنب الارتباط بالمثقفة، الذكية، القوية، لأنه يعلم أن الأخيرة لن تلعب دور المرأة الدونية من أجل أن يرى حجمه مضاعفاً في عينيها. حتى الرجل الذي يدرس في الخارج ويحصل على شهادات عليا يُصر على الزواج من امرأة أقل منه درجة علمية لأن ذكوريّته الهشة لا تسمح له بالتساوي مع المرأة. بل إن استمرار ذكوريته الهشة تعتمد اعتماداً كاملاً على دونيّة الأنثى في حياته. بعكس المرأة التي تشعر بأنوثتها كاملة مع ومن دون الرجل في حياتها،

فأنوثة المرأة لصيقة بها لا تحتاج إلى "الآخر" حتى يُشعرها بأنوثتها أو أن يؤكد لها أنوثتها، المرأة لا تلجأ لتصغير أو تهميش أو قمع "الآخر" حتى تشعر بآدميتها كاملة. والدليل على ذلك أن الكثير من النساء يعشن حياتهن كاملة من دون زوج، والكثير ممن مات عنهن أزواجهن أو طُلّقن، يكملن حياتهن من دون الحاجة للزواج. أما الرجل فنادراً جداً ما يستطيع العيش من دون المرأة، وما إن تموت زوجته أو يقوم بتطليقها إلا ويتزوج بأخرى، بل إنه غالباً لا يكتفي بمنظار (بمجهر) واحد، بل يحتاج إلى منظارين، أو ثلاثة، أو لأربعة مناظير (مجاهر) ليرى ذاته مضاعفة أربع مرات.

الرجل الماسوجيني يربط "رجولته" بمدى تابعيّة الأنثى له، ومدى خضوعها لأوامره ورغباته، وغالباً ما يستخدم الرجل الماسوجيني لفظ "رجولة" مكان "الذات"، ولأنه يعلم أن من دون ذاتيته لا وجود له فهو بالتأكيد يخشى فقدان ذاتيّته، فيقول للمرأة التي ترفض رؤيته بضعف حجمه الحقيقي "أنتِ لا تشعريني برجولتي" وما يقصده بالفعل هو "أنتِ لا تضخمين ذاتيّتي" وتَضخُّم الذات لدى الرجل هي أساس حبه وممارسته للتسّلط، والجور، والاضطهاد، والظلم، والقمع. فما نراه في العالم من حروب، وجرائم، واضطهاد للأقليات، واستعباد للفئات المستضعفة كلها ناتجة عن انتفاخ ذاتيّة الرجل. فالمرأة لا تشن الحروب، ولا تستعبد الشعوب، ولا تغتصب الأطفال، ولا تتفنن في تعذيب الناس في السجون، ولا تصنع الأسلحة والألغام، ولا تخلق المذابح الجماعية.

الذات أو "الأنا" أو باللغة الإنجليزية Ego موجودة في كل إنسان، وهي ما يعطينا الشعور بالأهمية، وما يملي علينا بأننا ذووا قيمة، وما يمنحنا احترام وتقدير لأنفسنا، لكن إن هذه الذات انتفخت وتضخمت، فستخرج عن السيطرة، سيرغب صاحبها بأن يبالغ الآخرون باحترامه، بتقديره وبالخوف منه، سيحاسب وسيعاقب كل من ينتقده، سيصرخ، سيضرب، سيعتقل، سيدمّر، سيعذب، سيظلم، سيضطهد، سيضع صوراً لنفسه في كل مكان، سيراقب هذا وذاك، وسيعادي كل من يتبنى فكراً مختلفاً عن فكره، ويرغم الجميع على مجاملته والتغني بعلوّ أخلاقه. لكن في الحقيقة ممارسة القوة على الآخرين هو ضعف، هو خوف يلبس قناع القوة.

ومن المثير أن معظم الدول التي تعاني من الحروب، وتعاني من التفكك بسبب الصراعات والمعارك الأهلية، هي أيضاً أكثر الشعوب اضطهاداً للمرأة، حيث تُحرم فيها المرأة من التعليم، تُحرم من كافة حقوقها

وحرياتها، يكثر فيها الاغتصاب والعنف الجسدي ضد المرأة، وتزويج الصغيرات، وختان الإناث وغيرها من المآسي،

وفي هذه الدول يكون الحكم ذكورياً فردياً دكتاتورياً استبدادياً. تليها الدول التي قد لا تعاني من الحروب الخارجية، لكنها بالتأكيد تعاني من الصراعات الداخلية، كالعنصرية وتهميش الأقليّات، وبخس حقوق الضعفاء واستعبادهم، في هذه الدول نرى المرأة - وإن لم تُحرم من التعليم (التعليم الإجباري) إلاّ أنها تواجه الكثير من التمييز، العنف، الاضطهاد، والتهميش. وفي هذه الدول يكون الحكم ذكورياً فردياً مطلقاً غير ديمقراطي، ويسود المجتمعَ النظام الأبوي.

مما يعني أن هناك علاقة طردية بين العنف ضد المرأة والحروب والمعارك والتمييز الاجتماعي، فكلما زاد تهميش المرأة وتعنيفها واضطهادها في البيت داخل محيط الأسرة (والأسرة هي النواة المُصغرّة) للمجتمع، زاد العنف، البطش، الظلم، والقهر على مستوى المجتمع (وهو النواة المُكبرّة للأسرة)، بل قد يتفاقم الظلم والقهر فينسكب خارج نطاق الدولة ليصل إلى الدول الأخرى وهكذا تبدأ الحروب.

وفي كتابها "ثلاثة غينيات" أو بالإنجليزية Three Guineas الذي نشرته "فرجينيا وولف" عام 1938 حيث كانت الحرب العالمية الثانية وشيكة الوقوع، قالت وولف أنه إن أردنا التغلّب على الفاشية أو النازيّة أو التعصّب الذي كان يتفشى في أوربا ويهلكها، فلابد لنا من إنهاء الفاشية ضد المرأة في البيت وفي المجتمع أولاً، فالفاشية العامة التي تحكم الدول والمجتمعات ما هي إلاّ انعكاس للفاشية الخاصة التي تحطم وتهمّش المرأة. وقد أفادت وولف: "التركيبة الهيكلية العامة للمجتمعات والدول التي تقوم على الاضطهاد والطغيان، لا يمكن القضاء عليها إلا عن طريق مكافحة القهر في صُورِهِ القصوى أولاً، وهو القهر الذي تتعرض له المرأة"، وأضافت وولف: "لدينا النظام الأبوي المتسلط داخل البيت الذي يتسم بالظلم، والتمييز، والنفاق، واستغلال الدين، والمجاملات الاجتماعية الفارغة. ولدينا النظام العام الذي يقوم على العنف، والتهميش، وحب التملّك، والجشع، والغيرة."

وقد عاشت وولف خلال فترة (1882 – 1941) حيث كان التمييز لايزال شديداً بين الذكور والإناث في بريطانيا؛ حيث ذهب أشقاؤها الذكور إلى المدرسة وبعد ذلك إلى أفضل الجامعات، أما هي وأخواتها الإناث فتم تعليمهن في البيت ولم يسمح لهن بارتياد الجامعات. كما قد تعرّضت وولف للتحرش الجنسي من قبل أخيها مما كان سبباً في بدء اضطراباتها النفسية. وقد كتبت وولف كثيراً عن ألمها وغضبها من تمييز والدها

بين أبنائه الإناث والذكور وخصوصاً في مجال التعليم، حيث كانت وولف طموحة، تحب القراءة والعلم وترغب بالذهاب للجامعة، ولم تتغلب أبداً على تلك التفرقة في تفضيل والدها أبناءه الذكور بالحصول على الشهادات العلمية وحرمان الإناث. وقد كانت المرأة الإنجليزية في ذلك الوقت محرومة من العمل إلاّ إذا كانت تنتمي للطبقة العاملة - وانتمت وولف للطبقة الوسطى - وحتى وإن كانت من الطبقة العاملة لا يتسنى لها إلا أن تكون خادمة، أو مربية أطفال. أما الزواج فكانت المرأة تُرغم عليه لأنها لا تستطيع أن تكسب معيشتها بنفسها وبالتالي لابد من الزواج للاستمرار في الحياة، ولم تكن المرأة تستطيع أن تملك المال ولا العقار، فهي نفسها وكل ما قد يؤول إليها عن طريق الإرث من مال وعقار يصبح بقوّة القانون ملكاً لزوجها، وإن لم تكن متزوجة فإرث أبيها يؤول للأقارب الذكور.

لم يتم تشجيعي لرؤية المرأة كإنسان كامل

يقول الكاتب والأستاذ الجامعي الأمريكي من أصل دومينيكي "جونو دياز" في احدى مقابلاته: "عندما كنت صغيراً كانت لي حقوق لا تملكها أُختاي، كنت أخرج متى ما شئت، وأعود للمنزل متى ما شئت، وأُصادق الفتيات، وأحضرهن معي إلى البيت، أما أختاي اللاتان تكبرانني سناً فلم يحق لهن أي من ذلك."

يسترسل دياز في ذكرياته عن الحياة التي عاشها مع أسرته بعد أن هاجروا إلى الولايات المتحدة عندما كان دياز في السادسة من عمره، قائلاً بنبرة حانقة وساخرة: "كنتُ أنا وأخي نعود للبيت في الساعة الثالثة صباحاً وأحياناً تكون معنا فتيات فلا تأبه والدتي بالأمر، لا تسألنا أين كنآ، ولا لماذا تأخرنا، ولا من هؤلاء الفتيات، وتسألنا فقط ما إذا كنآ قد أكلنا أو إن كنا جائعين فتحضّر لنا شيئاً نأكله. أما عندما اتصل زميل لأختي من المدرسة يريد سؤالها عن أحد الواجبات المدرسية، ردت أمنا على الهاتف وعلمت أن المتصل الشاب يسأل عن ابنتها، انهالت عليها بالضرب المبرح."

الشخصية الرئيسية في كل روايات دياز هو شاب أمريكي من أصل لاتيني يسيء معاملة النساء في حياته، يعنفهن، يحقرهن، يستغلهن عاطفياً ونفسياً وجنسياً، يكذب ويخون. وعندما سُئِل عن ذلك في إحدى المقابلات، أجاب أنه لم يتم تشجيعه على رؤية المرأة على أنها إنسان كامل، فمنذ صغره يرى النساء من حوله وفي حياته لا يملكون ذات الحقوق والحريات التي يملكها هو، ويقتصر دورهن على الاهتمام بالرجل وسؤاله ما إذا كان قد أكل أم لا، وهل يريد أن تحضر له شيئاً يأكله.

يقول دياز أنه عندما كبر وأصبح يرى، ويفهم مدى الاضطهاد والعنصرية والتمييز الذي تعيشه المرأة، أراد أن يبني علاقة جديدة صادقة بينه وبين أختيه، أن يتحاور معهن بشفافية وصدق بعيداً عن المجاملات الأسرية التي غالباً ما تطغي على زياراتهم وتجمعاتهم في الأعياد وتجعل حواراتهم سطحية وتافهة، فالكل في هذه الزيارات الموسمية يتحاشى التحدث عن أي أمر ذي قيمة خشية من ملامسة موضوع حسّاس يفجّر ذلك الغضب والكره والضغائن القديمة الدفينة التي تعيش مع أفراد الأسرة إلى الأبد.

قال لأختيه، أنه غالباً ما يتذكر كيف أن والداه عاملا الأبناء الذكور بأفضلية على الفتيات، وأنه لم يأبه بذلك عندما كانوا يكبرون، وأنه يشعر الآن بأنه كان يجب عليه أن يقول شيئاً، أن يفعل شيئاً، أن يتحمّل نوعاً من المسؤولية، فقد كانت والدتهم شديدة القسوة على البنات وليّنة ومُحِبة للأولاد، أما والدهم فكان كثير الغياب، سريع الغضب وعنيفاً، فإن كان الأولاد يستطيعون اللجوء لأمهم طلباً للحب والحنان، فلم يكن هناك أحد تستطيع الفتيات اللجوء إليه. قالت له أخته الكبرى أنه بالطبع لم يقل ولم يفعل شيئاً لأنه عندما يكون التمييز من صالحك فلن تفعل شيئاً لتغيير الواقع، وأنه لو كان أخاً أفضل ولاحظ واعترف بامتيازاته الذكورية لما هان عليه الأمر.

وعندما اشتغلت الولايات المتحدة بالحملة المناهضة للتحرّش الجنسي ضد النساء في أكتوبر 2017، انتشر وسم #Me_Too #أنا_أيضاً عالمياً عبر تويتر، كان الهدف من الحملة فضح الرجال الذين يعتدون على النساء، وقد ذهب الكثير من الرجال ذوو السلطة ضحايا للحملة سواء كانوا ساسة، أم نجوماً سينمائيين، أو رجال أعمال، فمنهم من سُجن ومنهم من تم تسريحه من العمل، لِتُؤكد أميركا أنها ستقف وقفة جادة ضد الرجال الذين يستغلون مناصبهم ونفوذهم للتحرّش بالنساء ظناً منهم أن مناصبهم ستحميهم من المساءلة القانونية. في بداية 2018 بدأت تتعالى أصوات نساء في المجال الأدبي عن عدد ليس بقليل من الحوادث مع الكاتب والأستاذ الجامعي دياز، حيث أفادت إحدى النساء أنها استدعت الكاتب لتقديم محاضرة أدبية في الجامعة حيث كانت تدرس، فقام دياز بانتهاز فرصة عدم وجود أحد في أحد الممرات وحاصرها محاولاً تقبيلها عنوة بالرغم أنها حاولت الابتعاد عنه ودفعه عنها .

في إبريل 2018 نشر دياز مقالة شخصية جداً في مجلة "نيويورك تايمز" الشهيرة عن حادثة تعرضه للاغتصاب عندما كان في الثامنة من العمر، على يد رجل كان صديقاً للعائلة، شارحاً في المقالة أن صدمة الطفولة والعذاب النفسي الذي حمله معه منذ طفولته نتيجة تعرضه للعنف الجنسي جعله يسيء معاملة النساء، وأنه يعلم أنه أخطأ في حق الكثيرات وأنه يتوق لِيكون رجلاً أفضل، يقول دياز أن همّه الآن هو الاستماع للمرأة وفهمها والتعلّم منها بدلاً من تبني الفكرة السائدة التي يرسمها المجتمع عن المرأة بأنها ضعيفة وتحت إرادة الرجل.

رأى الكثيرون أن مقالة دياز كانت حركة استراتيجية منه لتخفيف وطأة الغضب الاجتماعي ضده، رغم أنهم لم يتهموا دياز بالكذب في قصة تعرضه للاغتصاب، إلا أنه من الواضح أن دياز استشعر أن فضيحته في المجال الأكاديمي والأدبي صارت حتمية وأنه خَشِيَ خسارة كل شيء، فأراد استعطاف المجتمع وامتصاص شيء من غضبه. أما الذين تعاطفوا مع دياز فنادوا بأهمية التركيز على قسوة العنف وأثره الخطر جداً على المجتمع، بأن العنف لا يولّد إلا مزيداً من العنف، وأنه يجب علينا جميعاً أن نقف ضد العنف بدلاً من التشهير والاتهام والتأشير بالأصابع.

تم إلغاء الكثير من الحوارات مع دياز في المهرجانات الأدبية حول العالم التي كانت قد استدعته كضيف للحديث عن مؤلفاته وعن أدبه، وكتاباته. وقامت بعض المنتديات التي استدعته كضيف باستبداله بكاتبة أو كاتب آخر بدلاً من إلغاء الحدث الأدبي بالكامل. تنازل دياز عن منصبه كأحد المحكمّين في جائزة "بلتزر" الأدبية والتي كان هو أحد الفائزين بها في عام 2008، وأفاد مجلس إدارة "البلتزر" أنه سيحقق في الاتهامات ضد دياز. وتعالت الأصوات الحانقة على دياز بوجوب إقالته من منصبه كأحد المحررين في المجلة الأدبية الشهيرة "بوسطن ريفيو"، إلاّ أن المجلة تمسكت بدياز قائلة أن التحريّات أفضت أنه بالرغم من تعرّض دياز لعدد من النسوة إلاّ أن ما اقترفه لا يصل إلى مستوى التحرّش الجنسي، مما أثار غضب عدد من موظفي المجلة الذين استقالوا اعتراضاً على تمسّك المجلة بِدياز، وكوقفة تضامنية ضد التحرّش بالنساء.

ما جرى مع دياز فظيع، لأن المدافعين عنه طالبوا بمساءلة الفتاة التي حاول تقبيلها دياز بالقوة، ما إذا كانت القبلة على الخد أم الشفتين، مشيرين أن القبلة على الخد لا بأس بها، ومؤكدين بسؤالهم هذا أن هنالك أنواعاً من التحرّش التي يجب على الفتاة تقبلها وعدم الاعتراض عليها لأنها "ليست بذاك السوء"، مَانِحين الرجل المتحرّش حريّة وشجاعة للاستمرار بالتحرّش مادام الفعل "ليس بذاك السوء".

وصف أي نوع من أنواع الاعتداء الذي يمارسه الرجل على جسد المرأة بأنه "ليس بذاك السوء" أو أنه لا يرقى لحد التحرّش ليس إلاّ وسيلة أخرى لإسكات المرأة، لطمسها، لجعلها تخشى أن تبوح عمّا أصابها، هو وسيلة لتشكيك المرأة بذاتها: "أخشى أن أبوح بما تعرضت له فيتم اتهامي بأنني فقط أرغب في تضخيم الأمور وخلق الدراما"، تتراكم هذه الاعتداءات وتزداد شوكة الرجال المعتدين قوّة، ويتشجعون أكثر على ممارسة اعتداءاتهم.

بل أن مطالبة المرأة المُعتدى عليها بالتفاصيل في حد ذاته اضطهاد وجور عظيم، فالمرأة يجب أن تتحلى بشجاعة كبيرة لِتكشف عمّا تعرضت له، فهي تعرف كم سيحاربها المجتمع الذكوري، وتعرف أنه سيتم تكذيبها خصوصاً وإن كان المتحرّش شخصية معروفة ومحبوبة. توْجِيهُنا لأسئلة مثل: أين حصل ذلك؟ ومتى؟ وكيف؟ أو ماذا كنتِ ترتدين؟ أو هل شجعته بابتسامة على أن يفعل ما فعل؟ أو هل قلتِ "لا" بصوتٍ عالٍ؟ هل رفضتِ بوضوح؟ أو هل يعقل أنه لم يكن هناك شهود؟ أو لماذا لم تتكلمي وقتها؟ لماذا صَمَتِّي طوال هذه المدة؟ كل هذه الأسئلة هي نوع من التنمّر وعنف نفسي يُمارس على المرأة، المقصود منه التشكيك بمصداقية النساء وإعادتهن إلى ظلام الصمت والخوف. وباستخدام هذه الاستراتيجية ندعو المرأة لتتفيه وتبسيط ما يقوم به بعض الرجال من اعتداءات "لم يكن الأمر بذاك السوء، فقط حاول لمس يدي"، "لم يكن الأمر بذاك السوء فقط قام بفعل حركة أو إشارة بيده" وغالباً ما تتطور مثل هذه التصرفات إن لم يتم استنكارها أو إدانتها.

ما حصل مع دياز فظيع لأن كل متحرّش ومسيء ومعتدٍ على امرأة أو فتاة صغيرة يستطيع أن يلقي اللوم على أمراضه النفسية وخبرات الطفولة المروّعة التي مرّ بها، ليحظى على عطف المجتمع، وأحياناً عطف القضاء، وليتحوّل من الجاني إلى المجني عليه، ومن المفترس إلى الضحية. لا عذر لِدياز، ذلك الكاتب، المثقف، الأستاذ الجامعي، الحائز على جوائز أدبية كثيرة، كان لابد له أن يجد حلاً، أن يلجأ إلى العلاج، أن يلجأ إلى وسيلة تساعده بالتغلب على ماضيه، بدلاً من استغلال ماضيه المؤلم كعذر لتصرفاته.

ما حصل مع دياز فظيع وبشع لأن أول مكان تعلّم فيه دياز اضطهاد المرأة هو المنزل، وأوّل من علمته فن تحقير المرأة وتصغيرها هي والدته.

ما حصل مع دياز فظيع لأن المُضطهِد هو أكثر الناس تعرضاً للاضطهاد: الرجال "الماسوجونيون" المضطهدون القامعون للمرأة المسيؤون لها هم الذين يعانون درجات عالية من الاضطهاد والقمع، فالرجل المُضطّهَد يمارس الاضطِهاد على المرأة لأنها أضعف منه جسدياً أو في الكثير من الأحيان تحت حمايته (الزوجة، الإبنة، الأخت، الصديقة)، يضطهد الماسوجيني المرأة في محاولة التنفيس عمّا يُمارس عليه من اضطهاد، وليشعر برجولته الناقصة؛ قد يكون تعرّض للتحرّش في صغره، أو أن والده كان يضربه بشدّة و يسبّه و يصغّره، أو أن والدته كانت تضربه أو تصفه بالغبي الأحمق،

أو أنه بسبب قصر قامته أو نحافته الشديدة، أو سمنته الشديدة أو غيرها من العيوب الجسدية لا يشعر بالقوة بين الرجال، أو أن مديره بالعمل يحقّره، أو أنه يشعر بالتصغير لأن زوجته أذكى منه، أفضل منه، أو تتقاضى أجراً أعلى منه، و يشعره ذلك - بسبب ضعف شخصيته – بالنقص وبالصّغر.

ما حصل مع دياز فظيع لأننا عندما نعامل الرجل معاملة أفضل من المرأة، عندما يعامل الوالدان ابنهما معاملة أفضل من ابنتهم، بتمكينه من حريات وحقوق ومميزات أكبر، فقد زرعا بتصرفهم هذا البذرة التي تتيح لابنهم النظر للمرأة أنها أقل منه، أنه يستطيع أن يعاملها كما يشاء، أنه يستطيع الإساءة إليها كما يشاء، لأنه منذ صغره لم يتم تشجيعه على النظر إليها كإنسان كامل.

ما حصل مع دياز فظيع لأننا نتعلّم العنف، والسكوت عن العنف وفقاً لما يمليه المجتمع علينا من صفات وأدوار؛ ففي كل المجتمعات الآن من أكثرها ثقافة وانفتاحاً إلى أقلها ثقافة وانفتاحاً يتم ترديد ذات الآيديولوجية: الرجل خطر ومفترس ولا يرغب إلا في استغلال المرأة، والمرأة ضعيفة ومجرّد جسد. قد يكون تسويق هذه الأيديولوجية في البيت الذي يكبر فيه الذكر والأنثى بحسن نيّة من باب تحذير الفتاة وكوسيلة لتعليمها توخي الحذر من الذكر، ويتم تسويقها في المدارس، الدعايات، الأفلام، المسلسلات، والكتب. بتوطيد فكرة أن الرجل خطر ومفترس، ويجب على الفتاة تحاشيه، يلعب الذكر الدور الذي يتوقعه منه المجتمع بمهاجمة النساء. وبتوطيد فكرة أن المرأة ضعيفة ومجرّد جسد، تجسّد الأنثى هذا الدور بالاهتمام المبالغ فيه بالتخسيس، والمكياج، والملابس، وملاحقة الموضة والفاشينيستات والأشياء السطحية الساذجة، وتلعب أيضاً دور الضعيفة، الخائفة التي لا تحسن التصرّف، التي لا تعرف شيئاً لأن هذا ما يتوقعه منها المجتمع.

ما نقوله لأطفالنا منذ الصغر يشكّل شخصياتهم، الطفل الذي قيل له أنه غبي باستمرار، لن يؤمن أبداً أنه قادر على النجاح. الابن الذي يرى أخواته أقل منه بالحقوق والحريات لن يحترم المرأة أبداً. الفتاة الذي تعلمت منذ الصغر أن تصمت وأن تنصاع لكل ما يطلبه منها الذكر لن تبوح بالتحرّش الواقع عليها، ولن تحارب إذا ما صار الذكر خطراً عليها.

قال لي أحد طلابي في كلية الحقوق، ولنسميه "أحمد"، أن صديقه جاء إليه يستشيره في أمر زواجه، قال له أنه ينوي الزواج لكنه قلق، فهو لم يرتبط بأي فتاة من قبل، واحتكاكه بالأنثى مقتصر فقط على والدته وأخواته في البيت، يقول أنه لا يعلم كيف سيتعامل مع الزوجة لأنه لا يعرف شيئاً عن الأنثى، بماذا تفكر؟ بماذا تحلم؟ ماهي آمالها ومخاوفها؟ رد عليه أحمد بالتالي: "لا عليك، لا تحتاج أن تعرف أي شيء، أنت الرجل، أنت الزوج وزوجتك أياً كانت شخصيتها، أياً كانت رغباتها يجب عليها أن تُشكّل نفسها عليك، إن كانت هناك اختلافات في شخصياتكم، هي من يجب أن تتأقلم معك وليس العكس، أنت من جانبك لا تحتاج أن تحمل هم هذه الأمور."

وفي حوار بين رجلين كويتيين عبر تويتر كانا يسخران من تغريدة لإحدى النسويات اللاتي كانت تدعو بأن الزوجة غير مطالبة بإشباع كل رغبة للزوج فهي إنسانة أيضاً وليست جارية، فقال أحدهم للآخر غاضباً: "كيف لا تجيب كل طلباتي، لقد اشتريتها بنقودي، بالطبع يجب عليها إشباع كل رغباتي" وكان الآخر يوافقه الرأي.

وفي تغريدة أخرى قال أحدهم: "لا أدري كيف يتحمّل بعض الرجال أن تكون المسؤولة عنه في العمل امرأة، لو كانت مسؤولتي امرأة لقدمتُ استقالتي على الفور فأنا رجل حر."

وما حصل عندما تم تجنيد النساء في الجيش الكويتي، فرفض بعض الضباط أداء التحيّة العسكرية لهن.

انشقّ الطريقان أمامك

لماذا للذكر أثداء؟ لأن الإنسان يُخلق أُنثى حتى الأسبوع السابع، حيث يحدد الكروموسوم جنسه الذي سوف يولد عليه.

نظرية تقمّص الأرواح، أو التناسخ، أو رجوع الروح إلى الحياة بجسد آخر، باللغة الإنجليزية Reincarnation وهي فكرة تعود للأديان التوحيدية القديمة، وفقاً لهذه النظرية يختار الإنسان حياته، و جنسه، والظروف التي يولد فيها.

عندما انشق الطريقان أمامك - خاطرة

تخيّل، كم كنتَ قريباً من الهاوية

كم كانت، الاحتمالات وشيكة

"نصيب".. "أمر الله".. "قدر".. "قسمة"... "حظ"

هناك في ظلمة التكوين، في ذلك البئر الحالك، في جوف امرأةٍ حملتك في رحمها

مستَقِرٌ في جوفها، علقة تمتص من طاقتها، تتفتّق من لحمها، تنشقُّ من روحها، دمها هواؤك

وبين دقات قلبها الفظيعة، بين تلك الضربات، التي تدقّ كساعة تحذّرك أن الوقت كاد أن ينتهي

وفي مفترق مريب، رهيب للطرق

انشقّت حياتان أمام عينيك، أمام قلبك النابض الملبّك

حياتان، الاختلاف بينهما كالفرق بين الحياة والموت

في الأولى تعيش ملكاً

في الثانية تعيشُ حاملاً لعرش الملك

في الأولى تُرمى الفرص عند قدميك، تُمنح لك المزايا، تُفتح أمامك الأبواب، أطباق فضيّة مصفوفة فيها نكهات الحريّة، منها تُخيّر

في الثانية أقدارك محتومة، خياراتك محدودة، رغباتُك، أهواؤك، طموحاتك، عصفورٌ حزين بائس نسي التغريد، حبيس قفص لامع، حريّتك مسافة قصيرة ملغومة بين "الحرام" و "العيب".

في الأولى أحلامك طائرة ورقيّة، كلُّ من حولك يصفق لها، يشجعها على التحليق، يرخى لها الخيط كلّه، علّها تعلوَ أكثر

في الثانية أحلامك حمامة غالية الثمن اشُتريَت للزينة، تُقصُّ أطراف جناحيها كل يوم، حتى تتعلّم ألا تفكر بالسماء

في الأولى تخطئ، وتخطئ، وتخطئ، وتُكنس جميع أخطائك تحت السجادة كالهباء، تُنسى كأن لم تكن

في الثانية تُهدد، وتوبّخ، وتُحقّر، وتُعاقب، وتُحاسب، وتُحاكم، تُهمّش، تُصغّر، تُلقّن أن قيود الخزي والعار صقلها لك مجتمعك من دون مفتاح

في الأولى تمشي، تركض، تقفز، خفيفاً، حراً، واثقاً، لا تثقل كاهلك التوقعات، الطرقات تُمهّدُ أمامك، متشعبة، متعددة الغايات

في الثانية تمشي خَجِلاً، متردداً، خائفاً، حائراً، في عينيك نظرة استسلامٍ واعتذار، تخترقك أعين حانقة، تفترسك أحكامهم الظالمة، تلسعك ألسنة من نار.

انشق الطريقان أمامك، كالشعرة، مفترقان، أحدهما تملؤه جبال مهيبة تخفي وراءها كماً هائلاً من الأسى،

وفي كل هذا الضياع والفوضى والحيرة

اخترتَ الأولى.

المرأة الكويتية والزواج

الزواج علاقة جنسية بحتة

طريقة الزواج في الكويت مهينة جداً لكل من المرأة والرجل، لكنها تهين المرأة أكثر

بدايةً سن الزواج بالنسبة للفتاة يبدأ في العشرين وينتهي في نهاية العشرينيات تقريباً. لا أعني أن المرأة الثلاثينية أو الأربعينية لا تتزوّج، لكن أقصد أن فرص زواجها تقل بعد العشرينيات. للمرأة فرصة مدتها عشرة سنوات للارتباط برجل بعقد زواج، فتجد الفتاة ذاتها خلال هذه الفترة تحت ضغوطات نفسية، أسرية واجتماعية كبيرة، هذه الفترة أيضاً تبدأ فيها المرأة حياتها العملية بعد تخرّجها من الجامعة أو المعهد، وتقع تحت ضغط الإنجاب أيضاً لأنه يتم تلقينها منذ سن صغير أن الإنجاب في عمر صغير أفضل، فالأم الصغيرة في السن أقدر على تربية الأطفال، ومن الرائع أن تكون أماً صغيرة والجميع يندهش بأنها أم، ويقول لها أنه لا يبدو عليها بأنها أم، وأنها تبدو أخت ابنتها أو ابنها بدلاً من أمهم! كما أن إنجابها في بداية الزواج (خلال أوّل سنة زواج) متعارف عليه اجتماعياً، فإن لم تنجب سيظن الزوج وأسرة الزوج أن هناك خللاً ما، كما يتم تلقين الفتاة أن الإنجاب يُشعر الزوج بالالتزام أكثر اتجاهها، الإنجاب يجبره على الاعتراف ببيته وزوجته ومسؤوليته اتجاههم.

كل هذا يتم حشوه في عقل الفتاة، وبعد طفولة دامت عشرين سنة، تم من خلالها إغماض عينيها تماماً عن كل ما هو جنسي ويتعلّق بالجنس بأنه عيب وحرام وخطأ وقذر، وتم تعليمها أن الاحتشام والخجل أهم ما يجب أن تتحلى به من صفات، يتم شراء جهازها كعروسة من ملابس خلاعية لا ترتديها حتى الراقصات في النوادي الليلية، والهدف منها إغراء الزوج جنسياً، والاستمرار في محاولة جذبه للسرير، لأن الرجل – كما يتم تلقين الفتاة – يمل بسرعة وبالتالي يجب أن تتعلّم المرأة فن الاستمرار في جذبه، فيُقال لها أن تكون متغيّرة: غيّري لون شعركِ باستمرار، اصبغي أظافركِ لوناً غريباً، غيري تسريحة الشعر والمكياج، ارقصي، البسي شيئاً مبتذلاً جداً، اصعقيه! لا تكوني بذات الشكل كل يوم لأنه سيمل منكِ. ببساطة الرجل يريد نساء كثيرات، لذا حاولي أن لا تكوني أنتِ، كوني امرأة غريبة كل يوم، فهو لا يحبكِ أو يريدكِ أنتِ، هو يريد امرأة مختلفة كل يوم.

طريقة رؤية المرأة للرجل قبل الزواج مهينة جداً. الأسلوب التقليدي هو أن ترى أم العريس الفتاة في مكان ما، أحد الأعراس مثلاً، أو في إحدى الزيارات الأسرية، أو أن أم العريس بلّغت صديقاتها ومعارفها أنها تبحث عن عروسة لابنها وأعطتهم المواصفات التي يريدها العريس، فيتم إبلاغها ببيانات ومعلومات أسرة لديهم فتاة بذات المواصفات المطلوبة! فتتواصل أم العريس مع أم الفتاة ويحددون موعد اللقاء في بيت أهل الفتاة، وتذهب الأم مع ابنتها أو أختها وحدهن أحياناً لرؤية الفتاة عن قرب، ثم إن أعجبتهم يحددون موعداً آخر لتذهب الأم مع العريس ليراها هو وليحدد ما إذا كانت تعجبه أم لا.

خلال تلك الزيارة تجلس الفتاة لتنظر إليها أم العريس وتنظر إليها أخت العريس أو خالة العريس أو جدته، يبحلقن فيها ويحددن مميزاتها وعيوبها، وإذا لم تعجبهن لن يحضروا العريس لرؤيتها، فالمهم أن تعجبهن هن أولاً. وإذا حضر العريس فهو أيضاً يبحلق بها ويقارن بين مميزاتها وعيوبها. تجلس الفتاة في صالة مع أمها (أو جدتها، خالتها، أختها الكبيرة)، ويجلس العريس مع أمه، وبسبب الحرج الشديد نادراً ما يتسنى للعروس والعريس الحديث في أي موضوع ذي أهمية، فالفتاة خجلة وتطأطئ رأسها، وأحيانا العريس خجل أيضاً و يخشى المبادرة، و إذا بادرت الفتاة بالسؤال عن الأمور التي تهمها لأنها جريئة، قد تظن أم العريس أو العريس نفسه أنها قليلة أدب ولا تستحي من الحديث مع الذكور.

الحوار الذي يدور بين العريس والعروسة في مثل هذه الظروف سطحي وقصير جداً لأن هذا النوع من الزيارات بهدف الخطبة يجب ألاّ يدوم أكثر من ساعة، لا تستطيع الفتاة معرفة الكثير عن الرجل الذي ستعيش معه بقيّة حياتها! لا تعرف شيئاً عن شخصيته، عن ميوله، عن اهتماماته. تعرف فقط أين يعمل و كم راتبه وفي أي منطقة يعيش مع أسرته، وحتى هذه المعلومات تعرفها مسبقاً عندما تواصلت أمه بأمها.

إحداهن تقول لي أنه في كل مرة يتقدم شاب لخطبتها، تسأله عن اهتماماته لتعرف شيئاً عن شخصيته، وما إذا كان هناك نوع من التوافق بينهما. لأن هذه الفتاة تحب أن تقرأ، وتحب الحوار الهادف ذا العمق، وتحب رياضة المشي، وتحب حضور محاضرات مفيدة، ومعرفة أشياء جديدة، تملك فِكراً و آراء، وتحب أن تناقش من يجالسها بمواضيع سياسية واجتماعية. لكن في كل مرة تسأل المتقدم لخطبتها، يرد عليها بشيء من الضّجر أنه يحب النوم ولعب الألعاب الإلكترونية Video Games على هاتفه! أو أنه لم يقرأ كتاباً قط، أو أنه لا يحب المشي لكنه يلعب الكرة مع أصحابه أحياناً، ولا يهتم بالمحاضرات المفيدة، ويكره السياسة.

الكثير من الفتيات يعترضن على أسلوب الرؤية و يرون أنه في إهانة لهن، بعضهن يقولن أنهن لسنَ حيوانات في حديقة الحيوان لتأتي الأم لرؤيتهن ثم تبلّغ العريس ليأتي هو أيضاً لرؤيتهن ويحدد ما إذا كانت الفتاة تعجبه أم لا.

فتاة أخرى صاحت عندما قالت لها والدتها أنها ستحدد موعداً لأم العريس لتأتي لرؤيتها "أنا لستُ سلعة، لستُ حقيبة أو حذاء أو فستان لتأتي أم العريس وترى ما إذا كنت مناسبة أم لا"

وبالرغم أن الكثير من النساء يرون عيوب هذا الأسلوب في الخطبة إلاّ أنه مستمر حتى الآن ومتعارف عليه بأنه أفضل طريقة للزواج. فالزواج الذي ينتج عن حب بين الرجل والمرأة نادر في المجتمع الكويتي، لأن الشاب الكويتي يؤمن تماماً أن التي رضيت بالدخول بعلاقة معه ستدخل بعلاقات مع شباب آخرين وبالتالي فهي غير صالحة للزواج. كما أن الأسر التي تسمح بأكثر من زيارة للعريس وبأريحية أكبر بين العريس و العروس للتعارف قبل الزواج هذه أيضاً حالات استثنائية وقليلة من نوعها.

أما أغلبية الشباب في الكويت فيرون أن هذا هو الأسلوب الأمثل للزواج، فالشاب يدّعي أنه لا يعرف كيف يختار الفتاة المناسبة له، لكن أمه تعرف! وعندما أسأل بعض الشباب: هل عندما تكون عشرينياً أو ثلاثينياً تختار أمك لك ملابسك، أو عطرك، أو سيارتك، أو أصدقاءك، أو المكان الذي ستسافر له مع أصدقائك في الصيف، أو أين ستتناولون وجبة العشاء عندما تخرجون معاً؟ لا؟ إذن كيف تختار لك من ستقضي بقيّة حياتك معها، وستنام بجانبها في ذات الفراش كل ليلة وستنجب منها أبناءك؟

يرى الشاب الكويتي أن كل الفتيات سيئات ما عدا التي ستختارها له أمه، فهي بالتأكيد بريئة ولم يكن لها أي علاقة بأي شاب، متوهماً طبعاً أن ليس لكل فتاة تجاربها العاطفية، لكنه مادام لا يعرف شيئاً عن ماضيها فهي بالنسبة له ليس لها ماضٍ. ومفهوم البراءة هنا مرتبط مباشرةً بالجهل، عندما يتكلم المجتمع عن براءة المرأة فهو يقصد الفتاة الجاهلة، وعندما يفضّل الرجل الزواج بفتاة بريئة فهو يقصد الجاهلة التي لا تعرف شيئاً، فيصبح جهل المرأة ميزة، وتتسابق بعض الفتيات لإبداء جهلهن ليصبحن أكثر جاذبية للرجل. ففي مجتمع يفضّل المرأة الجاهلة تصبح المرأة الطفلة أكثر أنوثة، أما المرأة المتعلمة، الحذقة، المثقفة، التي تقرأ، والتي تعرف حقوقها، ولديها آراؤها، ولا تحب الاعتماد على الرجل، وتعتمد على قدراتها وتستطيع العيش لوحدها فهذه عديمة الأنوثة، ومسترجلة ويكرهها الرجل ويتحاشاها.

والغريب في الأمر أن الفتاة تتعلّم منذ سن صغير أنها لا تستطيع القيام بالكثير من الأشياء لمجرّد أنها أنثى، لا تستطيع الذهاب لأماكن بعيدة حتى لو كانت تقود سيارة، لا تستطيع أن تأخذ سيارتها للتصليح، لا تستطيع السفر، لا تستطيع العيش لوحدها، فهي طفلة وتحتاج من يرعاها، ويقوم بهذه الأمور بالنيابة عنها. ويوهم المجتمع المرأة الكويتية بأنها "مدللة" لذلك فهناك من يقوم بكل شيء عنها، فهي حيلة لسلب المرأة حريّتها، بأن يقنعها المجتمع الذكوري أنها ليست محرومة أو مقيّدة بل مدللة، وتصدّق المرأة هذه الكذبة، فتتنازل عن حقوقها وحرياتها. فهي تُلقّن الاعتماد على الغير، لكنها أيضاً تُعاير بأنها كثيرة الاعتماد على الغير وتُلام! لكن لا يُلام المجتمع والأسرة الذين قاموا بتعليمها الاعتماد على الغير. وتجد نفسها في الكثير من الأحيان بعد الزواج مضطرة للقيام بهذه الأشياء لأن زوجها الخامل لا يريد أن يقوم بها، لكن الزوج لا يُلام، ويُقال لها هي "لا تعتمدي عليه، وافعلي كل شيء لوحدك وارضي بالأمر الواقع"، بل في أغلب الحالات هي التي تعتني بالزوج الذي يفضّل أن يكون الطفل ويترك كل المسؤوليات لزوجته، فالرجل الكويتي يحمل عقدة الزواج من أمه، ويبدأ بالتعامل مع زوجته بأنها أمه التي من واجبها تدليله والقيام بكل شيء من أجله، والتغاضي عن عيوبه وتقصيره. وتجد نفسها بعد الطلاق مضطرة للقيام بكل شيء لوحدها لكنه يُنظر لها بنظرة شفقة، المطلقة المسكينة التي لا تملك زوجاً يقوم عنها بهذه الأعمال الرجولية.

كثيراً ما تجد المرأة نفسها وحيدة في زواجها، لا يربطها بزوجها سوى عقد، لا حوار ولا حميمية، بعد أن ماتت الحميمية بينهما بعد فوات بضعة أشهر من زواجهما. هو يجد سعادته مع أصحابه ويتشوّق للخروج من البيت الذي أصبح بالنسبة له المكان الذي يأكل ويستحم وينام فيه فقط. والزوجة تعزّي نفسها بأطفالها، وتحاول أن تشغل نفسها بهم وبمتطلباتهم، وتقنع نفسها أن هذه هي الحياة وهذا هو الواقع الطبيعي للأمور، فأمها أيضاً هكذا، وأختها وصديقتها، لا هدف من الاعتراض.

تقول لي إحداهن: "كنتُ أحزن في بداية زواجنا عندما يقول لي زوجي أنه سيسافر مع أصحابه، أشعر بأنني لا أعني له الكثير، يتخلى عني ويذهب معهم متى ما شعر بالملل من حياتنا، لكنني الآن أفرح عندما يغيب ويسافر، أرتاح جداً عندما لا يكون في البيت معنا، أشعر بأنني حرّة، حرّة من طلباته كلما دخل وخرج من المنزل يسألني أين هذا وأين ذاك، وماذا أعددت للطعام، ومتى سأعود إذا خرجت. أرتاح جداً في فراشي عندما لا يشاركني به. ولم أعد أعتمد عليه بأي شيء، حاجات البيت، إصلاح السيارة، متطلبات الأطفال، أقوم بها كلها بنفسي، أكره الإلحاح، ولن يقوم بأي شيء أطلبه منه مهما ألحيت. بصراحة، لم يعد يهمني إن كان موجوداً بحياتنا أنا والأطفال، لا فرق بين وجوده وعدم وجوده."

الكثير من الفتيات في الكويت اليوم صرنَ يرفضن فكرة الزواج تماماً إن لم يجدنَ الرجل المناسب لهن. فكرة التوافق الفكري والنفسي أصبحت أولوية لهن، لا يرغبن بالزواج التقليدي، لا يشترطن الحب أو علاقة غرامية رومانسية قبل الزواج لكن يشترطن نوعاً من المعرفة، صداقة يستطعن من خلالها معرفة ماهيّة هذا الشاب وفكره وعقله، إن كان له فكر وعقل. يرفضن الصورة النمطية للزوجة المطيعة، الصامتة، الخاضعة، التي لا رأي لها، التي واجبها أن تكون جميلة ومتزينة لزوجها عندما يعود للبيت ليشبع حاجته الجنسية من خلالها، ثم يعود لحياته المثيرة خارج البيت. يرفض التلقين التقليدي: "لا تكثرين عليه الأسئلة وتضايقيه عندما يعود للبيت، كوني مبتسمة دائماً، لا تتعبيه بطلباتكِ، لا تلّحي عليه، لا تزعلي أو تغضبي فليس من الأنوثة أن تغضبي وستبعدين زوجكِ عنكِ إذا كنتِ كثيرة الزعل أو الغضب، ببساطة كوني دمية مبتسمة لا أكثر."

المرأة اليوم ترفض أن تكون دمية مبتسمة، فهي شريكة في هذه العلاقة الزوجية وليست لعبة يتسلى بها الرجل، هي أيضاً لها احتياجات نفسية وجنسية يجب على الرجل إشباعها، لا تريد أن تعيش حياتها تتغاضى عن القصور والعيوب، وتفضل العيش من دون زواج على العيش بزواج لا تجد فيه الراحة والسعادة، قد تؤمن بالمرونة لكنها لا تؤمن بالتضحية، قد ترضى بالتفاوض لكنها لن ترضى بالتنازل. صارت المرأة تريد شراكة في الحياة الزوجية، تريد صديقاً مشابهاً لها يمشي بجانبها في رحلة الحياة، تشعر معه بالتكافؤ وبشيء من الصداقة والتفاهم، فالرغبة الجنسية والحميمية يضمران، لكن الحوار والصداقة يدومان.

الصداقة بين الرجل والمرأة هي العلاقة الأسمى، فالصداقة مبنيّة على احترام شخصية الآخر ولا تتوطّد وتقوى إلاّ بمرور الزمن. أما الحب الرومانسي فمبني على الإعجاب الظاهري بالآخر، المرأة التي تجذب الرجل بالمظهر الخارجي وبالمبالغة الظاهرية للتديّن والبراءة تثير إعجابه فقط من دون أن تثير احترامه، فيبهت الحب الرومانسي بعد فترة قصيرة، ولا يتبقى لكلا الطرفين في العلاقة الزوجية إلاّ استخدام الحيل التي تم تلقينها لهما في مجتمعهما الذكوري. فالمرأة تم تلقينها "تحايلي عليه"، أو "تظاهري بأنك لا تذكرين شيء، أو لا تعرفين ما يقصد"، أو "تجاهليه لفترة، فهو طفل ولا يفهم"، أو "قولي له ما يريد سماعه، لا يشترط أن تكوني صادقة أو صريحة"، ويتم تشجيعها أن تبقي عنه الأسرار وألاّ تكون كما هي بل أن تتصنّع. والرجل أيضاً يتم تلقينه ألاّ يكون صادقاً أو صريحاً مع المرأة، ألاّ يأخذها على محمل الجد، أنه لا فائدة/طائل من محاولة فهم فالنساء، فجميعهن سفيهات ومجنونات. وهكذا تتحوّل علاقة الرجل والمرأة في

المجتمع الذكوري إلى علاقة بين أعداء، كل طرف ينظر للآخر بنظرة الشك والريبة وانعدام الثقة والاحترام.

المرأة والاكتئاب

يقول الطبيب الكندي "غابور ماتي Dr. Gabor Mate "أن الاكتئاب هو نتيجة قيامنا منذ الطفولة بدفع مشاعرنا السلبية من خوف وغضب وحزن والشعور بالظلم للأسفل، وتخبئتها وعدم إظهارها وعدم التعبير عنها، لخشيتنا من التعبير عنها، لأنه لم يتوافر لدينا الأمان الكافي في بيوتنا وبين أسرنا أن نعبّر عمّا يقلقنا ويثير غضبنا أو حزننا أو ما يشعرنا بالخوف أو ما يشعرنا بالظلم أو الحرمان، ولأننا كنّا نستشعر بالرغم من صغر سننا بأننا لو عبّرنا عن مشاعرنا السلبية سوف نلقى رفضاً شديداً من قبل والدينا أو عنفاً أو غضباً أو تهميشاً، نكبر ونحن نحمل على عاتقنا عبئاً كبيراً وثقيلاً جداً من المشاعر التي لم نتعلّم كيف نعالجها.
لذلك فالكثير منّا يعاني من الاكتئاب، والكثير منّا يعاني من الإدمان. والإدمان هنا لا يقصد به فقط إدمان الكحول أو المخدرات، فهناك من يدمن الأكل، وهناك من يدمن التسوّق والشراء، وهناك من يدمن الجنس، وهناك من يدمن "السوشال ميديا"، وهناك من يدمن النوم. وكل هذه الأنواع من الإدمان هي وسيلة نستخدمها للهروب من مشاعرنا الثقيلة التي لم نتعلّم كيف نعالجها ولا سبيل لنا للتعبير عنها من دون إيلام أنفسنا أو من هم حولنا.

في الكويت وحسب إحصائية تم نشرها في الجرائد الرسمية في 2017، أن مليونا و 250 ألف شخص يعاني من الاكتئاب. وأن مركز الكويت للصحة النفسية يستقبل ألفي ملف سنوياً، وأنه يشرف على 68.740 ملفاً، وأن 25% منهم حالات اكتئاب شديدة قد ينتج عنها انتحار المريض، وأن هذه الأعداد لا تشمل من يلجؤون للعيادات الخاصة، كما أن المرض يصيب النساء أكثر من الرجال بمعدل رجل واحد لامرأتين، مع العلم أن نسبة كبيرة من النساء اللاتي يعانين من الاكتئاب لا يلجأن لأخصائي أو لطبيب نفسي بسبب النظرة الاجتماعية، أو بسبب عدم اعترافهن أصلاً بمعاناتهن بسبب جهلهن بمرض الاكتئاب، فتظن التي تعاني من المرض أن هذه هي شخصيّتها وليست أزمة نفسية تتطلب المساعدة والعلاج.

أمر لا يدعو للاستغراب أن المجتمع الذكوري الذي ينتج الأسرة التي تفضّل الذكر على الأنثى، وأن المجتمع الذي يعتبر المرأة تابعة للرجل، يهمّشها ويحط من قدرها، وينقص من حقوقها وحرياتها ويعنفها وفي ذات

الوقت يضع عليها الكثير من المسؤوليات ويعتمد عليها في كل شيء، تزيد فيه حالات اكتئاب المرأة منها عن الرجل.

يقول د. غابور ماتي، أن نسبة النساء المكتئبات أكثر من الرجال لأن أغلب المجتمعات ذكورية، وفي المجتمع الذكوري المرأة تتخذ دور المسؤولة الوحيدة عن رعاية الأسرة ومن ضمنهم الذكور في الأسرة، وتشعر المرأة غالباً أنها المسؤولة عن تحمّل الجهد العاطفي في الأسرة، في أن تحمي الأبناء والأشقاء والزوج من المشاعر السلبية، فتقوم غالباً بامتصاص مشاعرهم السلبية من تعب، حزن، توتر، قلق، واكتئاب وتحملها هي عنهم. ونظراً لحملها لمشاعرهم السلبية بدلاً منهم، تتأثر وتتدهور صحتها النفسية، وكثيراً ما يتطوّر هذا التدهور النفسي ويتحوّل إلى أمراض جسدية، لذلك، يوضح د. ماتي: "نجد أن الرجل المتزوّج يعيش مدة أطول من غير المتزوج، أما المرأة غير المتزوجة فتعيش مدة أطول من المرأة المتزوجة."

كما أن تطوّر الحياة واحتياج المرأة للخروج للعمل إلى جانب تحمّل مسؤولية التربية والرعاية النفسية والاهتمام بالأسرة زاد من الضغوطات النفسية على المرأة. ولا أقصد في ذلك أنه على المرأة ترك العمل والبقاء في المنزل، بل ما أقصده هو إشراك الرجل في عملية التربية والرعاية والاهتمام، بدلاً من الرمي بكامل المسؤولية على المرأة. ويزداد العبء على الأم العزباء، خصوصاً بعد أن قضى التمدّن والتحضّر على خاصيّة القرى والعلاقات والأواصر القريبة بين الناس التي تمّكن الجيران من مساعدة بعضهم البعض.

يأخذ الاكتئاب عدّة أشكال: تشعر المرأة المكتئبة بالتعب الشديد، رغم أنها قد تقوم بذات الأعمال الروتينية اليومية، أي من دون أي مجهود إضافي، وتخشى التعبير عن التعب الذي تشعر به حتى لا تُلام، أو حتى لا يُقال لها أنها دائمة الشكوى، أو أنها تبالغ أو أنها تتدلّع. الإرهاق والشعور بالثقل الشديد وعدم الرغبة في عمل أي شيء. شعور بهبوط شديد بالطاقة والذي غالباً يتم تفسيره على أن المرأة كسولة، لكنها في الواقع لا تملك الطاقة لأن الاكتئاب يستنفذ كل طاقتها. صعوبة شديدة في مصاحبة الناس ورؤيتهم و قضاء الوقت معهم ومجاملتهم. عدم الاستمتاع بأي شيء، حتى الأنشطة التي كانت تشعرها بنوع من السعادة والبهجة كالخروج أو الذهاب للنادي الصحي لم تعد تشعرها بالسعادة أو البهجة. قلّة النوم أو كثرة النوم. قلّة الأكل أو كثرة الأكل. الرغبة بالانعزال عن الناس. الصعوبة في التركيز. عدم السيطرة على الأعصاب وفقدان القدرة على الصبر فالمرأة المكتئبة تصرخ وتعبّر عن غضبها بشدّة لأنها تشعر أنها تحت ضغط شديد ويجب عليها

التنفيس عن ذلك الضغط في أي فرصة. البكاء الشديد من دون سبب معيّن، بالطبع هناك سبب للبكاء، فقد اعتادت المرأة منذ الصغر على كبت مشاعرها السلبية وعدم التعبير عنها، فتتفاقم هذه المشاعر وتتراكم وينتج عنها انفجار مفاجئ بالبكاء بالرغم أنه في تلك اللحظة بالذات لم يكن هناك ما يدعو للبكاء.

وإذا نظرنا لحياة المرأة في الكويت لوجدنا مقوّمات كثيرة تساهم في انتشار الاكتئاب. في البداية تنشأ الفتاة الصغيرة في بيت وبين أفراد أسرة يفضّلون الابن الذكر على البنت الأنثى، فيعطى الابن اهتماماً وحباً أكبر، ويُعطى مصروفاً أعلى، وحقوقاً وحريات أكثر. أما هي فتستمر في سماع الجملة الشهيرة "عيب، أنتِ بنت"، "لا، غير مسموح لكِ فعل هذا أو ذاك فأنتِ بنت". وكلما كبرت الفتاة وجدت حرّيتها تتقلّص أكثر بينما كلما كبر أخوها الذكر زادت حقوقه وحرياته إلى درجة أنه يبدأ في التحكم في أخته وحرمانها من حرياتها. حتى الفتاة التي ليس لها إخوة ذكور تشعر على الدوام أنها موجودة فقط كمحاولة فاشلة في إنجاب الذكر، فتتعلّم منذ سن صغير جداً أنه لم يكن مرغوباً بها أصلاً، وهذا حمل شديد يتحمله الطفل في سن صغير.

تزداد الضغوطات النفسية عليها كلما كبرت، فإذا تجرأت وقالت لماذا لا يحق لي فعل هذا أو ذاك، انهال عليها الأبوان بالصراخ والغضب: "ألا تحمدين ربكِ لأننا وفرنا لكِ بيتاً، وأن لديكِ غرفة، وأننا نأخذكِ إلى المدرسة، لماذا لا تشكريننا يا ناكرة الجميل؟". تتعلّم الفتاة ألاّ تعبّر عمّا يضايقها أو ما يحزنها، لا يحق لها التذمّر بأن والدتها ووالدها يفضلان أخاها الذكر، ولا يحق لها أن تسخط على أي قيد يوضع على حريتها لأنه ستلاقي الغضب، وفي أحيان كثيرة العنف. شعور ثقيل ومتعب جداً أن تجد الطفلة نفسها في أسرة تتطلب منها أن تكون ممتنة لها في كل لحظة وفي كل حين، وأنها مدينة لوالديها على الأكل الذي يطعمانها والغرفة التي تنام فيها، وعلى أخذهما لها إلى المدرسة، أو السماح لها بالذهاب للجامعة، لأن الامتنان إذا صار واجباً تحوّل إلى قهر.

تكبر الفتاة فتجد كل من حولها يؤكد لها أن مصيرها الوحيد هو الزواج والإنجاب، تشعر بضيق الحياة و محدوديّتها، مهما نجحت أو تفوّقت أو طمحت فهي في النهاية مجرد زوجة ويجب عليها أن تكون كما يريدها زوجها أن تكون، فالحالات التي يسمح فيها الزوج لزوجته أن تسعى من أجل أهدافها وأحلامها قليلة جداً ونادرة. وتشعر بضغط شديد لتصبح أماً، حتى ولو كانت عاطفة الأمومة لديها ليست قويّة أو معدومة. كما أن زواجها وإن كان مبنياً على الحب (وهذا أمر نادر جداً حصوله) تظل الزوجة تحت رحمة شبح تعدد الزوجات و تفرّد الزوج بالعصمة وبإمكانيته على تطليقها في أي لحظة ولأي سبب ومن دون علمها، عدم التساوي في الحقوق في العلاقة الزوجية لا يخلق علاقة سويّة مبنيّة على الراحة النفسية والتفاهم.

أثناء شبابها تشعر المرأة بضرورة ممارسة جهد أخلاقي أكبر بكثير من الرجل، الاحتشام واجب على الفتاة، لكن الرجل يستمتع بلبس ما يشاء. الفتاة التي تتجرأ على لبس ما تريد وما يعجبها تُعاير وتُحقّر وتسمى فاسقة، وساقطة، مما يدفع الكثير من الفتيات إلى إظهار علامات الاحتشام المبالغ فيها بالرغم أنهن لا يشعرن بالتديّن. وهناك فتيات يجبرن على الاحتشام وإلاّ تعرضن للعنف، وفي هذه الحالة أحياناً الفتاة تخلع الحجاب أو النقاب أو العباءة عندما تخرج للجامعة أو العمل فتعيش نوعاً من الانفصام، الظهور بشكل معيّن أمام الأهل وبشكل آخر أمام الناس. الفتاة التي تتجرأ على دخول في علاقة مع شاب يسمونها ساقطة وغير محترمة، أما الشاب فلا يُعاير لملاحقته للفتيات. تعيش الفتاة في حال خوف دائم، حياتها مليئة بالأسرار التي إذا كُشِفت سوف تعرّضها للعنف، تريد إرضاء أهلها لكنها تريد أيضاً أن تعيش حياتها وتُمارس حريّتها لكنها لا يحق لها ذلك.

سرعان ما تجد نفسها في بداية العشرينيات ملزمة بقبول زوج، وعدد الذين يتقدون لخطبتها محدوداً، وكل واحد منهم يحمل توقعات، أحدهم يريدها أن تترك عملها، والآخر يريدها أن تلبس العباءة أو الحجاب إن لم تكن محجّبة، وآخر يشترط عليها ألاّ تضع المكياج عندما تخرج، أو أن تعيش مع أهله في بيتهم بدلاً من توفير مسكن خاص لها. ووالدتها تحثها بالقبول بكل تلك الشروط التي تحزنها، لأنها امرأة والحياة تتطلّب المرونة، ولن يتقدم لها عريس يحمل كل المواصفات التي تريدها. وذلك لأن أمها وجدتها من قبلها كلهن خضعن، كلهن اعتدن الرضا والمساومة والتنازل. لا أحد يسألها: "أنتِ ما الذي تريدينه أو تتمنينه؟"، لأن ما تريده وما تتمناه ليس ضرورياً، ما هو ضروري هو أن تتزوّج ولا تستمر في أن تكون عالة على أهلها.

في بعض الأسر الكويتية عندما يتقدم أحدهم لخطبة الفتاة، يتم عرضها من قبل والديها على أبناء عمومتها للمرة الأخيرة بأبشع طريقة: "ألا يريدها أحد منكم قبل أن نزوّجها لهذا الرجل الغريب، فيعبّر أبناء العمومة عن عدم رغبتهم بابنة عمهم، فيزوجونها الغريب."

أثناء شهر العسل يذهب العروسان إلى الدولة المتعارف عليها في تلك السنة، ففي كل سنة ترتفع شعبيّة إحدى الدول بالنسبة للمجتمع الكويتي وتصبح "هبّة" ووِجهة متعارفاً عليها للسفر والسياحة. فيذهب العروسان إلى هذه الدولة الرائجة، وإذا كانت الدولة حارّة نجد العريس يلبس "شورت" وقميصاً خفيفاً ذا أكمام قصيرة، بينما العروسة مغطاة وملتزمة باحتشامها وبحجابها، العريس يسبح في حمام السباحة التابع للفندق، أو على الشاطئ، بينما العروسة تجلس تحت الشمس الحارقة من بعيد وتراقبه.

تنتهي إجازة شهر العسل فيعودان ليمارسا حياتهما في الكويت، كلاهما يعمل، وبعد العمل ليس هناك سوى المجاملات الأسرية، عزائم غداء وعشاء يجب على العريسين تلبيتها. وطوال كل هذه الفترة تشعر المرأة أنها فقط تقوم بما يريد لها المجتمع أن تفعل، أن تكون كما يريد لها زوجها ومن حولها أن تكون. لا تشعر بسعادة أو إشباع، لكنها تشعر أنه ليس من حقها أن تعبّر عن عدم سعادتها، فإذا وثقت بزوجها وقالت له أنها ليست سعيدة سيأتي الرّد الغاضب مباشرةً "ولماذا أنتِ لستِ سعيدة؟ لم أقصّر معكِ في شيء! لديكِ مكان نظيف آمن تعيشين فيه، والأكل متوفّر، ماذا تريدين أكثر؟". تتعلّم المرأة ثانيةً بدفع مشاعرها السلبية بعدم الرضا إلى الأسفل، وألاّ تعبّر عنها لأنها لن تجد سوى الغضب والصراخ. وتستمر بالمجاملة والابتسامة وهي تعاني بصمت.

ثم سرعان ما تبدأ الضغوطات التي تُمارس على المرأة من أجل الإنجاب، فتجد نفسها أماً لاثنين أو ثلاثة أطفال، في أوّل ثلاث سنوات من زواجها، وتمارس عليها ضغوطات أيضاً لتسمية أطفالها على والد أو والدة زوجها، وتمارس عليها ضغوطات لإنجاب ذكر، وتُمارس عليها ضغوطات بأن تظهر كأم مثالية، أطفالها يلبسون ملابس جميلة، بنظافة تامة، ومؤدبون جداً، ويحصلون على علامات كاملة في المدرسة، ويأكلون غذاءً صحياً، وأثناء كل ذلك فهي تعمل، وتهتم بشؤون المنزل بالرغم من وجود خادمة، وتهتم باحتياجات الزوج. وتشعر أنها تحت مراقبة شديدة من المجتمع، إذا ازداد وزنها بسبب الحمل والولادة سمعت التعليقات من كل من حولها بوجوب خسارتها الوزن، وإذا حصل موقف مع أحد أبنائها تُلام ولا يُلام زوجها، وإذا استشعرت بفتور زوجها وابتعاده عنها تُلام أيضاً وتُحاسب، وتغرقها النساء من حولها بالنصائح التافهة عن لبس ملابس نوم خلاعية، والرقص من أجل الزوج لإعادة الإثارة في حياتهما الجنسية، فالحياة الزوجية بالنسبة للكويتيين هي فقط الجنس، لا أحد يهتم بأهمية الحوار والتفاهم والتقارب النفسي.

تشعر المرأة أنها عاشت حياتها بالكامل محاولةً لإرضاء الغير، أن أحلامها ورغباتها وأمنياتها ضاعت وتبخرّت بين متطلبات كل من حولها منها. عندما كانت فتاة صغيرة كانت تحاول إرضاء والديها، وتحاول أن تكون كما يريدانها أن تكون، ولا يحق لها التذمّر أو الاعتراض لأن اعتراضها سيُواجَه بالغضب والعنف، وسيقوم الأبوان بسحب حبهما عنها واتهامها بأنها ناكرة جميل، لأنها لم تقدّر ما يقدمانه لها من طعام وكساء.

في شبابها تحاول أن تصنع شيئا ذا قيمة في حياتها، أن تجعل من وجودها معنى، لكن كل من حولها يدفعها نحو الارتباط برجل لا تعرف عنه شيئا (في أغلب الحالات) ويجب عليها أن تكتم خوفها وتوترها وعدم معرفتها لمصيرها لأنها سُتلام إن عبّرت عن شكوكها ومخاوفها، فالكل ينصحها بأن هذا هو الطريق الصحيح، ولا يوجد أي طريق آخر، وأنها يجب أن تكون زوجة ليرضى عنها الجميع. وبعد دخولها دوّامة الزواج والإنجاب والتربية والمسؤوليات التي لا حصر لها، أيضاً لا يحق لها التذمر أو التعبير عن تعبها وحزنها. لا تستطيع أن تبوح بأنها تشعر أن عمرها يفوت بسرعة من دون أن تشعر أنها فعلاً قد عاشت. تتراكم كل هذه الآلام وتتفاقم وينتج عنها الاكتئاب.

ولازال المجتمع الكويتي لا يتقبّل فكرة المرض النفسي، ولازال يعتبر من يذهب إلى أخصائي نفسي على أنه "مجنون". والأسوأ هو أن المرأة المكتئبة وإن لملمت كل قوّتها وثقتها في نفسها وأصرّت بأن ذهابها لطبيب نفسي لا عيب فيه، بل أنه من النضج اللجوء لشخص مختص، وحل المشكلة من جذورها لتعود إليها حيويتّها وتستطيع مواجهة الحياة مرّة أخرى، تجد أن بعض الأخصائيين النفسيين يسألونها: "هل تصليّن؟ قد يكون ما تعانين منه نتيجة ابتعادك عن الله". ومسألة ذهاب من طبيب نفسي إلى آخر أيضاً ليست مسألة سهلة، ليس من السهل أن تذهب إلى شخص وتبوح له عن كل (أو بعض) ما تعاني منه، والكثير منها أمور شخصية جداً، ثم تكتشف أن الذي أمامها غير مؤهل، فتذهب لآخر.

عندما قال لي أحدهم أن الأمر بغاية السهولة، فإذا ذهبتُ إلى طبيب أسنان ولم يعجبني علاجه أذهب إلى آخر، وذات الأمر ينطبق على الطبيب النفسي. رددتُ عليه بأن الأمر ليس بهذه السهولة اطلاقاً، ليس من السهولة أن تذهب امرأة لاختصاصي نفسي وتبوح له بكل ما يؤلمها ويحزنها وما يصعب عليها الحديث عنه، أن تتحدث مع أخصائي أو أخصائية عن أسرارها ومشاكلها الخاصة وهمومها، مماّ يستنزف الكثير من الطاقة لاسترجاع أحداث وذكريات مؤلمة، والقوّة المتطلبة للبوح في مجتمع ينظر للبوح (خصوصاً من جانب المرأة) على أنه قلّة حياء وسوء تربية، فالمرأة المحترمة هي التي تعاني بصمت. ثم وبعد عدّة جلسات عندما تستشعر أن الأخصائي أو الطبيب لا يساعدها ويعجز عن فهمها، تبدأ بالبحث عن آخر لتبوح له بكل ذلك مرّة ثانية أو ثالثة.

في المجتمعات الذكورية المرأة دائماً مُلامة

في مارس 2019 صرّح عميد كلية العلوم الاجتماعية في جامعة الكويت أنه وفقاً لدراسة أجراها، وجد أن 33% من الذكور في الكويت في الثلاثين من العمر أو أكبر عازفون عن الزواج، و 22% من الإناث في ذات الفئة العمرية أيضاً غير متزوجات.

وأفاد العميد أن سبب ارتفاع نسبة العنوسة والعزوبية في الكويت هو طموح المرأة الكويتية، ورغبتها في إكمال دراساتها العليا، مبيناً أنه كلما طمحت المرأة في إكمال دراساتها العليا، قلّت فرصها بالزواج، و لامَ العميد الخطة التنموية في الكويت التي حرصت على تمكين المرأة، مما جعل العمل أولوية للمرأة وجعلها مستقرّة مادياً وبالتالي لم يعد الزواج من أولوياتها، بعدما كان الزواج بالنسبة للمرأة سابقاً - على حد قوله - "ستر، وأمان، واطمئنان".

ثم أضاف العميد أن بعض الإناث في الدراسة أشرن أنه سبق وأن تقدم لهن عريس ورفضنه، وعللن سبب رفضهن العريس "بأنه لم يحقق طموحاتهن"، وبيّن العميد أن قيام الفتاة برفض المتقدم إليها بالزواج مرّة أو مرّتين هو سبب آخر يؤدي إلى عنوستها، لأنه لن يتقدم لها شاب ثالث. أما عن سبب عزوف الذكور عن الزواج فلم يكن هناك سوى سبب واحد، وهو عدم رغبة الشباب في تحمّل المسؤولية.

أنا شخصياً لا أدري عن أي خطة تنموية يتحدث العميد، لكنني أعلم أن المرأة في الكويت تعمل منذ العشرينيات حيث كانت تعمل بعض النساء "مطوّعة" تدرس البنات الصغار أصول اللغة العربية، ومبادئ الحساب، وحفظ القرآن، وتحصل على مقابل مادي بسيط. وانخرطت المرأة الكويتية في الوظيفة في الخمسينيات، ومنذ ذلك الحين والمرأة الكويتية تعمل وتنشئ أسرة من دون حرج. ونعم، هناك دائماً نسبة من النساء اللاتي اخترن العزوف عن الزواج، أو لم يستطعن الزواج بسبب إصرار أسرهن على زواجهنّ من رجل "أصيل"، أو من قبيلة معينة، أو مستوى اجتماعي معيّن.

أما لفظ "تمكين المرأة" فهو لفظ مخزٍ يلجأ له المجتمع الذكوري الذي يرفض بشدة اللفظ الصحيح وهو "حقوق المرأة". ففي المجتمعات الذكورية كالكويت، يكره الذكور لفظ "حقوق المرأة" لأنه لا يعتبر أن للمرأة حقوقاً خارج ما يوفره لها الذكر من "ستر وأمان واطمئنان" كما أشار العميد، وكأن المرأة قبل زواجها في حالة انهيار وضياع مستمر، لا تعرف معنى الأمان والاستقرار والاطمئنان، وكأنها تعيش حائرة في أمرها، تائهة، مشرّدة، حتى يوفر لها الرجل الأمان والاستقرار والطمأنينة!

ما لا يفهمه العميد وأشباهه في الكويت وفي كل المجتمعات الذكورية، هو أن الحياة تغيّرت. المرأة حصلت على استقلاليتها لأنها ترغب بذلك، ولأنها ليست ضائعة، حائرة، وغير مستقرة من دون الرجل. طمحت المرأة للنهوض علمياً، وللتطوّر عملياً، ولم تعد ترى دورها محصوراً فقط بالزواج والإنجاب. وقد حصل هذا التطوّر تدريجياً وبفعل المرأة وليس بفعل أي خطة تنموية وهمية. المرأة رغبت بالمزيد من الحقوق والحريات وطالبت بها وحصلت عليها، لم يعد الزواج والإنجاب همّها الوحيد. ولم تعد المرأة تؤمن بالكذبة المشهورة بأن الرجل سيحقق لها أماناً واطمئناناً واستقراراً، لأنها تجد كل ما تحتاجه من أمان واستقرار واطمئنان بداخلها وفي ذاتيتها ومن دون اللجوء للغير. من الخطأ تلقين المرأة أنه عليها الارتباط برجل للحصول على الأمان النفسي، لأننا كبشر إذا بحثنا عن الأمان في الآخرين لن نجده أبداً ما لم نجده في أنفسنا أولاً. إذا لم نجد الأمان والاطمئنان في وحدتنا أولاً فلن نجده بالزواج، ولا بالحب، ولا بالصداقة، ولا بأي علاقة اجتماعية أخرى.

نعم، هناك الكثير من النساء اليوم يفضّلن الحصول على شهادة عليا، ويفضّلن الحرية بالسفر، وممارسة الهوايات، وإماّ تأجيل الزواج لوقت لاحق، أو فلا بأس إن لم يتزوّجن أبداً لأنهن وجدن الإشباع النفسي والروحي في حياتهن كعازبات، وفي عملهن، وعلاقاتهن الاجتماعية الأخرى، فلماذا نُشعر المرأة العازبة بالذنب، ولماذا نلومها بأنها متسببة بمشكلة العنوسة؟! ولماذا نلقبها باللفظ السلبي "عانس"؟ بالرغم أنه باللغة العربية لفظ "عنوسة" يُطبّق على الرجل والمرأة، فيقال عَنَسَ الرجل، أي كبر بالسن ولم يتزوّج. ويُقال عنست المرأة، أي تقدّم بها العمر ولم تتزوّج. ولفظ "أعزب" أيضاً يُطلق على الجنسين، فيقال عن الرجل أنه أعزب، أي غير متزوج. وعن المرأة عزباء، أي غير متزوجة. لكن بالرغم من ذلك، نجد أنه في المجتمع الكويتي تُعاقب المرأة بلفظ عانس أي أنها شاخت من دون زواج، بالرغم أنها قد تكون صغيرة بالعمر.

والرجل يقال عنه فقط أعزب، حتى لو شاخ بالعمر من دون زواج، هذا دليل آخر على قسوة المجتمع الذكوري على المرأة، فاللغة مهمة، والألفاظ التي نستخدمها لها تأثير، وكثيراً ما تُعاير المرأة بالكبر في السن، أماّ التقدم في السن للرجل فقط يزيده وقاراً وأهمية.

رفض المرأة لعريس غير مناسب لها، ورغبتها بالانتظار حتى تجد رجلاً يتوافق معها فكرياً، حسياً، ونفسياً هو أمر إيجابي. ويفترض على الرجل أن يفرح بذلك، فالمرأة لم تعد تنظر للرجل أنه جهاز صرف آلي يصرف عليها وعلى الأولاد، بل كحبيب وصديق ورفيق حياة، تريد أن تتحاور معه، وأن يلتقي عقلها بعقله، تريد أن تتوافر بينهما الألفة والمحبة. لكن نجد الذكر الكويتي لازال يغضب من وضع المرأة لبعض الشروط وهي غالباً شروط طبيعية جداً، كأن يكون زوجها في مثل مستواها العلمي، ومن بيئة مشابهة لبيئتها، ولديه اهتمامات مشابهة لاهتماماتها، حتى يتحقق نوع من القاسم المشترك بينهما. لكن الذكر يرفض هذه المساواة، يريد هو من يضع الشروط، وشروطه عادةً هي أن تكون المرأة بجسد معين وطول ولون شعر معين، وألا تكون متفوقة عليه علمياً أو عملياً.

فالرجل الكويتي يرفض الزواج من المرأة المتعلمة، المثقفة، الواعية والطموحة لأنه يرى في طموحها تهديداً لذكوريته الهشة. ذكوريته التي بُنِيَت بالكامل على أنه أفضل من المرأة، وأنه أذكى من المرأة، و مركزه الوظيفي أعلى من المرأة. والتناقض هنا هو أن هذا الرجل نفسه الذي لا يريد للمرأة أن تكون طموحة وظيفياً، يُطالبها بعد الزواج بمساعدته مادياً في تحمّل أعباء الأسرة، يعتمد الرجال على زوجاتهم العاملات للحصول على قرض للمعاونة في شراء بيت، أو مصروفات السفر، ومواجهة غلاء المعيشة في الكويت. فنجد الرجل الكويتي مزدوجاً في معاييره، يكره المرأة الناجحة العاملة الطموحة، ويلقي باللوم على عمل المرأة بأنه يسبب مشاكل أسرية، ويساهم في ارتفاع نسبة الطلاق والعنوسة، وفي ذات الوقت لا يتأخر عن إلزام المرأة بمساعدته ماديا.ً

في الدراسة التي أعدها العميد أغلب اللوم يقع على المرأة، ولم يتطرّق لخطورة ما صرّح به الكثير من الذكور الكويتيين بأنهم في سن الثلاثين وما فوق يرفضون الزواج لأنهم لا يرغبون بتحمّل المسؤولية، فالرجل لا يُلام إن لم يكن مستعداً لتحمّل المسؤولية، فقط المرأة هي التي تُلام إن كانت طموحة.

في المجتمع الذكوري تُلام المرأة وتُعاقب فقط لكونها إنساناً، فقبل يومين نشرت جريدة محلية أن محكمة الأسرة في الكويت أسقطت حضانة أحد الأمهات لأبنائها لأن الأم قد خلعت الحجاب، فخلع الحجاب أصبح دلالة للقاضي أن الأم غير صالحة لتربية الأبناء. وقبل بضعة أشهر حكمت المحكمة بإسقاط حضانة أم لأبنائها بعد أن أفاد الأب للمحكمة أن الأم تدخّن الشيشة، فحكمت المحكمة بعدم صلاحيتها كحاضنة. في مقابل ذلك لم نسمع أن أحد الآباء غير صالح بسبب خلعه أو لبسه لقطعة قماش، ولم نسمع أبداً بحرمان أب من أبنائه بسبب التدخين.

المجتمع الذكوري يقسو على المرأة، يقسو عليها لغوياً ويلومها إن لم تتزوّج، ويقسو عليها إن تزوّجت بتقييد حريتها، وحرمانها من حقها بالطموح العلمي والعملي، ويقسو عليها بحرمانها من حضانة أبنائها إن هي تطلّقت.

وحتى عندما تفعل المرأة كل ما باستطاعتها لتجنّب كل هذه العوائق، بأن تعيش لنفسها وتهتم بتطوير ذاتها، يظل مجتمعها القاسي يلاحقها بلفظ عانس ويُشعرها دائماً بأنها مشكلة، مشكلة تحتاج إلى حل. لا يراها ككيان مستقل بذاته، يراها دائماً تابعة للرجل وكأنه لا يحق لها العيش من دونه.

يقولون لها الحياة مشاركة

زوجها يقول لها الحياة الزوجية مشاركة

يأخذ نصف راتبها

يصرفه على عشيقاته

أمها تقول لها "تحملّي" الحياة الزوجية مشاركة

يسافر هو مع أصحابه

هي تربي أولاده

والدها يقول لها "يلا عاد يلا، هذا واجبج"، وبعدين الحياة الزوجية مشاركة

هو ينام

هي تسهر

صديقتها تقول لها "ويه عادي، كلهم جذي"

هو يأكل

هي تطبخ

هو يلبس

هي تغسل

هو يضحك

هي تبكي

هو يأخذ

هي تعطي.

سوالف حريم!

عادات وتقاليد المجتمع الكويتي تعزز فكرة أن الأم هي فقط المسؤولة عن الأبناء وتربيتهم وأنه لا مسؤولية للرجل في الانخراط في حياة الأبناء، وذلك من اللحظة الأولى لولادة الطفل. لدينا في الكويت (كما في معظم العالم العربي الإسلامي) مرحلة النفاس أو ما يسمى بالأربعين، وهي مرحلة ما بعد ولادة المرأة، حين لايزال رحم المرأة يتخلّص من الدم الذي امتلأ به في فترة الحمل، ومادام الدم ينزل عند المرأة فهي دينياً غير مطالبة بالصلاة أو الصوم لذلك يُقال في اللغة أنها "تقعد"، أي أنها تقعد عن أداء العبادات، ولا يكون هناك اتصال جنسي بين المرأة وزوجها خلال هذه الفترة حتى يتوقف الدم عن النزول بعد أربعين يوماً، فتعود لأداء العبادات و تحل لزوجها، وحتى لو استمر الدم بالنزول بعد الأربعين يوماً فتتطهر منه المرأة وتؤدي عباداتها، فحكم النفاس ينتهي بعد أربعين يوم.

لكن ما يحدث في الكويت هو انتقال المرأة التي أنجبت من مستشفى الولادة مباشرةً إلى بيت أهلها كي تهتم بها أمها أو أخواتها ويقمن على تنفيسها أثناء الأربعين. لا تعود إلى بيتها ولا تسكن بذات المكان الذي يعيش في زوجها، وحجّة المجتمع في ذلك هي: أولاً أن جسد المرأة التي وضعت لازال واهناً بعد الولادة وتحتاج رعاية واهتماماً خاصّين، وثانياً الانفصال الجسدي بين المرأة وزوجها لتجنب الاتصال الجنسي. السبب الثاني مضحك ومحزن؛ أيجب فصل الرجل عن زوجته في بيتين مختلفين حتى نتفادى اتصاله الجنسي بها؟ وهل الرجل عديم الإدراك؟ ألا يستطيع التحكم بشهواته؟ ألا يمكن للرجل أن يفهم ببساطة أن الاتصال الجنسي بزوجته خلال هذه المدة مكروه ومُضر لها؟

في الأيام الأولى لولادة الطفل التواصل بينه وبين الأبوين مهم جداً له وللأبوين معاً، فمن خلال هذا التواصل تبدأ الحميمة، والعاطفة والألفة، والتواصل الروحي بين الأبوين وطفلهما الجديد. لكن في الكويت الفكرة التي تصل للرجل هي أن المرأة متعبة وتحتاج لأمها وليس لزوجها، غريب! أليست الزوجة مسؤولية الزوج؟

أليس مسؤولاً عن العناية بها عندما تمرض، كما تعتني هي به عندما يمرض؟ ألم يكن موجوداً عند خلق هذا الطفل؟ لماذا انتهى دوره عند ولادة الطفل؟ لماذا لا يقوم هو بتنفيس زوجته؟ يهتم بها ويرعاها ويحضر لها ما تحتاجه من طعام، ويحمل الطفل من السرير ويحضره إليها عند وقت الرضاعة، وبعد أن يشبع الرضيع يعيده مرّة أخرى للسرير؟

في الواقع، يتم تلقين الرجل أن الطفل في أوّل أيامه ليس من مسؤوليته، وأن أُم الزوجة (الجدة) أدرى وأعلم بالمأكولات الشعبية التي يحتاجها جسد المرأة ليستعيد قوّته بعد الولادة فتحضرها لها. وأن ما تمر به المرأة في فترة الأربعين هي "سوالف حريم" لا يفهمها الرجل ولا يحتاج لإدراكها، وهو غير مطالب حتى بمعاونة زوجته والاتصال النفسي بمولوده. فتصبح مدة الأربعين بالنسبة للرجل نوعاً من الإجازة، فيسافر مع أصدقائه، ويرتاد الدواوين إلى ساعة متأخرة من الليل.

قد يقول البعض أن الزوج يزور زوجته ويرى طفله في فترة الأربعين عندما يكونان في بيت الجدة. والرّد على ذلك هو أن الرؤية والزيارة غير كافية، فالزوج ليس ضيفاً ليزور بعض أفراد العائلة وصديقات المرأة يزرنها وهي في فترة الأربعين للاطمئنان أو لتقديم التبريكات. لكن دور الزوج جوهري وليس ثانوياً، لابد له أن يدرك أنه جزء مهم من هذه الأسرة، أنه من اللحظة الأولى مسؤول عن زوجته وطفله، ليس فقط بتحقيق الدخل وشراء الأغراض، بل بحمل الطفل، بالتلامس الجسدي بينه وبين طفله. وحمل الطفل ومداعبته لا يكون فقط عندما يكون الطفل سعيداً، هادئاً، شبعاناً، نظيفاً، ورائحته لطيفة، بل لابد للأب المساهمة في حمل الطفل عندما يصحو ويبكي ليلاً، وفي الأشهر الثلاثة الأولى يصحو الرضيع كل ساعتين أو ثلاث ساعات في الليلة (في اليوم) إما لشعوره بالجوع، أو الألم، أو ببرد أو حر، أو عدم ارتياحه وحاجته لتغيير الحفاظة، أو فقط لشد انتباه الوالدين. يجب على الأب المساعدة بتنظيف الطفل، ورضاعته إن لم يكن يرضع رضاعة طبيعية. لكن ما نراه في واقع الحياة في الكويت، أن المرأة التي ستلد للمرة الأولى تُحضّر لهذه المرحلة المتعبة عن طريق استقدام الخادمة، لأنها تعلم أنها ستحتاج للكثير من المساعدة، وتعلم أيضاً أن زوجها لن يكون عوناً لها.

في المجتمع الكويتي يتعلّم الزوج/الأب أن الحمل والولادة "سوالف حريم" لا علاقة له بها، بالرغم أن دوره بالحمل كان جوهرياً ! ويترتب عليه أنه منذ بداية حياة الرضيع يصبح دوره كأب دوراً ثانوياً في حياة طفله، لذلك فهو يستمر في لعب ذلك الدور، حتى بعد أن يكبر الطفل، لأن البداية هي الأساس الذي يرسم طبيعة العلاقة بين أفراد الأسرة، إن لم يشعر الأب بتواصل نفسي بينه وبين طفله منذ البداية فلن تُخلق لديه عاطفة الأبوّة، والطفل كذلك لن يشعر بالعاطفة تجاه والده، قد يخشاه وقد ينفذ أوامره، لكن الحميمية ستكون مفقودة. مثلما يحصل بين الطفل والخادمة إذا كانت الأم كثيرة الغياب، ستتوطّد العلاقة بين الطفل والخادمة وتفتر بين الأم والطفل.

الوردة الحمراء والخضراء

رجل أربعيني، زوج وأب لأربعة أبناء، يحمل شهادة في علم الاجتماع من جامعة الكويت، ويعمل أخصائياً اجتماعياً في أحد المدارس، يسخر من البرامج الاجتماعية التعليمية التي بدأت مؤخراً بنشر الوعي عن أهمية اهتمام الزوج بزوجته، عن أهمية الملاطفة بالكلام، والحميمية بالتعامل، لأن القسوة والجفاف المستمر واللامبالاة تولد نفوراً وكراهية بين الزوجين. ويقول بأسلوب ساخر: "في السابق كانت الأمور بسيطة، الزوج يوفّر المال والزوجة تهتم بالأطفال، أما الآن يقولون للرجل أحضر لها وردة حمراء، وأحضر لها وردة خضراء! لكي تشعر هي بالاهتمام والتقدير! ولماذا عليّ أن أُشعرها بالاهتمام والتقدير!؟ كلٌّ مناّ يؤدي واجبه وانتهى الأمر. لا أفهم كل هذه التوجهات الحديثة الساذجة التي تلزم الرجل أن يكون رومانسياً أو أن يكون لطيفاً مع زوجته! تفتح التلفاز، أو تستمع للراديو، تجد من يقول لك أحضر لها وردة حمراء، أحضر لها وردة خضراء!"، ثم يقوم بحركة بيده، حركة سريعة بتدوير اليد من عند الرسغ أو المفصل، وهي حركة معروفة عند الشعب الكويتي مفادها تفاهة الأمر الذي يتم مناقشته، أو تدل على أن المتكلّم يجد الموضوع محل النقاش تافهاً ومن قبيل الهراء.

كان يشرح تفاهة تقدير المرأة والتعامل معها بلطف أمام ابنه المراهق، وبناته الصغيرات، وزوجته، وإخوانه وأخواته وهم كلهم كبار في السن، متزوجون ولديهم أبناء. لم يعترض أحد، ولا أدري إن كان ذلك بسبب اتفاقهم معه بالرأي أو لعدم المبالاة. لكن ما يهمني هنا هو تسفيه حق المرأة في الملاطفة والمعاملة الرقيقة، وكأن زوجته التي تهتم به، وترعاه، وتقوم بشؤون بيته، وتعد طعامه، وأنجبت أولاده وقامت بتربيتهم، لا بل وتعمل وتساهم معه في الإنفاق على البيت والأولاد، هذه التي تكرّس حياتها له ولأبنائه لا تستحق التقدير ولا الاهتمام.

وقد استخدم هذا الرجل عبارة "وردة خضراء" ليزيد من سذاجة وتفاهة العبارة، لأنه لا توجد ورود خضراء، لكن ما أراد أن يفعله هو تتفيه فكرة جلب الوردة للمرأة أو الزوجة، لأنه لا يرى أن زوجته تستحق أي شيء فمن المؤكد أنها لا تستحق وردة بين الحين والآخر.

وردة الجوري في الكويت تكلّف نصف دينار في معظم محلاّت الورود وأحياناً تكلّف ديناراً واحداً، أما الورود الأخرى فهي أرخص بالثمن، فلماذا يستكثرها الرجل على زوجته؟ ولماذا لا ينظر للموضوع على أن الزهور هذه وإن أهداها لزوجته معبراً لها عن تقديره، سيتم وضعها في إناء على الطاولة في بيته بحيث تجمّل البيت ويستمتع بالنظر إليها كل أفراد المنزل.

من ناحية أخرى، فإن فكرة تقدير المرأة عن طريق إحضار وردة، هذا مجرّد اقتراح، أنت غير ملزم بإحضار وردة بالتحديد، قد تكفي الكلمة الطيبة، قد تأخذ زوجتك إلى مطعم بين الحين والآخر من دون الأبناء، قد تحضر علبة شوكولاته، أو كعكة تستمتع بأكلها كل الأسرة، أو قد تحب زوجتك الكتب فتحضر لها كتاباً، أو قد تكون مهتمة بالفن فتحضر لها شيئاً قريباً من ميولها، أو قد تتعمّد مدح الزوجة أمام أبناءها وأمام أهلك كي تسمع الزوجة وترى بأنك تقدر كل جهودها، فليست هناك طريقة واحدة فقط لتقدير وإسعاد الزوجة.

ثم ألا يفرح الزوج عندما تحضر له زوجته شيئاً يحبه، بمناسبة أو من دون مناسبة؟ فلماذا إذاً يستنكر الزوج تقدير زوجته؟

ثم إن قيام هذا الرجل بالسخرية من فكرة تقدير الزوجة بوردة أمام أبنائه سيوّلد لديهم انطباعاً أن المرأة لا تستحق التقدير، فهي تقوم بكل هذه الأعمال من اهتمام، ورعاية، وتربية، وتدريس، وتنظيف، وطبخ، وتوصيل، وإحضار الأغراض لأنه واجبها، لا تستحق في أداء واجبها أي شكر. وفكرة أن القيام بالواجب لا يستحق التقدير ولا يستحق الشكر فكرة خاطئة تماماً، ففي كل مجتمع يتم فيه تقدير الطالب المجتهد، أو الموظف الدؤوب، أو الفنان المبدع، أو العالم المميّز. هل نقول للطالب المتفوّق أنت من واجبك أن تدرس وتجتهد وتتفوّق وبالتالي لا تستحق التقدير! طبعاً لا.

كما أن المجتمع الكويتي والرجال بالذات عادةً ما يوجهون الكثير من الذم للمرأة التي يرونها مقصّرة في واجباتها كزوجة أو أم، وبالتالي فإن صح انتقاد المرأة لتقصيرها، فلماذا لا يصح شكرها وتقدير جهودها إن كانت حريصة ومهتمة؟ بل إن انعدام التقدير والشكر غالباً ما يقود الكثير من الزوجات والأمهات الحريصات إلى القنوط وعدم الاهتمام، لأنه يؤلم المرأة أنها تصبح مجرّد خادمة، أو آلة المطلوب منها أداء ذات الروتين يومياً لعشرات السنين من دون عرفان.

أيّة كرامة!

في أحد الكتب التي تحتوى على تجارب الكاتب الشخصية، ونصائح عامة عن الحياة، وحِكم وأشعار. خصص المؤلف أكثر من فصل لإسداء نصائح وتعليمات للمرأة في فن إرضاء الزوج، وإرشادها عن كيفيّة التعامل معه كي تكون زوجة صالحة ومثالية، لكن لم يُخصص أي فصل في الكتاب لنصح وإرشاد الزوج عن كيفية التعامل مع الزوجة. في أحد تلك الفصول بعنوان "حكمة عجوز" أعاد المؤلف سرد حوار في مقابلة تلفزيونية بين مذيعة شابة وامرأة عجوز، موضوع المقابلة هو أسباب نجاح زواج المرأة العجوز، حيث أن زواجها استمر لخمسين سنة وبالتالي يعتبر حسب رأي المؤلف زواجاً ناجحاً. لا يتضح من الكتاب ما إذا كانت هذه المقابلة حقيقية أم من وحي خيال الكاتب، لأنه لم يكن هناك ما يشير لأي مصدر لتلك المقابلة (لا اسم للقناة أو تاريخ للمقابلة). المذيعة الشابة تسأل المرأة العجوز عن سر استمرارية زواجها لمدة خمسين سنة وبالتالي نجاحه، مقارنةً بالزيجات الحديثة التي ينتهي الكثير منها بالطلاق:وو

المذيعة: ما هو سر استمرار زواجك؟

المرأة العجوز: الصبر يا ابنتي، يجب على المرأة أن تصبر، فإذا غضب زوجكِ وصرخ عليكِ وضربك، فيجب ألاّ تزعلي وتذهبي إلى بيت أهلك، بل أن تصمتي، وتنتظري، اذهبي إلى غرفة أخرى في البيت واصبري حتى يسكن زوجكِ ويهدأ غضبه. ثم حضرّي له العصير البارد و خذيه إليه، سيسامحكِ وينتهي الأمر.

المذيعة: يضربني وأصبر وأسكت وأحضّر له العصير! لكن أنا لي كرامتي ولا أسمح لكرامتي بالإهانة.

المرأة العجوز: عن أي كرامة تتكلمين يا ابنتي وقد رآك زوجكِ عارية؟

في المجتمعات الذكورية، يُنظر للزوجة أنها متاع للزوج. والمتاع هو كل ما يتم تملّكه بغرض الاستمتاع به، كالطعام، والأثاث، والسلع، والمال. والمتاع هو شيء (جماد) غير عاقل وليس إنساناً. يرغب الإنسان بتملّك المتاع ليس لجوهره، لكن لما يمنحه هذا الشيء للمالك من إشباع جسدي أو نفسي. فشراء طعام معيّن ولنقُلْ السمك مثلاً، لا يقصد به المشتري أنه يحب السمكة لذاتيّتها، لكنه يحب ما يمنحه استهلاك السمكة من إشباع لِجوع جسده، والتلذذ بالطعم. فلو كان المستهلك يحب السمكة لذاتيّتها لما اشتراها ميّتة، إن هو أحب السمك لماهيّة السمك لاقشعرّ بدنه من فكرة صيد السمكة وقتلها من أجل إشباع شهوة جوعه. حب المشتري للسمك هنا ليس موّجهاً للسمكة، لكن لما يمنحه لحم السمكة من إشباع.

لذا فالرجل في المجتمعات الذكورية عندما يتزوج المرأة التي يراها كمتاع، هو لا يقوم بشراء (دفع مهر) المرأة لجوهرها لتكون له شريكة حياة، صديقة يحبها، يحترمها، يشعر بالراحة في قربها، يستشيرها في الأمور التي تستعصي عليه، يثق بحكمتها، تحمل معه مسؤوليات الحياة، يشاركها همومه وأفراحه. بل هو يشتري الإشباع الذي يحققه له جسد المرأة، جسد يفرّغ فيه شهوته وينتج له أبناء. وفي كتب قوانين الأحوال الشخصية المستمدة من الشريعة الإسلامية يُفسّر الفقهاء أن الزوج المسلم مُلزم بدفع المهر والنفقة الشهرية للزوجة لأنه "يتملّكها" فتمنحه جسدها وتُمكنه منها متى ما رغب بها، هو دون غيره، أي أنه أمسكها واحتكرها لنفسه، وبناءً عليه فهو يدفع مقابل ذلك الإشباع، فيصبح الزواج علاقة اقتصادية بحتة. والدليل أن المهر هو مقابل الاستمتاع الجنسي بالمرأة، أنه إذا حصل طلاق قبل دخول الزوج بالزوجة، تُلزم المرأة برد المهر للرجل.

جسد المرأة يصبح ملكاً للزوج وليس ملكها، تعرّيه له حتى وإن لم تكن لها رغبة بذلك، وتزيّنه ليبدو أكثر إغراءً للزوج، وكثيراً ما تُجبر بناءً على رغبة الزوج أن ترتدي (بالرغم أنه يعتبر عُرياً أكثر مما هو ارتداء) لملابس إيحائية يقصد منها إثارة الزوج جنسياً، بالرغم أن المرأة قد لا ترغب بالتعريّ بهذه الطريقة المهينة والحاطة من كرامتها، لكنه يتم تلقينها في المجتمع الذكوري أن هذه هي الطريقة الوحيدة لإشباع الرجل وإبقائه، وإلاّ تزوّج بأخرى أو بحث عن العشيقات.

ولأن الزوجة تصبح بهذه الطريقة جسداً مخلوقاً فقط لإشباع حاجات الزوج الجنسية، يُصبح هذا الجسد أيضاً عاراً وخزياً، فالمطلوب من الزوجة تعرية الجسد والاستحياء من الجسد، أن تكون قيمتها كإنسان محكورة بالجسد ويكون جسدها مصدر مهانة، تعريتها لجسدها للزوج يمحو معه كل كرامة كانت تملكها قبل العريّ. فالمرأة المحتشمة في المجتمع الذكوري محترمة وذات كرامة، والمتعريّة لا كرامة لها حتى وإن كان تعريها لزوجها، الذي يؤكد لها الدين والمجتمع أنه واجبها تجاهه. تعيش المرأة في المجتمع الذكوري بتناقض شديد؛ فهي تُطالب منذ صغرها بمعايير عالية جداً من العفة والطهارة، والتديّن، والحياء، البراءة، حتى وإن كان ذلك نفاقاً ورياء، مطلوب منها ألاّ تعرف شيئاً عن الرجل أو الجنس لأن تلك التي تفهم رغبات الرجل ومعنى الجنس فهي ساقطة لا أخلاق لها، يتجنبها الرجل الذي يبحث عن زوجة. ثم بمجرّد زواج تلك الطاهرة، العفيفة، التي تطأطئ رأسها خجلاً، ولا تعرف شيئاً عن عالم الرجال، وتستحي من جسدها وتخيفها حتى فكرة تعريته، حتى صار عليها أن تتحوّل إلى راقصة شرقيّة محترفة، عاهرة في الفراش تعرف كل الحِيل الجنسية التي لا تعرفها سوى أمهر الفاجرات، بائعات الهوى، وإلاّ فلن تُشبع حاجات الزوج.

كما يتم تعليمها منذ الصغر ألا تقرب من أي رجل، فكل الرجال سيّئون يلاحقونها رغبةً بجسدها فقط. وكيف لها هي أن تعرف نيّة أي رجل غريب عنها وهي ساذجة ولا خبرة لها في الحياة، ويسهل على الرجل الغريب عنها أن يضحك عليها ويستغلها ويسرق عفّتها. ثم بمجرّد بلوغها سن الزواج يتم الضغط عليها للزواج من رجل غريب عنها لم تره من قبل في حياتها، وتُطالب بشدّة أن تصبح له بمثابة مومس تتفنن بالتعرّي وإثارة غرائزه التي يُفترض أنها لا تعلم عنها شيئاً.

تخسر المرأة في المجتمع الذكوري كرامتها أمام زوجها عندما يراها عارية حسب رأي المرأة العجوز في الكتاب ورأي مؤلّف الكتاب. لكن كرامة الرجل مهما تعرّى تبقى محفوظة، ويكافأ على تعنيفه لزوجته بكأس عصير بارد.

تستمر العجوز في نصح المذيعة الشابة، بأن الزوجة هي المسؤولة الوحيدة عن استمرارية زواجها ونجاحه، أي أن الزوج لا يتحمّل أي مسؤولية في استمرارية الزواج من عدمه. فتقول للمذيعة، استمرار زواجك بيدكِ أنتِ.

وكأن المرأة وحيدة في الزواج، وكأن الزواج ليس كما هو مبيّن في اسمه "زواجاً" أي اتصالاً وعلاقة رابطة بين شخصين. وكأن الزواج لا يتطلب التبادل في الأخذ والعطاء بين المرأة والرجل. وكأن الزواج عبء على المرأة تتحمّل مشقته وحدها، بينما يكون إجازة للزوج يسرح ويمرح فيه مع حقوق امتياز يمارسها على الزوجة، ثم يلومها إن أصبح الزواج غير سعيدٍ وغير ناجحٍ.

وهذا فعلاً ما يتم تلقينه للفتاة في مجتمع ذكوري أبوي كالكويت، يُقال للمرأة "يجب عليكِ الصبر والتحمّل والرضى أياً كانت أفعال الزوج وأياً كانت درجة تقصيره أو عنفه، فهاذا واجبكِ". وضع المجتمع عبء استمرارية الزواج ونجاحه على المرأة فقط، يعطي للرجل التصرف كما يشاء، ويعطيه الحق بالتمادي بإيذاء المرأة وكبّ كل المسؤوليات عليها، ويسمح له بِلوْم المرأة وتعنيفها على أي تقصير مهما كان صغيراً من دون أن يتحمّل هو أياً من ذلك اللوم. حتى إذا انتهى الزواج، أو بدأ بالبحث عن عذر للزواج من ثانية قال بكل أريحية: هي مقصرة، أو لم تشبع احتياجاتي، أو لم تكن صبورة، أو عليها أن تتحمّل فذلك من واجبها.

تريدُ رجلاً

يتساءل الرجل متعجباً مستنكراً، ماذا تريد المرأة؟

"مادري شيبون هالحريم**!؟**"

تريدُ رجلاً - خاطرة

تريدُ رجلاً مهتماً.

تريدُ رجلاً يتباهى بغنى عقله وبثرائه الحسي والفكري، لا بثمن سيارته، أو الساعة التي على معصمه أو حذائه.

تريدُ رجلاً يتفاخر بعدد الكتب التي قرأها، بعدد إنجازاته، بعدد اهتماماته، لا بعدد مغامراته وضحاياه النسائية الساذجة.

تريدُ رجلاً يبحث عمّا يسعدها، لا ما يثير غيرتها.

تريدُ رجلاً يبحث عن راحتها، لا ما يشغلها ويحيّرها.

تريد الذي يتفنن في إسعادها، لا الذي يتفنن في إبكائها.

تريد الذي يضع احترامه لها قبل شهواته.

تريد الذي يضحي من أجلها، لا الذي يستغلها.

تريد رجلاً عندما يصبح فجأة دقيق الملاحظة، يتمعن بإيجابيّاتها، لا يدقق في قصورها.

تريد رجلاً ينصت إليها باهتمام وبرفق وتقدير، لا الذي يستمتع بتسفيه أحزانها ومخاوفها.

تريد الذي يشاركها آمالها، لا الذي يعيش معها كالغريب.

تريدُ رجلاً حين يشتد الخلاف، يفضّل أن يكسبها هي، لا أن يكسب الجدال.

تريد رجلاً قوياً، لا بعضلاته، بل بصبره، يظلّ متمسكاً بها، لا يفر ويهرب كلما احتدمت الحياة.

تريد رجلاً يسعى من أجلها.

تريد رجلاً لا يبخل عليها بالكلمة الطيبة.

تريد رجلاً يضعها قبل أصحابه.

تريد رجلاً، يمسك بها عندما تتأرجح تحت قدميها الحياة.

تريد رجلاً يتقن الرجولة.

إذا كنتِ تؤمنين بالمساواة فلماذا لا تتنازلين عن المهر؟

دار حوار عبر تويتر عن وجوب تنازل المرأة النسوية عن المهر والنفقة، لأنها تنادي بتساوي الحقوق والواجبات بينها وبين الرجل. لن تتنازل المرأة عن المهر والعدّة والنفقة طالما لا يزال الرجل يتمتع بحق تعدد الزوجات، وحق التطليق خارج المحكمة، أي من دون معرفة أو موافقة الزوجة (العصمة).

كما أن مفهوم العدالة لا يعني دائماً المساواة التامّة. فلو كنا نتحدّث عن المساواة التامة، فيجب على الرجل حمل الطفل أربعة أشهر ونصف، وتَحمِله الزوجة أربعة أشهر ونصف في رحمها، لكن هذا مستحيل. ويجب تقسيم واجبات الرضاعة، وتغيير الحفاظات، والاستيقاظ ثلاثة إلى أربعة مرات في الليلة بالتساوي بين الأم والأب تماماً، لكن الرجل لازال يرمي بكافّة مسؤوليات الرضيع على الأم، ويرفض تغيير الحفاظات، والاستيقاظ ليلاً، لذا يجب على الزوج دفع النفقة للحاضنة (أم أطفاله) ويستمر بدفعها بعد التطليق.

ذات الأشخاص الذين ينادون بوجوب تنازل النسوية عن المهر والنفقة والعدة هم الذكور الذين يكرهون المرأة النسوية، لأنهم يظنون أن المرأة النسوية هي المرأة التي تكره الرجل. ولأنهم يظنون أن المرأة النسوية تكره الرجل، يعايرونها: "ومن صرف عليكِ وأطعمكِ وأخذكِ إلى المدرسة وإلى الطبيب غير أبيكِ"، وأحدهم قال لي: "ومن جعلكِ دكتورة؟ من صرف عليكِ إلى أن أصبحتِ دكتورة؟" وغالباً يلي مثل هذه العبارات مجموعة من الشتائم، لأن الذكوري لا يعرف معنى التفاهم والحوار، لكنه يعرف جيداً أسلوب التحقير، الاستخفاف والسّب.

لم يجعلني أحدٌ دكتورة. بل درستُ واجتهدت، وتمتّعت بقوّة إرادة إلى أن حققت طموحاتي. أما ما صرفه عليّ والدي من مأكل وملبس عندما كنت صغيرة فهذا واجبه. واجب الأم والأب أن يصرفوا على أبنائهم إلى أن يكبروا ويتمكنوّا من الصرف على أنفسهم. صرف الآباء والأمهات على أبنائهم ليس جميلاً، بل واجب، ولا شكر على واجب. فالذي يتبنى كلباً أو قطة أو يشتري عصفوراً عليه أن يوفر له طعاماً ومأوى ويأخذه إلى البيطري عندما يمرض فهذا واجبه، ولا أظنه ينتظر شكراً وامتناناً من كلب أو قطة أو عصفور.

والسبب الذي يدفع أصحاب الفكر الذكوري إلى اللجوء لمثل هذا التفسير الذي يلزم المرأة (ولاسيما المرأة الناجحة) أن تشعر أنها مدينة لوالدها لأنه أطعمها وسمح لها بالذهاب للمدرسة، وإلزامها بالاستمرار في التعبير عن امتنانها له للأبد هو أن الفرد الكويتي لا يؤمن بالحقوق.

لا يؤمن بحقوق الحيوان ولا يؤمن بحقوق الإنسان. هو لا يؤمن بالحقوق مطلقاً، هو يؤمن بالعبودية.

لماذا لا يؤمن بالحقوق ولماذا يرى نفسه عبداً؟

لأنه تم تلقينه منذ الصغر أنه ليست له أية حقوق.

أكثر عبارة يسمعها الكويتي من والديه وهو يكبر هي: "ألم نوفّر لك مسكناً؟ ألم نوفر لك سريراً لتنام عليه؟ ألا نشتري لك الطعام والملبس؟ ألا نأخذك إلى المدرسة وإلى الطبيب إذا مرضت؟ لماذا لا تشركنا يا ناكر الجميل؟

عندما يعتقد الوالدان أن ما يقدمانه لأبنائهم هو جميل وليس واجباً، وأنه يجب على الأبناء أن يشعروا دائماً أنهم مدينون للوالدين وأن يعبروا عن ذلك الامتنان باستمرار، يصبح التعبير عن الشكر والامتنان قهراً. ومن هنا يؤمن الطفل بأن التعليم والتطبيب والسكن والمأكل والملبس ليست حقوقاً أساسية من حقوقه كإنسان، بل هي هديّة يقدمها له والداه ويجب عليه أن يعبر عن شكره وامتنانه لهما حتى الموت.

يكبر الفرد الكويتي فيسمع ذات الرسالة من حكومته متمثلة بالحاكم، في كل يوم وفي كل لحظة: "ألم أبنِ لك الشوارع؟ ألم أوفّر المدارس والمستشفيات؟ يجب عليك أن تشكرني."

- الأسرة هي انعكاس الدولة، الأسرة هي النواة المصغرّة من الدولة، والدولة هو النواة المكبّرة من الأسرة .

لا يهم إن كانت تلك الشوارع محطمة، لا يهم إن كانت المدارس والمستشفيات الأدنى في العالم، لا يهم أنه في كل الدول المتقدمة الشوارع، الصحة، والتعليم هي حقوق أساسية للإنسان وليست هبة أو عطيّة أو منحة. المهم أن يعبر الشعب البائس عن امتنانه للدولة والحاكم.

الله أيضاً يجبر العبد على شكره ليلاً ونهاراً على كل ما أنعم به عليه من نِعَم ومصائب، ويهدد الله عباده الذين لا يشكروه بالعذاب الأليم.

كل هذه الأدلجة والتلقين من قِبل الأسرة والدين والحكومة أدت إلى ألاّ يؤمن أصحاب الفكر الذكوري بما تسميه الدول المتقدمة بالحقوق، فالعبد لا يرى نفسه مستحقاً لأيّة حقوق.

المرأة الكويتية المتزوجة من غير كويتي، والمرأة البدون

بينما يتم تجنيس الزوجة الأجنبية للرجل الكويتي بمرور خمسة سنوات على زواجهم، وتستحق هي وأبناؤها منه كافة الحقوق والمميزات التي يتمتع بها المواطن من تعليم وعلاج مجاني وسكن وفرص وظيفية. تُحرم المرأة الكويتية المتزوجة من غير كويتي من الحصول على إقامة دائمة لزوجها الأجنبي، لا تحصل على تعليم ولا علاج مجاني لأبنائها منه، لا يحق لأبنائها الالتحاق بجامعة الكويت، ولا الحصول على وظيفة، ولا تستطيع حتى أن تحصل على إقامة دائمة لأبنائها. وحتى لو كانت الأم الكويتية تملك بيتاً، لا يحق لأبنائها غير الكويتيين أن يرثوا بيتها بعد وفاتها. بالإضافة إلى ذلك لا يحق لها أن تحصل على القرض السكني والأرض واللذان يستحقهما كل ذكر كويتي.

في الكويت، هناك ما يقارب 70,000 رجل كويتي متزوج من امرأة غير كويتية، تتمتع زوجته وأبناؤه بكافة حقوق المواطنة، وأهمها الاستقرار والانتماء. بالمقابل هناك ما يقارب 20,000 كويتية متزوجة من غير كويتي، زوجها وأبناؤها يواجهون خطر الإبعاد إن لم يكن لديهم كفيل كويتي، لا يشعر أبناؤها الذين تربّوا في الكويت ولا يعرفون وطن آخر غيره لا بالاستقرار ولا بالانتماء.

بعض الكويتيات المتزوجات من خليجي (طالما لم يكن عراقياً) يحصلن على بيوت شعبية في "تيماء" أو "الصليبية" وهي مناطق فقيرة ومتدنية المستوى من حيث الخدمات، كما أن هذه البيوت الشعبية غالباً ما تكون متهالكة تضطر هذه الأسرة محدودة الدخل للاقتراض لترميمها، وبعض الكويتيات المتزوجات من خليجي يتم توظيف أبنائهن (في بعض الحالات) في وظائف حكومية. أما الكويتية المتزوجة من غير خليجي فلا تحصل على شيء.

المادة 29 من الدستور الكويتي تنص على أن "الناس سواسية في الكرامة الإنسانية، وهم متساوون لدى القانون في الحقوق والواجبات العامة، لا تمييز بينهم في ذلك بسبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو الدين."

لكن بالرغم من ذلك نرى في الكويت أن أبناء الكويتية المتزوجة من غير كويتي لا يستطيعون حتى الحصول على رخصة تجارية يستطيعون من خلالها بدء مشروع بسيط يكون مصدر رزق لهم.

سنوياً تعلن الحكومة عن حاجتها لجلب العمالة الأجنبية وفي مجال التربية بالذات، لكنها ترفض تعيين أبناء الكويتية المتزوجة من غير كويتي، وترفض تعيين البدون بالرغم من أن عدداً كبيراً منهم يحمل شهادات علمية ولديهم كفاءات.

في زمن تستطيع المرأة في كافة الدول المتقدمة أن تمنح جنسيتها لأبنائها، نجد التعسّف والظلم والتمييز في بلد يدّعي أنه بلد الإنسانية. يُعرض الأمر في البرامج التلفزيونية الكويتية الهابطة فنرى النساء والرجال يبررون: "ولماذا تزوجت تلك المرأة الكويتية من غير كويتي؟ لتتحمّل النتائج! الدولة غير ملزمة بإعالة غير الكويتيين، ليُعِلهم والدهم، ليضفهم البلد الذي ينتمي له أبوهم!"، هؤلاء هم أنفسهم الذين يؤمنون بأن الزواج قسمة ونصيب وأمر بيد الله، لا دخل لا للرجل ولا للمرأة فيه! ماذا لو كان هذا الرجل الوحيد الذي تقدم لها بالزواج؟ ماذا لو كان رجلاً طيباً ومناسباً، ما ذنب أبنائها، يحرمون من التعليم والعلاج! من المستفيد؟ ولا يحق لهم حتى الحصول على إقامة دائمة! ولا ممارسة التجارة! ولا تملّك منزل والدتهم! ما الهدف؟

ثم من يدعون أنه لا يحق لأبناء الكويتية المتزوجة من غير كويتي الحصول على أية حقوق مساوية لأبناء الكويتي يرددون التبرير أن أبناء الكويتية لا ينتمون للكويت، وليسوا كويتيين! من هم إذن؟ هم أطفال ولدوا في الكويت وعاشوا حياتهم بالكامل في الكويت! لا يعرفون أي بلد آخر غير الكويت، وضعهم مطابق تماماً لأبناء الكويتي المتزوج من غير كويتية، فلماذا التمييز؟

ثم يدّعون أن قانون الجنسية حدد بشكل حصري بأن الجنسية تنتقل من طرف الأب لا الأم، ولا يجوز تجاوز القانون. قانون الجنسية قانون وضعي قديم تم وضعه في نهاية الخمسينيات، يجوز تعديله، بل وجب تغييره وتعديله لأن الحياة تغيّرت وفِكر الأفراد تغيّر، ويجب على القوانين أن تواكب التطوّر والتغيير. ثم إن الكثير من القوانين غير عادلة، تقنين الشيء لا يمنحه القدسية، بل الواجب تطوير القوانين باستمرار لتتماشى مع متطلبات المجتمع التي هي دائماً في حالة تغيّر وتطوّر.

الذين يدّعون أن أبناء الكويتي المتزوج من غير كويتية كويتيون أكثر من أبناء الكويتية المتزوجة من غير كويتي مخطئون، فتربية الأبناء في المجتمع الكويتي غالباً ماتترك للأم، الطفل يتعلّم أوّل كلماته ويكتسب أوّل أفكاره من الأم لا الأب، كما أنه في حالة الانفصال والطلاق فالحضانة للأم، أي أن الأبناء لصيقون بأمهم أكثر بكثير من أبيهم.

الذين يحاربون حصول أبناء الكويتية على حقوق المواطنة يرددون أنهم يحمون نسيج المجتمع الكويتي من امتزاجه بجنسيات أخرى وتداخلها به، وهي فكرة عنصرية جداً ولا أدري لماذا تنطبق على المرأة من دون الرجل! ويؤكد من يرفضون مساواة أبناء الكويتية بأبناء الكويتي أن الرجل الأجنبي يطمع بالمرأة الكويتية لما يستطيع أن يحصل عليه من خلالها على مميزات مادية، فيجب وضع العراقيل أمام الكويتية التي تتزوج من أجنبي حتى تعزف الكويتية عن الزواج من أجنبي. هذه الحجّة تنطبق على الأجنبية التي تطمع بالزواج من كويتي أكثر، لأن الأجنبي عندما يتزوج من كويتية يعلم أنه لن يحصل على أي مميزات، وأبناؤه سيعيشون كالغرباء في الكويت، أما الأجنبية فتعلم أنها ستحصل على الجنسية وأبناؤها سيكونون مواطنين! وحتى لو تطلقت الأجنبية من الكويتي أو ترمّلت أو تزوّجت من شخص آخر، تظل تحمل الجنسية الكويتية وتحصل على مميزات المواطنة الكويتية من رعاية وعمل وإعانة وقروض وغيرها.

لكن الحقيقة هي أن المجتمع الكويتي الذكوري يكره رؤية المرأة الكويتية مستقرّة مع رجل غير كويتي. الرجل الكويتي يرى زواج الكويتية من أجنبي إهانة شخصية له، فهو يظن أن المرأة الكويتية ملكه، هو فقط من يحق له الزواج منها، وإن امتنع عن الزواج منها فلا يحق لغيره أن يتزوجها. ففي 2019 أكدت دراسة محلية بأن 33% من الذكور الكويتيين الذين تعدوا سن الثلاثين يرفضون الزواج، ونقلت صحيفة محلية أن عدد الكويتيات غير المتزوجات اللاتي بلغن الأربعين في 2019 هو 13.534 امرأة، فإذا كان الكويتي يعزف عن الزواج، أو يفضّل الزواج من أجنبية، فما حيلة المرأة الكويتية التي ترغب في الزواج وتكوين أسرة سوى أن تتزوّج من أجنبي!

المرأة البدون هي أكثر فرد يعاني من الظلم في المجتمع الكويتي

البدون لفظ يُطلق على عديمي الجنسية في الكويت، بدون أو بالأصح "من دون" جنسية. وهم جماعة من الكويتيين الذين حُرموا من الجنسية الكويتية ومن ثم من حقوق المواطنة، والهوية، والحقوق الإنسانية الأساسية كالتعليم والصحة، والوثائق الرسمية كشهادة الميلاد، البطاقة المدنية، الجواز، والحقوق السياسية من تصويت وترشيح للبرلمان. يتعرض البدون في الكويت لأشد أنواع العنصرية، وانحدار مستوى المعيشة، والحرمان. فرص العمل المتوفرة للبدون شحيحة، وأحياناً كثيرة معدومة. يتم استغلالهم مهنياً بمنحهم مرتباً منخفضاً جداً، أو مرتباً متذبذباً غير ثابت، أو حرمانهم تماماً من المرتب. يدرس أبناؤهم في مدارس متواضعة مختلفة عن مدارس المواطنين، وبسبب رسوم هذه المدارس العالية يعجز الكثير من البدون عن تعليم أبنائهم.

عدد البدون في الكويت حسب الإحصائيات الرسمية 25 ألفاً، لكن يقال أن العدد اليوم تفاقم إلى 100 ألف، ويعود عدم تجنيس البدون إلى سبب تاريخي، وسبب عقابي أو تأديبي. تاريخياً عندما بدأت الكويت تتحوّل إلى دولة مدنية في الخمسينيات عن طريق إلزام الشعب باستخراج وثائق رسمية من جواز وبطاقة مدنية لإثبات حق المواطنة، تم إغفال الكثير من القبائل البدوية الكويتية المتنقلة في الصحراء، مما أدى إلى تحول وضعهم من كويتيين إلى "عديمي الجنسية"، بالرغم أن عدداً كبيراً من الرجال البدون التحقوا بالسلك العسكري والشرطة.

استغلّتهم الحكومة الكويتية أبشع استغلال في الثمانينات، حيث كانت تحرمهم من الجنسية وفي ذات الوقت تدرجهم في سجلات المواطنين كحاملين للجنسية الكويتية، وذلك لكي تتمكن من زيادة كمية النفط التي تصدرها، حيث كان نظام تصدير النفط وفقاً لمنظمة الأوابك حسب عدد سكان الدولة، قبل أن يتغيّر النظام ويصبح التصدير وفقاً لنظام الحصص.

تأديبياً، تقوم السلطة في الكويت متمثّلة بالأمير بسحب جنسية الفرد إن كان معارضاً لنظام الحكم كعقوبة، فيتحوّل هذا الشخص وأبناؤه وأحفاده إلى بدون، محروم من كافة حقوق ومميزات المواطن.

الكثير من البدون استشهدوا بالغزو العراقي دفاعاً عن الكويت، والكثير منهم عملوا حرساً للأمير، والكثير منهم يحمل وثائق تثبت وجودهم في الكويت منذ الخمسينيات، ولازالت الحكومة الكويتية تضطهدهم وتحرمهم من أبسط حقوقهم الإنسانية.

عبر السنين جاءت حكومة تلو الأخرى تعد بحل القضية، ولي عهد تلو ولي عهد، رئيس وزراء تلو رئيس وزراء، ووعود نوّاب البرلمان الكاذبة بحل القضية لكن من دون أي جدوى. تم تأسيس لجنة لمعالجة أوضاعهم في 2010، لكن اللجنة زادت الأمور سوءاً بتضييقها أكثر على البدون. حيث صرّح رئيس اللجنة "صالح الفضالة" أن الكثير من البدون هم في الحقيقة يحملون جنسية دولة أخرى، وبالتالي لا يستحقون الجنسية الكويتية. ولو كان هذا الادعاء الكاذب صحيحاً فلماذا لا يتم ترحيل من يحملون جنسية دولة أخرى لبلدانهم الأصلية، بدلاً من حرمانهم من مغادرة الكويت، ومنح الجنسية لمستحقيها. وعندما يطالب الشعب بإحالة قضية البدون للقضاء للفصل فيها بعدالة، تتحجج السلطة بقانون الجنسية الكويتي الظالم الذي يمنع القضاء من الفصل في أي مسألة تخص الجنسية ويجعلها من أمور السيادة التي لا يجوز لأحد الفصل فيها سوى الأمير. أما أمير الكويت فمنهك بتلميع صورته خارج الكويت، وبالإغداق على الدول الأخرى بمساعدات مالية تصل إلى ملايير الدنانير، متظاهراً بعدم وجود آلاف ممن يعانون بشكل يومي على أرضه.

فاليوم في الكويت لا يستطيع البدون الذهاب للمستشفى للعلاج، لأن اللجنة المعنيّة بمعالجة أوضاع البدون تمتنع عن تجديد بطاقته المدنية. ولا يستطيع البدون سحب مرتبه البسيط من حسابه البنكي الخاص لذات السبب. وعندما يطالب البدون اللجنة بتجديد بطاقته، تلوي اللجنة ذراعه بإجباره على توقيع وثيقة يعترف من خلالها أنه في الحقيقة ينتمي لدولة أخرى ويحمل جنسيتها، فيرفض البدون توقيع الوثيقة، وفي ذات الوقت لا يستطيع أن يعيش حياة طبيعية ببطاقة منتهية الصلاحية.

تشوّه السلطات الكويتية صورة البدون بالكويت بإظهارهم بصورة سيئة إعلامياً. في 2012 أقام البدون مجموعة من الاعتصامات السلمية، ولم تكن تلك الاعتصامات سوى وقفة للبدون في ساحة ترابية، وحملهم لأعلام الكويت، وترديدهم للنشيد الوطني. وقد حضرت ورأيت بنفسي البطش والعنف والضرب والرش بالماء الساخن الذي استخدمته الشرطة الكويتية والقوات الخاصة لفض هذه الاعتصامات، ومن ثم جر المعتصمين للمخافر، وحجزهم، ومحاكمتهم، ووضع قيود أمنية ضدهم تضمن عدم تجديد وثائقهم وأوراقهم، وتضمن رفض اللجنة طلبهم بالتجنيس بشكل نهائي. وفي اليوم التالي تنشر وزارة الداخلية في الصحف الكويتية عن قمعهم لأعمال الشغب التي ارتكبها البدون أثناء الاعتصام من تعدٍ على رجال الشرطة، وحرقهم لإطارات السيارات، بعكس ما حصل في الواقع.

تستمر السلطات الكويتية بالتصريح في الإعلام أنه تم منح البدون مميزات وحريات أكبر، مما يعطي انطباعاً كاذباً للشعب بأن أوضاع البدون في تحسّن، لكن المشكلة الأساسية وهي الحرمان من الجنسية لازال مستمراً. كما أن ما يتم نشره في الصحف لا يعكس الواقع، يتم التصريح أن للبدون الحق في الدراسة في جامعة الكويت أو إحدى الجامعات الخاصة، وعندما يتقدم شاب أو شابة من البدون للالتحاق وبمعدل دراسي عالٍ يتم رفضهم. يتم التصريح بإعطاء البدون جواز خاص، لونه رمادي مختلف عن الجواز الكويتي أزرق اللون، وعندما يتقدم البدون لإحدى السفارات للحصول على "فيزا" للسفر يتم رفضه مباشرةً من قبل السفارة، لعلم السفارة أن حامل هذا الجواز سيطلب اللجوء في بلدها بمجرّد وصوله إليها، لأنه محروم من كل حقوقه في الكويت، ويُرفض أيضاً لأنه لا يستطيع تقديم كشف حساب من البنك يثبت من خلاله أنه يحصل على مرتب ثابت.

أما أبناء الكويتية من فئة البدون، وهم من تحمل أمهاتهم الجنسية الكويتية لكن آباءهم بدون، فيعانون من نفس التمييز والظلم. تعلن الصحف عن قبولهم في الجامعة، ثم بعد أربع سنوات من اجتهادهم في كلية الحقوق وتحصيلهم لمعدل عالٍ يحرمون من ممارسة مهنة المحاماة، أو العمل بمراكز التحقيق، أو النيابة العامة باعتبارهم غير كويتيين. فيذهب جهد سنوات في الجامعة هباء.

تحكي لي إحداهن، أمها كويتية، وقد استشهد والدها البدون بالغزو: "بعد أن أنهيت الثانوية العامة، رفضوا منحي الشهادة باعتبار أنني لا أحمل بطاقة مدنية، كنت أحلم أن أدخل الجامعة، وبعد أن سمحوا بإعطائنا بطاقات مؤقتة، كانت قد مرّت سنوات عديدة على تخرجي من الثانوية، فلم تكن هناك وسيلة لي سوى إعادة دراسة الثانوية مرّة أخرى، ففعلت، لأحقق حلمي بدخول الجامعة، لكن الجامعات رفضت قبولي. تقدم لخطبتي شاب كويتي طيب ومن أسرة جيدة ويعمل بمهنة محترمة، لكن عندما ذهبتُ معه إلى لجنة البدون، لأنه يجب على أمثالنا الحصول على إذن اللجنة بالزواج، رفضوا، وقالوا له أمامي "ولماذا لا تتزوج من فتاة كويتية؟ لماذا تتزوج من هذه؟!". بالرغم من ذلك ظلّ متمسكاً بي، كان لدينا خياران، إما أن نفعل ما يفعله الكثير من البدون في الكويت إن أرادوا الزواج، نذهب للمخفر ويعترف أنه ارتكب جريمة خطف بحقي، وبما أنه اختطفني، القانون الجنائي الكويتي يعطيه خيار الزواج مني لإسقاط تهمة الخطف، فيصبح زواجنا "زواج مخافر". أو الخيار الأخير، وهو أن نتزوج خارج الكويت، ونعود للكويت لتوثيق عقد زواجنا. وبما أنني لا أريد أن أتزوج بالمخفر، ولأنني أحمل الجواز الرمادي، ذهبنا معاً إلى دولة خليجية مجاورة وعقدنا قراننا هناك. لكن عندما أخذنا عقد الزواج للجنة البدون في الكويت لتوثيقها، رفضت اللجنة التوثيق واتهمونا بالزنا. كنت أحلم أن يكون لي أبناء، لكن بسبب واقعنا المؤلم امتنعت عن الإنجاب. كنّا نتأمل أن تتغيّر الظروف للأفضل، لكن بعد مرور ثلاثة سنوات على عدم توثيق عقد زواجنا، و رفض لجنة البدون تجنيسي بناءً على جنسية زوجي، لأنه في نظرهم ليس زوجي. وخوفي من إنجاب طفل في مثل هذه البيئة، رأيت بوضوح أنني أصبحتُ عائقاً له، وأصبح هو عائقاً لي، لأنني أنوي الهجرة لدولة أخرى طلباً في اللجوء، وهو يرفض الهجرة، لذلك قررنا الطلاق.

المرأة البدون غالباً لا تحصل على فرصة التعليم، ففي أسرة محدودة الدخل، ووجوب التحاق أبناء البدون بمدرسة خاصة مكلفة، يتم إعطاء الأولوية للابن الذكر إن أمكن، لأن الأسرة ترى أن الابن الذكر سيستفيد أكثر من التعليم ومن الشهادة، أما الفتاة فتتزوج و تنجب و تربي فقط.

المرأة البدون غالباً لا تستطيع العمل، فحين يجد الشاب البدون بعض الفرص الوظيفية البسيطة مثل العمل في "كراج سيارات" أو كرجل أمن في أحد المجمعات التجارية، لا تسمح الأسر البدوية البدون لبناتهن بالعمل في محل تجاري أو مطعم، فهذه الأعمال تناقض عاداتهم وتقاليدهم. تقضي المرأة البدون كامل حياتها في البيت وفي أحيان كثيرة تجبر على الزواج بالرغم أنها لا ترغب بالزواج، أو تجبر على الزواج ممن لا تريد. ونظراً للضغوطات النفسية الشديدة التي يتعرّض لها الرجل البدون بشكل يومي من حرمان وظلم واضطهاد، وما يشعر به من تمييز خارج البيت في المجتمع الكويتي، كثيراً ما يعود للبيت الذي لا يكاد يستطيع تلبية حاجاته المادية غاضباً ساخطاً على واقعه المؤلم ومهزوماً، فينفّس الكثير من ذلك الغضب على المرأة من زوجة، أم، أخت أو ابنة.

تقول لي امرأة بدون: "بلغت الثلاثين، لا أحمل سوى شهادة الثانوية، كنت أحلم بالالتحاق بالجامعة، لكن لن يتم قبولي بسبب أننا لا نحمل بطاقات مدنية، ولا نملك الرسوم فالجامعات الخاصة غالية، والدي لا يسمح لي بالبحث عن عمل بسيط، قضيت عمري كلّه في البيت، الخروج والتفسّح غير مسموح لنا، والدي دائماً غاضب ويصب غضبه علينا (زوجته و بناته)، أخي عندما كبر أصبح يقلّد أبي، في كل يوم نتعرّض أنا و أخواتي للعنف من قبل أخينا، تم تزويج أختي قسراً وأعرف أن ذلك مصيري أنا أيضاً، أتمنى الموت لأنني أعلم أنني لا أستطيع الهجرة فأنا لا أملك جواز سفر."

المطلقة

بعد تعب وجهد وعناء سنوات عديدة لإكمال دراساتي العليا في الخارج، من خلالها تعرضت للكثير من التحديات، أهمها إنهاء زواجي من رجل كويتي سيء وعنيف، آذاني وأساء لي، وتفنن في استغلالي. عدت للكويت في 2012 مع ابنتي التي كان عمرها آنذاك ست سنوات كي أبدأ التدريس في كلية الحقوق جامعة الكويت. بدأت البحث عن شقة لنعيش فيها أنا وابنتي، وفي كل مرة أجد شقة تناسب احتياجاتنا في بناية آمنة، ومنطقة هادئة، أسأل عن الإيجار، فينظر إليّ الحارس بنظرة استغراب، وبدلاً من أن يجيب على سؤالي وبدلاً من أن يحترم عقلي ويسألني مباشرة ما إذا كنت متزوجة، يستخدم أسلوباً ملتوياً ويسألني ما إذا كان زوجي سيرافقني في المرّة القادمة لرؤية الشقة، أرد عليه - وقد فهمت حيلته التافهة - أنني مطلقة، ولكنني أم، وها هي ابنتي، يدها الصغيرة في يدي. فيتحاشى النظر إليّ عندما يقول أن المالك يسمح فقط للعوائل بالسكن في البناية. أرد عليه بأنني أنا وابنتي عائلة. فيرد بأنه مجرّد حارس وأنه يطبق أوامر مالك البناية. أطلب منه هاتف مالك البناية، فيرفض إعطاءه لي. أنتقل لبناية أخرى ويتكرر ذات الموقف، مرّة بعد أخرى، مع العلم أنني لا أسأل عن إيجار كل شقة أراها، فبين كل خمسة أو ستة بنايات أجد شقّة مناسبة، لأن أمر إيجاد سكن مناسب من كل النواحي (الموقع، الحجم، النظافة، مستوى خدمة الصيانة، الإيجار، البعد عن مكان عملي، البعد عن مدرسة طفلتي) أمر شاق، ويتطلب بحثاً مكثفاً ولمدة طويلة. بحثت كثيراً ولمدة طويلة جداً، حتى صرت أقف عند مدخل البناية، حيث أكون على مرأى ومسمع الحارس وأقول بصوت مسموع "أنا مطلقة وهذه ابنتي، هل يجوز لنا السكن في هذه البناية أم لا"، من قبل (حتى) أن أطلب رؤية الشقة حتى، لأنني مللت وتعبت من الصعود للشقة، واستطلاع مستواها، وتوجيه الأسئلة الضرورية عن خدمة الصيانة وغيرها، ثم بعد أن تعجبني وتعجب ابنتي، وبعد أن أسأل عن الإيجار يأتيني الرّفض! هذا يقول لي: "لازم عقد زواج"، وذاك يقول لي: "لو كنتي غير كويتية وغير متزوجة لكنّا سمحنا بذلك، لكن مالك البناية يرفض للكويتية غير المتزوجة بالسكن"! وآخر يتجرأ وينصحني بأنه من الأفضل لي السكن عند أهلي! كيف لرجل أجنبي وغريب عليّ لا يعرف عنيّ شيئاً أن ينصحني بما هو أفضل لي!؟

معنوياً، أرهقني الأمر كثيراً، الإحباط والأذى النفسي اللذان لحقا بي وبابنتي كذلك، التي كنت أصر على أخذها معي لأنني كنت متيقنة كم سيكون منظري مشبوهاً عندما أكون امرأة لوحدي أذهب من بناية إلى أخرى أسأل عن وجود شقة! الإذلال الذي تعرضت له لمجرد أنني أبحث عن سكن أفجعني، حق السكن من الحقوق الأساسية الثلاث لكل إنسان (حق المأكل، الملبس، والمسكن). وها أنا امرأة أبلغ الثلاثين من العمر أنتقل من بناية إلى أخرى، من منطقة إلى أخرى، وأطلب، وأتوسل، وصرتُ أضيف بأنني دكتورة في الجامعة لعلّ وظيفتي تشفع لي! بالرغم أنه لا يتوجب علي فعل ذلك، فللمرأة الحق في السكن في المكان الذي يناسبها ويريحها، أياً كانت وظيفتها طالما كانت قادرة على دفع الإيجار.

لكنني لم أعد أستنكر، فالماسوجينية ذاتها التي منحت هؤلاء المؤجرين وملاّك المباني حق التسلّط على المرأة المطلقة وقهرها واضطهادها وتفضيل المستأجرة الأجنبية والمتزوجة عليها، حتماً سيمنح حارس البناية الحق بالنظر إليّ بنظرة دونية حين يقول لي: "لا ما يصحش! خليكي في بيت أهلك أحسن"!

في 2015 رحلت عن الكويت لمدة سنتين (إجازة علمية) لكتابة بحوث ما بعد الدكتوراه Post Doctorate Research أنهيت عقداً إيجارياً لأنني لم أرغب في دفع إيجار لسكن في الكويت وسكن آخر في بريطانيا لمدة سنتين، وعندما عدت في 2017 تكرر كابوس "المطلقة التي تبحث عن سكن" من جديد، إلاّ أن الأمر ازداد سوءاً، فقد تم رفضي عشرات المرّات من مؤجرين ليس فقط بسبب وضعي الاجتماعي كمطلقة، لكن ككويتية أيضاً، لأن الكويتي على حد رأيهم لا يدفع الإيجار، وقد ضاقوا ذرعاً بعد تجاربهم السيئة مع المستأجر الكويتي الذي يرفض إخلاء الشقة، ويرفض دفع الإيجار، ولا طائل من ملاحقته بالمحاكم، فتلك القضايا تستغرق سنوات وتكلّف المؤجر آلاف الدنانير. صرتُ مضطهدة في وطني التعيس من جانبين الأول لأنني مطلقّة، والثاني لأنني كويتية.

ناقشت زميلاً أكاديمياً لي، وهو من الأساتذة القدامى في الكلية، تحدثنا عن عدم دستورية ما يفعله هؤلاء المؤجرون، وذلك لأن المادة 29 من الدستور الكويتي تمنع التمييز بين الناس في الحقوق والواجبات، سواء كان ذلك التمييز بسبب الجنس، أو الأصل، أو اللغة، أو الدين. فأفاد الدكتور أنه اضطر أن يذهب للبناية السكنية التي رغبت أخته المطلقة أن تسكن فيها مع أبنائها وتم رفضها، ليجري نوعاً من الاتفاق الشكلي بينه وبين الحارس ويكون عقد الإيجار باسمه بدلاً من اسمها، رغم أن أخته طبيبة وامرأة مستقلة ومتمكنة مادياً وتكبره سناً.

السيدة نوره الشمري في يوم 14 مارس 2018 جلست عند مبنى البورصة في عاصمة الكويت وأمسكت لافتة كتبت عليها: "لا تقترب منيّ، وإلاّ ستنفجر معي، إذا كانت لديك أم، أو أخت، أو زوجة أو ابنة كويتية، بادر بتصويري وانشر قضيتي للعالم، أنا كويتية، نعم، إذاً أنا عاهر بحكم القانون" مبيّنة أن اضطهاد المجتمع لها قد أوصلها إلى هذا الحد من اليأس والتمرّد، إذ أنها تتعرض للاضطهاد من قبل المؤجرين الذين يرفضونها كمؤجرة هي وأبناؤها في بناياتهم، والدولة التي لا تلتفت لقضايا امرأة مثلها. في مقابلة شخصية لها بعد الحادثة قالت وهي تبكي أن المسألة ليست مادية، فهي قادرة على تأمين الإيجار، المشكلة هي نظرة المجتمع واضطهاده لها، ثم استدركت تتساءل: "لماذا أحمل جنسية هذا البلد وأقول أنني كويتية وأفتخر بوطني إن لم يكن لي أي حق فيه؟ أحقي الوحيد في هذا البلد أنني سأدفن فيه يوماً؟ أليس لي في هذا الوطن سوى حفرة سأدفن فيها يوماً من الأيام!؟" ثم افترسها البكاء تماماً عندما أضافت أن أبناءها كل منهم في مكان، أحدهم يسكن في بيت الجدة، والأخرى في بيت الخالة، لأنها غير قادرة على صف أسرتها في مكان واحد، والسبب؟ عدم تدخل الدولة في تجريم ما يمارسه المؤجرون من تمييز وعنصرية.

موقف السيدة نورة شجاع ومؤثر، لأن الشجاعة هي أن نتكلم عمّا يُخجلنا، عمّا يهزمنا، ويكسرنا، ويحطمنا، الشجاعة هي أن نتكلم عندما يأمرنا المجتمع بالصمت والرضى على الظلم الواقع علينا. الشجاعة هي أن نقف ونتكلم بالرغم من شعورنا بالضعف، والخوف من نظرة المجتمع القاسية، والأحكام المسبقة التي سيسبغها علينا من لا يعرف شيئاً عن معاناتنا، الشجاعة هي أن نستمر بالإيمان أن ما نسعى له هو فعلاً من حقنا بالرغم من الخزي والعار الذي يحاول المجتمع إلصاقه بنا. فردود أفعال المغردين على ما فعلته السيدة نورة كانت متفاوتة، هناك من اكتفى بـ "الله يعينها"، و "الله يفرّج عنها". وهناك من كتب أنها امرأة مجنونة. ومنهم من كتب أنها مريضة نفسياً وتحتاج علاجاً. وأخرى كتبت: عيب عليها تكتب اسمها واسم قبيلتها وأنها قد تسببت لهم بالعار، وأنه كان بالأحرى أن تصمت، وتدفن رأسها بالتراب. لأنه في المجتمع الكويتي لا يتم النظر للمشكلة ومعالجتها، بل يُلام ويُحاكم الشخص الذي يعبّر عن المشكلة ويكشف عنها. ما فعلته السيدة نورة من التهديد بالانفجار والتفجير ما هو إلا نتيجة صمتنا، نتيجة قُبحنا، نتيجة نفاقنا بالدين، نتيجة الكذبة التي نرددها في كل يوم بأن هذا البلد يأوي الكل، ويحمي الكل، ويحترم الكل، وليس فيه من هو محروم أو مظلوم.

عنصريتنا ضد المرأة وتهميشنا للمرأة هو سبب بقائنا في الدرك الأسفل من الحضارة والتحضر، لأن المجتمع بطبيعته لا يمكنه أن يعلو عن المستوى الذي ينظر فيه للمرأة.

أحد الردود في تويتر على وقفة السيدة نورة، كانت من أحد الرجال الذي ادعى أنه يملك بناية وللسيدة نورة شقة من دون إيجار إن رغبت بها. ردة الفعل هذه نبيلة بلا شك، وقد شكره العديد من المغردين عليها و دعوا له بالخير، لكن مشكلة السيدة نورة و مشكلة المطلّقات في الكويت ليست من الأمور التي تستدعي "الفزعة" كما تُسمى بالكويت، وليست من الأمور التي تستدعي شهامة رجل واحد أو اثنين أو عشرة، هي مشكلة مجتمع. السيدة نورة وغيرها من المطلقات لا يحتجن المعونة المادية بل يحتجن إنهاء التمييز والعنصرية ضدهن. يحتجن أن ينظر لهن المجتمع كبشر من دون تحقير أو مهانة.

أنا وابنتي جوري عائلة، نورة وأبناؤها عائلة، آلاف النساء الكويتيات المطلقات وأبناؤهن أيضاً عوائل. الأسرة الأحادية هي الأسرة المكونة من أحد الأبوين فقط دون الآخر مع الأبناء. قد لا نعكس الصورة التقليدية للعائلة التي تظهر عادة في "البورشورات" والدعايات "أم، أب، ابن وابنة". لكننا بالرغم من ذلك عائلة، لا يوجد عائلة أفضل من أخرى بسبب عدد أفرادها، أو النوع الجنسي لأفرادها، فالعائلة ممكن أن تكون مكونة من جدة وأحفاد، أو من أب وأبناء، وأعرف عائلة مكونة فقط من أخ وأخته قد مات عنهما والداهما.

قال لي أحدهم وهو أب لابنتين لا تزالان صغيرتين بالعمر أنه حالياً يبني بيتاً، وقد خصص شقّتين في الطابق العلوي، لعل الابنتين لا توفقان بالزواج فتعودان لبيت والدهما مع أولادهن، لذا خصص الأب سكناً لابنتيه كي لا تتعذبا في البحث عن مسكن وتتحمّلا قيمة الإيجار الباهظة في الكويت. كان الآباء في بعض الأسر ميسورة الحال يخصصن شققاً سكنية للأبناء الذكور، كي لا يضطر الابن لدفع الإيجار وهو في بداية حياته الزوجية حيث الأعباء المادية كثيرة وهو في بداية مشواره الوظيفي ومدخوله بسيط، ولكن وبعد أن تبيّن للآباء أن الإناث هن من يتضررن من طيش الأزواج، وبعد أن تفاقمت نسب الطلاق في الكويت، تغيرت المفاهيم عند عدد قليل من الآباء.

في حوار آخر مع زميل لي في الجامعة، دكتور شاب، قال لي أنه أيضاً مر بمشاكل وعوائق عندما بحث عن سكن بعد طلاقه، إلاَ أنه اصطدم بعائق آخر لم يحسب حسابه، فبالإضافة أن المؤجرين رفضوه لأنه رجل أعزب، فقد تم رفضه أكثر من مرّة بسبب لون بشرته السمراء.

شاب كويتي ثلاثيني وأعزب، يحكي لي أنه كان يسكن في بيت والده، وفي كل مرة تشتد الخلافات بينهما كان يقوم والده بطرده من البيت، يقول: "طُرِدتُ مراراً وتكراراً حتى قررت أنه من الأفضل لي أن أبحث عن سكن آخر وأرتاح، خصوصاً وأنني لست بطفل أو مراهق"، فهو شخص مستقل ومتمكن حيث أنه يدير شركته الخاصة. بعد أن بحث طويلاً ولم يجد أي مؤجر يسمح له في التأجير، طلب مساعدة موظف أجنبي لديه في الشركة، ليوقع عقد الإيجار بدلاً منه، فللأجنبي الأعزب حق السكن، أما المواطن الأعزب فمرفوض.

النظام الأبوي لا يضر المرأة فقط، بل يضر الرجل أيضاً. النظام الأبوي الذي يتمثل في وجود سلطة ذكورية عملاقة، متمثلة بحكومة مكونة في غالبيتها من رجال كبار في السن، تقليديين في التفكير، متشددين في الدين، لا يؤمنون بالتطور الاجتماعي، ولا يؤمنون بالتغيير، لديهم سلطات اتخاذ القرار من سن القوانين، وتحديد ما يجوز وما لا يجوز فعله اجتماعياً، هذه السلطة الذكورية تجثم على المجتمع بأكمله وتراقب: إن تفوّه أحدهم بكلمة ضد السلطة، سجنته. وإن تفوّه أحدهم برأي عن الدين، عاقبته. إن لبست المرأة لباس مخالفاً لما هو متعارف عليه، هددها بجهنم وجواز تحرّش الرجال فيها. من مصلحة هذه السلطة الذكورية العتيدة أن تسجن وتحاكم كل من يتكلم أو يتصرف بخلاف نظامها المتشدد المستبد، لأن التخويف والسجن طريقتها الوحيدة في الاستمرار والاستبداد. ومن مصلحة السلطة الذكورية أيضاً أن تجعل حياة المرأة المطلقة جحيما، لأن هؤلاء الرجال في السلطة جميعهم "ماسوجينيون"، مُهمِشون، مُضطهِدون للمرأة لا ينظرون لها كإنسان ذو حقوق وحريات، ولذلك فإنه كل ما ازدادت أحوال المطلقة سوءاً، ازدادت قدرتهم على التحكم بنسائهم والإساءة إليهن، فإن تجرأت زوجته بالتفكير بالطلاق هرباً من جحيم عشرته، رأت كم هو سيء وضع المطلقة، ورجعت عن قرار الطلاق، ورضيت بسوء عشرة زوجها لأنها ترى أنها فقط ستنتقل من جحيم الزوج إلى جحيم مجتمع ذكوري بائس.

ومن مصلحة هذه السلطة الذكورية أيضاً اضطهاد الرجل الذي لا يشبهها من حيث التفكير والميول الماسوجيني، الرجل الذي لا يرغب بالحياة التقليدية المتعارف عليها، الرجل الذي لا يضطهد المرأة، الرجل المثلي، الرجل النسوي الذي يؤمن أن للمرأة أيضاً حقوقاً وحريات، أن المرأة ليست تابعه له، الذي لا يشعر بوجوب الزواج في سن معيّن، أو تكوين أسرة، أو ارتداء الزي التقليدي، أو ارتياد الديوانيات. تكره السلطة الذكورية هذا الرجل وتحاربه (بالرغم أن تهميشها له لا يُقارن بتهميشها للمرأة) لأنها تراه كخطر على بقائها واستبدادها.

لماذا هو من الخطأ أن نقول للمطلقة "اذهبي إلى بيت أهلك، أو اسكني عند أهلك أفضل لكِ"؟

1. لأنه في الكثير من الأحيان، الأهل لا يكونون متعاطفين مع ابنتهم وأبنائها، وقد يسيئون لها وللأبناء.

2. لأن بيت الأهل قد يكون صغيراً وغير كافٍ لأم وأبناء خصوصاً وإن كان الكثير من الأخوة والأخوات لازالوا يعيشون فيه.

3. لأن المطلقة وأبناءها قد لا تكون لهم خصوصية في بيت الأهل.

4. لأن بيت الأهل قد يكون بعيداً جداً عن مركز عمل الأم ومدارس أولادها مما يصعب عليها التنقل في حياتها اليومية بأريحية.

5. لأن أسلوب الحياة في بيت الأهل قد يكون سلبياً ومختلفاً كثيراً عن الأسلوب الذي تريد الأم أن تربي عليه أبناءها.

6. قد يكون هناك عنف أياً كان نوعه (لفظي، نفسي، أو جسدي) في بيت الأهل، ولا تريد امرأة قد هربت من العنف أن تعرض نفسها وأبناءها له في بيئة أخرى.

7. لأن غياب الزوج لا يحرم المرأة من حق الاستقلال.

8. لأن المرأة حرّة ويجب أن نحترم حريتها، ولا يحق لأي أحد أن يقرر ما هو أفضل لها سواها هي.

المرأة الكويتية والمحاكم

أريد رجالاً! أحضري لي رجالاً!

محاكم الأحوال الشخصية في الكويت تكاد تنفجر من الكم الهائل لقضايا الطلاق للضرر، التي ترفعها المرأة التي قد ذاقت ذرعاً من كثرة عنف الزوج، سوء عشرته، خيانته، خسّته، عدم إنفاقه، بخله، وجشعه.

عندما تطلب المرأة الطلاق من زوجها لأنها لم تعد تطيق الحياة معه، ويرفض الزوج تطليقها، لها أن تطلب من القاضي تطليقها في دعوى الطلاق للضرر. لكن كما هو مبيّن في اسم الدعوى يجب على المرأة إثبات الضرر الواقع عليها. فإذا كانت تدعي أن الزوج يضربها أو يعنفها بالقول أو الفعل، فيجب عليها أن تحضر شهوداً ليشهدوا بصحّة ما تقول، وإن كانت تدعي الضرر بسبب عدم إنفاق الزوج عليها أو على الأبناء، أو سوء عشرته أو خيانته، أو عدم شعورها بالأمان معه بسبب سكره أو إدمانه، أو لأنه يأخذ أموالها جبراً، فيجب عليها أيضاً أن تثبت كل ذلك بشهادة الشهود.

لكن الأمر ليس بتلك البساطة. فقبل أن تستطيع المرأة أن ترفع دعوى طلاق للضرر يجب عليها أن تتوجه لإدارة الاستشارات الأسرية التابعة لوزارة العدل[10] ، حيث تقدّم الزوجة طلب الطلاق، تملأ استمارة، يحدد على أثرها موعد بين الزوجة المتضررة وإحدى الباحثات في الإدارة، تستمع الباحثة لأسباب الزوجة في طلب الطلاق، و تقدّم لها النصح والمشورة، ثم تستدعي الباحثة الزوج لتخبره أن زوجته تنوي رفع دعوى طلاق للضرر وتستدعيه للحضور لمعرفة مدى إمكانية التوصّل للصلح بينهما، فإذا رفض الزوج الحضور، أو حضر و تعذّر الصلح، يتم إحالة تقرير الباحثة إلى المحكمة ويتم تحديد جلسة لدعوى الطلاق للضرر. للقاضي الذي ينظر في الدعوى أن يأخذ بتقرير الباحثة أو أن يلتفت عنه، فالقاضي ليس مُلزماً بتقرير إدارة الاستشارات الأسرية.

[10] كانت المرأة سابقاً ترفع دعوى الطلاق مباشرةً في المحكمة، أما الآن وبسبب ارتفاع نسبة الطلاق في الكويت، صار هناك إجراء جديد، وهو تقديم طلب لدى الاستشارات الأسرية قبل مرحلة المحكمة. وسبب وضع وزارة العدل لهذا الإجراء الجديد هو سبب وقائي للحد من نسبة الطلاق، بحيث يحصل الزوجان من الإدارة على النصح والمشورة قبل الإقدام على خطوة الطلاق

ثم يطلب القاضي من الزوجة المتضررة إثبات الضرر الواقع عليها بشهادة الشهود، لكن حتى بعد إحضارها للشهود كي يؤكدوا أنها متضررة، للزوج أيضاً الحق في إحضار شهوده ليشهدوا بخلاف ما يدعيه شهود الزوجة، الأمر عادةً يستغرق شهوراً، أو سنة، وأحياناً يأخذ أكثر من سنة، خصوصاً إذا كان الرجل يُماطل فيطلب من المحكمة تأجيل الجلسة عدّة مرات لأنه لا يزال يبحث عن شهود، أو شهوده لم يتمكنوا من الحضور لسبب أو لآخر. ثم بعد إدلاء الشهود بشهادتهم، تقوم المحكمة بإحالة الطرفين إلى المحكّمين في إدارة تابعة لوزارة العدل، يتم تحديد حَكم للزوجة وحَكم للزوج، حَكم الزوجة يستمع لها ولأسبابها، ويكتب تقريراً يوضّح فيه ما إذا كان الضرر من الزوجة أم الزوج. وحَكم الزوج يفعل الشيء ذاته ويكتب تقريره، ثم يتم إحالة التقارير للقاضي. الأخذ بالتقارير من عدمه أيضاً يعود للسلطة التقديرية للقاضي، فله أن يأخذ بهما وله أن يلتفت عنهما. فإذا رأى القاضي تعارضاً بين التقريرين، أي أحدهما ينص على أن الخطأ من الزوجة والآخر ينص أن الخطأ من الزوج، أحال الأمر لحكم مرجّح يختاره القاضي من الإدارة التابعة للمحكمة، يكتب هذا الحكم المرجّح تقريره بعد الاستماع للزوجة والزوج، ويتم إحالة التقرير للمحكمة، وتقرير الحكم المرجح أيضاً لا يعد ملزما للقاضي. وبعد كل تلك الإجراءات يحكم القاضي إما بتطليق المرأة للضرر مع استحقاقها لكافة حقوقها من مهر، وعدة، ونفقة (العِوَض). أو برفض الدعوى إذا ما رأى أنه ليس هناك ضرر كافٍ. أو بتطليقها من دون "عِوَض" أي من دون ما تستحقه من مهر (إن كان هناك مهر مؤخر) ومن دون عدّة ونفقة، بل إذا ثبت أن الضرر منها، جاز للقاضي أن يأمرها برد جزء من المهر، أو كله.

ثم تأتي مرحلة الاستئناف، فإما أن تستأنف المرأة حكم محكمة أول درجة لأن القاضي رفض تطليقها، فتأتي لمحكمة الاستئناف وتحاول ثانيةً إثبات الضرر الواقع عليها من الزوج. أو قاضي محكمة أول درجة قام بالفعل بتطليق المرأة لكن من دون عِوَض، فتضطر المرأة للمطالبة بالعِوَض في مرحلة الاستئناف. أو أن الزوج هو الذي استأنف اعتراضاً على حكم المحكمة بتطليق المرأة للضرر. قاضي الاستئناف إما أن يؤيّد حكم قاضي أول درجة أو يرفضه، وغالباً ما يؤيّد قاضي الاستئناف حكم أوّل درجة إذا حكم بتطليق المرأة لأن الطرفين قد وصلا بعد كل هذه المدة إلى مرحلة تستحيل معها العشرة ثانيةً، لكن ما يحصل أحياناً في الاستئناف هو تأييد حكم محكمة أول درجة بالطلاق، ورفضه في الجزئيّة التي تعطي المرأة العِوَض الذي

تستحقه نتيجة للطلاق للضرر، ويكون حكم محكمة الاستئناف في ذلك نهائياً حيث أن المحاكم الكويتية توقفت عن إحالة دعاوي أحوال الشخصية لمحكمة التمييز (المحكمة العليا التي تأتي بعد مرحلة الاستئناف عادةً). وتوقف المحاكم الكويتية عن إحالة دعاوي الأحوال الشخصية للتمييز فيه ضرر كبير على المرأة وغالباً ما يبخس حقها.

هؤلاء الشهود الذين يقع على عاتق الزوجة إحضارهم ليثبتوا للمحكمة أنها متضررة، هم عادةً من أهل الزوجة ومعارفها، أقاربها أو صديقاتها. لكن المشكلة تكمن فيمن يعلم عن مثل هذه التفاصيل الخاصة والمحرجة عن حياة الزوجة المتضررة. يجب على الشاهد أو الشاهدة معرفة معلومات خاصة جداً عن سوء العشرة الذي تتعرّض له الزوجة، عن بخل الزوج، عن الضرب والسب اللذين تتعرّض له الزوجة. وعلى الرغم أن المحكمة تأخذ بالشهادة السمعية، أي أن المحكمة لا تشترط أن يكون الشاهد قد رأى بعينه الضرب، أو عدم الإنفاق، بل بمجرد أن يكون الشاهد قد سمع عن الضرر الواقع على الزوجة من الزوجة ذاتها، فشهادته السمعية هذه تؤخذ بعين الاعتبار وتعتبر مقبولة لدى المحكمة. ومع ذلك تجد الزوجة عادةً حرجاً في إيجاد شهود على استعداد للحضور للمحكمة والوقوف أمام القاضي للإدلاء بالشهادة، خصوصاً إن كان الضرر الواقع عليها يتعلّق بالحياة الجنسية للزوجين. ففي إحدى القضايا التي مرّت عليّ عندما كنتُ لاأزال محامية، أرادت الزوجة الطلاق للضرر لأن زوجها يجبرها على المضاجعة الجنسية أثناء الدورة الشهرية، ويجبرها على المضاجعة من دُبُر. في قضيّة أخرى كانت امرأة تطالب بالطلاق للضرر مع أحقيّتها بالمهر كاملاً، بالرغم أن زواجها لم يتجاوز الشهر، بينما الزوج يدّعي عدم أحقيّتها للمهر لأنه يدعي أنه لم يدخل عليها، ولم تحصل بينهما خلوة شرعيّة. ولكي تستحق الزوجة في هذه القضيّة المهر كاملاً كان عليها أن تأتي بشهود من أهلها؛ والدتها، والدها، أختها، أو أخيها لِيشهدا أنه بالرغم أن الزوج لم يجامعها في الفرج إلاّ أنه قد اختلى بها وحصل بينهما ما يسمى بالشرع "المُفاخذة". كانت تلك الفتاة صغيرة وغير مطلّعة لدرجة أنها لم تفهم معنى هذا اللفظ عندما سألها القاضي عما إذا كان زوجها قد جامعها أو أنه فقط حصل بينهما مفاخذة. ثم بعدما شرح لها القاضي معنى الكلمة وأفادت بأنه فعلاً حصل ذلك، قال لها القاضي أنها يجب أن تحضر شهوداً من أهلها لإثبات ذلك. بعدما خرجنا من غرفة المداولة قالت لي وهي مستاءة "كيف سأحضر أبي وأمي وأشقائي ليشهدوا على شيء مثل هذا؟"

إحضار شهود ليشهدوا حتى وإن كانت مجرّد شهادة سمعية أمر مرهق معنوياً ونفسياً للمرأة. ففي المجتمع الكويتي تُلقّن الفتاة من عمر صغير جداً ألاّ تبوح بأي معلومة خاصة بها لأي شخص، أن البيوت أسرار، أنه من الخطأ والعيب والحرام أن تقول للناس عن المشاكل التي تُعاني منها في بيتها مع أهلها سواء كانت هذه المشاكل مادية أو معنوية. كما أن الفتاة عادةً ما يكون لها بضعة صديقات في مراحل الدراسة، لكنها بمجرّد أن تعمل، تتزوّج، وتُنجب تفتر صداقاتها وتضمر بسبب حلول مسؤوليّات جديدة في حياتها تقضي على كل وقت فراغها، وتجد من الصعوبة المحافظة على صداقات حميمة، فكيف لها أن تتواصل معهن وتطلب من صديقة أصبحت علاقتها بها فاترة، أن تحضر للمحكمة معها لتشهد على سوء زوجها؟ خصوصاً أن هناك شعوراً اجتماعياً متعارفاً عليه في الكويت أن ذهاب المرأة للمحاكم فيه نوع من قلّة الحياء، أو جراءة مكروهة في المرأة. حتى أنه من الأمور التي تتباهى بها بعض الأسر في الكويت هي أنهم لم يدخلوا المحاكم أو المخافر قط، ويقصدون في ذلك أنهم يتمتعون بدرجة عالية من النزاهة والاستقامة والطهارة والعفة.

لكن الصعوبة لا تكمن فقط بالإدلاء بالشهادة السمعية بأمور حرجة وخاصة جداً تفضّل المرأة عدم البوح بها لأي شخص، بل الصعوبة تكون أيضاً في إيجاد الشهود. فالقانون الكويتي يشترط شاهدين من الذكور، أو إذا لم يتوافر الذكران، فيمكن الاستعانة بشاهد ذكر وشاهدتين من الإناث. وذلك حسب الآية القرآنية "وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ" من سورة البقرة، تفسير الآية هو أن المرأة عقلها ضعيف مقارنةً بالرجل وأنها تنسى كثيراً، وبالتالي عقل امرأتين يعادل عقل رجل واحد، وإن نسيت الواحدة منهن، فالأخرى تذكرها. بالطبع هناك ظلم وتحقير شديد في هذا التفسير للمرأة وعقلها. لكن ما يحصل غالباً أن المرأة لا تجد تضامناً من أقاربها الذكور، قد يرفض الأب الحضور، أو قد يكون الأب متوفياً. فد يرفض الأخ الحضور، أو قد لا يكون هناك أخ، أو قد يدعي الأخ أنه على صداقة مع زوج أخته ولا يريد إتلاف هذه الصداقة. قد يمتنع زوج أختها بأنه لا يرغب في التدخل في أمور شخصية، ولا يتصوّر أن تطلب المرأة من زميل لها في العمل مثلاً للحضور معها إلى المحكمة لإثبات سوء زوجها لوجود حرج في ذلك. فضلاً أن وضع المرأة التي تُحضر شاهداً صديقاً لها سيكون أمرها مشبوهاً أمام القضاء، فالمرأة الطاهرة النزيهة لا تكوّن صداقات مع ذكور وفقاً لمعايير المجتمع الكويتي.

كثيرة هي القضايا التي عملتُ بها وقالت لي فيها المرأة أنها بكل بساطة ليس لديها أحد، أن الذكور في أسرتها قد أداروا ظهورهم لها في محنتها، وأنها لا تملك سوى أمها، أختها، أو صديقة لها استطاعت التمسّك بها بالرغم من المشاغل والتحديات.

في إحدى القضايا أكدت لي الموكلة أنها لم تنجح في إقناع أخيها الوحيد بالحضور، وبسبب وفاة والدها، فهي لا تملك أي شخص آخر. وعندما اقترب موعد الجلسة ألحّيت عليها أن تجد شاهداً ذكراً بأي وسيلة وإلاّ لن يكون حكم القاضي في مصلحتها، لكنها أكدت لي مراراً وتكراراً أنها لا تملك أحداً، وأنه ليس لديها سوى أختان وصديقتان، فهل تحضرهن؟ هل سيقبل القاضي شهادتهن؟ كنتُ أعلم أن القاضي سيرفض شهادة أربعة نساء، بالرغم أن أحد القضاة في المحكمة المدنية (وليس في الأحوال الشخصية) أخذ بشهادة أربعة نساء في قضية مدنية سابقة حضرتُ فيها. لم أرغب أن يرفض القاضي الدعوى لعدم وجود شهود، وتساءلت ما إذا كان القاضي سيرى أن المدعيّة جادّة في دعواها عندما يكون معها أربعة نساء، وأنها على الأقل حاولت، وأنا بدوري سأشرح للقاضي بأن المدعيّة حاولت مراراً وتكراراً إحضار أخيها الوحيد لكن من دون جدوى. لكن عندما وقفت أمام القاضي ومعي المدعية، وقلنا للقاضي أن معنا شهود وهن أربعة نساء، غضب جداً وقال أن القانون يلزمنا بإحضار ذكر واحد على الأقل، أخذنا أنا والمدعية بشرح الظروف: أن أخاها الوحيد يرفض الحضور، أن والدها متوفٍ، أنه ليس هناك رجل آخر. لكن القاضي غضب جداً وأخذ يصرخ **"أحضري لي رجالاً أريد رجالاً وإلاّ سوف أرفض الدعوى، أحضري لي رجالاً، أريد رجالاً!"**

من أين نأتي للقاضي بذكر إن لم يكن هناك ذكر؟ أتستطيع المرأة أن تجبر والدها أو أخاها للوقوف معها إن كانا يرفضان ذلك؟ ولماذا لا يتم الاستماع لشهادة الإناث؟ لماذا تُحقّر المرأة حتى في شهادتها لمساعدة أختها المرأة، لماذا تُسلب حقوقها عندما تُطالب بها، ويُسلب منها صوتها عندما تريد أن تشهد على تلك الحقوق. إن كان الشرع قد ساوى شهادة امرأتين بشهادة رجل واحد، فلماذا هو مخالف للقانون إحضار أربعة نساء للشهادة؟ كل تلك الإجراءات فيها إجحاف للمرأة، فيها ضياع لحقوقها وإنقاص من عقلها وإرادتها. وكما شاهدتُ مراراً وتكراراً من واقع عملي كمحامية أن المحاكم متخصصة في تطبيق القوانين، وليس في تحقيق العدالة.

الرجل المغشوش!

في إحدى قضايا الطلاق التي مرّت عليّ أثناء عملي بالمحاماة. كان الرجل يطالب المرأة برد المهر إليه باعتبار أنه لم يتحقق دخول شرعي بينهما، وكانت المرأة (موكلتي) ترفض ذلك تماماً لأنها أصرّت وأكدت أنه قد دخل بها دخولاً شرعياً وأنها نتيجةً لذلك تستحق المهر كاملاً.

ما أثار غضبي هو ما قاله الرجل عن المرأة عندما أحال القاضي الأمر للمُحكّم[11] بالرغم أن دعوى الطلاق للضرر كانت مرفوعة من قبل الزوجة التي تضررت بعد مرور أشهر من زواجهما ولم يجهّز الزوج لها مسكن زوجية (بقيت في مسكن أهلها) وامتنع عن الإنفاق عليها. إلاّ أن الزوج أفاد للحكم أنه متضرر أيضاً، مدعياً أنه تفاجأ بعد زواجه من المرأة أنها كانت مطلّقة مسبقاً! كان الزوج يدعي خداعها له بالرغم أنه يعلم أنها كانت مطلّقة، ولا يتصوّر أبداً في مجتمع صغير ومحافظ ومتربّص بالمرأة دائماً كالمجتمع الكويتي أن يُقدم الرجل على خطبة امرأة من دون السؤال عنها في كل مكان! بل وحتى عند حضور المأذون وتوقيع العقد، لابد أن تُذكر حالة الزوجة والزوج (أعزب، بكر، متزوج، مطلقة .. وهكذا).

ثم أضاف الرجل أنه تفاجأ بأن زوجته لديها "وشم" على فخذها الأيسر! وأنه لو كان يعلم أنها قد تجرأت على وضع وشم على جسدها لما تزوجها - مبيناً أن وضع الوشم هو دليل على وقاحة أو انحطاط من قِبل المرأة وأنها لو كانت امرأة محترمة وعفيفة لما فعلت ذلك.

من الواضح طبعاً أن ذلك الزوج كان فقط يريد أي طريقة لإثبات تضرره، وأنه يريد بأي طريقة استرداد المهر من زوجته لكي يطلقها من دون عِوَض (حقها بالمهر والعدّة). لكن ما يغضبني هو درجة الوقاحة والرّخص التي يصل إليها بعض الرجال لحرمان المرأة من حقها، إلى درجة أن ذلك الرجل أفاد أنه تفاجأ أيضاً أن زوجته لا تصلي، ولو كان يعلم ذلك مسبقاً لما تزوجها! بينما تؤكد لي المرأة أنه كان يعرفها قبل

[11] بعد رفع دعوى الطلاق يقوم القاضي بإحالة كلا الطرفين إلى إدارة المُحكّمين، ويتم تخصيص حكم لكل من الزوج والزوجة، حكم الزوجة يستمع لها ولأسبابها ويكتب تقريرا عن من يراه المسؤول عن المشكلة و يقدم تقريره للقاضي، و حَكم الزوج يفعل الشيء ذاته، للقاضي أن يأخذ برأي المحكم وله أن يلتفت عنه طبعاً، لكن يظل التقرير له أثر على قناعة و حكم القاضي

الزواج ويعرف شخصيتها وأنها لم تمثّل دور المتدينة أو توهمه أنها ملتزمة دينياً، وحتى أمر الوشم يعرفه، بل أن تحررها كان سبب اختياره لها وإعجابه بها لأنه هو أيضاً متحرر وغير ملتزم دينياً.

ضحكت موكلتي ضحكة ساخرة بعد أن قرأنا تقرير محكّم الزوج و أقواله المدوّنة في التقرير، وقالت لي: "لو كنت أعلم أنه سيصل لهذه الدرجة من الانحطاط، لقلت لمحكّمي أنني زوجة مغشوشة لأنني عندما تزوجته كان يبدو لي أنه نحيفاً، لكن بعد زواجنا، بعد أن رأيته من دون ملابس اتضح لي أنه عمل بعض عمليات التخسيس، حيث أنه كان سميناً جداً وبسبب عمليات التخسيس خسر الوزن لكن ظلّ جلده مترهلاً، لديه أثداء طويلة ممطوطة تنزلق من صدره حتى بطنه، و زوائد على جانبيه و ظهره مرتخية للأسفل، وبطنه الذي كان كرشاً عملاقاً، الآن هو عبارة عن طبقات وطبقات من الجلد الذي يسقط من سرواله عند تجرّده من الملابس! لكنني - أكملت موكلتي - لم أشأ أن أصل لهذه الدرجة الرخيصة من اللوم و ادعاء دور الضحية، أردت فقط حقي.

انعدام الرجولة وانتشار الذكورية (1)

وقفتُ بقرب المصعد، في أحد ممرات الدور الثامن من محكمة الرقعي القديمة الرثة، أنتظر وصول الموكلّة من السجن، لأذهب معها إلى غرفة وكيل النيابة الذي طلب استدعاءها للتحقيق. الدور الثامن من المحكمة مخصص لمكاتب وكلاء النيابة. الجدران مصفرّة متسخة تشوهها الخدوش والشقوق وآثار أحذية سوداء! هل هناك من يمشي على الجدران؟ ثم فكرت أنها قد تعود لأولئك الذين يتعبون من الانتظار في الممرات، فيسندون ظهورهم للحائط، يرفعون قدماً للخلف، ملصقين قاع الحذاء بالجدار ليرتاحوا قليلاً، لأنه لم يكن هناك أية مقاعد للجلوس والانتظار، لكن آثار الأحذية كثيرة ومنتشرة في كل مكان، وكثير من دمغات الأحذية الوسخة تشير للأعلى لا الأسفل!

رائحة الحمامات الكريهة مختلطة برائحة وجبات إفطار الموظفين من كُتّاب، ووكلاء نيابة، وعمّال نظافة، صمّون البيض والجبن والفلافل التي تثير الغثيان، تتصاعد مع أدخنة السجائر الخانقة، ولازالت الساعة التاسعة صباحاً، ترى كيف يكون الأمر في نهاية يوم متعب وطويل؟

انفتح باب المصعد وظهرت الموكلة. تفاجأت أن من يرافقها من مركز الحبس رجل وليس امرأة، ومعهما سجينان آخران كلاهما ذكور. بالرغم أنه كان من المفترض أن السجينة الأنثى ترافقها امرأة. استفسرت عن الأمر، فردّ عليّ المرافق أنه لم تكن هناك مرافقة أنثى متوفرة في ذلك اليوم، وبما أنه كان سيحضر السجينان الآخران، فقرر إحضار الفتاة معهم أيضاً. أردت أن أقول بأنه لا يصح ذلك، لكنني لم أفعل، لا أدري ما إذا كنت قد خشيت من إحداث ضجة غير مبررة، أو أنني خشيت أنه فعلاً يجوز له إحضارها مع السجينين الآخران، وأكون أنا المخطئة.

أخذ المرافق السجينين الذكرين إلى غرفة مخصصة، القيود التي تكبّل أرجلهما تضمن عدم هروبهما. اتجهنا أنا وهو والفتاة إلى غرفة وكيل النيابة، وجهها كان شاحباً، مُتعباً، وقد قالت لي أنها لم تنم منذ يومين.

في الغرفة الصغيرة بجدرانها الصفراء لم يكن هناك سوى مكتب ضخم طاغٍ على مساحة المكتب الكئيب، يجلس خلفه وكيل النيابة، بجانب المكتب كرسي يجلس عليه الكاتب الذي كان يلبس ملابس رياضية (سبورت)، (تي شيرت) فسفورية اللون، بنطال رمادي (ترينغ)، وقبعة (كاب)، وسلسلة فضية حول رقبته! في زاوية المكتب كانت هناك خزانة صغيرة خالية تماماً، ومقابل المكتب أريكة من الجلد الأسود تكفي لشخصين، حيث جلست أنا والموكلة. بدا على المُرافق أنه يعرف وكيل النيابة والكاتب جيداً، سلامهم كان حاراً كالأصدقاء. سأله وكيل النيابة، ساخراً، ضاحكاً، واثقاً، مستخفاً بمركزه، والمكان الذي هو فيه، والأشخاص الموجودين:

"ها.. يقولون تزوجت الثانية؟"

"لا هاذي الثالثة"

"كفو والله كفو، رجّال"

ضحك الثلاثة ضحكاً عالياً صاخباً مستهتراً كالذي من الممكن أن يحصل داخل الديوانيّات، أو المقاهي القديمة الوسخة التي يكون روّادها فقط من الذكور، وأعطاهُ الكاتب علامة الصفقة العالية باليد (هاي فايف)، وقال له: "يلاّ، ربّعهم"، أي أضف إليهم زوجة رابعة!

لا، وأزيدك من الشعر بيتا " قال المرافق "الثالثة هي التي خطبتني"!

"سأل وكيل النيابة باستمتاع شديد: "ها، شلون؟"

"فردّ المرافق متفاخراً: "إي والله، هي قالت لي، أبيك، أبي أتزوجك"

"زلم والله زلم" كان رد وكيل النيابة. وكرر الكاتب تبريكاته وإعجابه، وسط الضحك وعدم المبالاة

اقشعر بدني، شعرتُ بالغثيان. ماذا عساي أن أقول؟ إلى أين أوجه نظري؟ لا أستطيع حتى أن أنظر لوكيل النيابة وأطلب منه أن يبدأ التحقيق؟ هل يعقل ما قد حصل للتو؟ لم أستوعب كم كان الموقف مخزياً ومقززاً،

هل يعقل أن يدور مثل هذا الحوار المنحط في مكتب وكيل نيابة؟ هل من المعقول أن يكون شخص مثقف ومتعلم ومتخرج من كلية الحقوق وحاصل على معدل عالٍ، وتم اختياره من بين المئات بهذا المستوى من الأخلاق؟ يتحدث بمثل هذا الأسلوب؟ في مكان عمل من المفترض أن يكون محترماً. أهذه نتيجة تدخل الواسطة في اختيار وكلاء النيابة أم أن الذكور فعلاً وصلوا لهذا المستوى من انحدار الذوق وانعدام الإحساس. اسم عائلته قبيلة معروفة، أناقته تدل على أنه يحب الأشياء الثمينة، سجادة الصلاة الموضوعة على حافة الأريكة التي أجلس عليها تدل على أنه يصلي، أو على الأقل أنه على علم بتعاليم الدين. لكن إذا كانت التربية قد فشلت، والتعليم قد فشل، والدين قد فشل في تكوين الرجل ما الذي سينجح؟

خرج المرافق، وبدأ وكيل النيابة يتحدث بعنجهية وكبرياء:

"أعطيني وكالتكِ أستاذة، وبطاقة المحاماة"

أخذهم مني ورماهم بشدّة على الكاتب، وأمره أن يقوم بتصويرهم

التفت للفتاة بازدراء: "ها شيماء، اشلونج؟ زينة؟ متعاطية مرّة ثانية ها! أبوج اللي مبلغ عنج، تدرين؟"

أغاظتني نبرة صوته، لم ترد شيماء، هزّت رأسها بالنفي فقط. كانت تنظر ليديها بعينين شاخصتين مرهقتين، وجهها حزين كئيب، جسدها نحيل جداً، جسد مريض ومُتعب. أحزنني منظرها، أحزنني الموقف، فتاة جميلة رقيقة، متعلمة وصغيرة في السن، كيف وصَلَتْ إلى هنا؟

تفاجأت عندما بدأ وكيل النيابة بإشعال سيجارة، ثم قام الكاتب بإشعال سيجارته أيضاً!

أردت أن أقول شيئاً، أردت أن أعترض. أردت أن أطلب منه أن يتوقف عن التدخين، انتقلت عيناي بسرعة منه إلى الكاتب، ثم إلى وكيل النيابة مرّة أخرى. لا أدري ماذا أقول، هل أقول: لو سمحت أستاذ هل ممكن أن تتوقف عن التدخين؟ أو أقول لو سمحت أستاذ أنا أعاني من مرض الربو ودخان السجائر يؤذيني؟ (بالرغم أن آخر نوبة ربو أصابتني عندما كنتُ في الخامسة عشر من عمري). هل أقول أنه ليس من المهنيّة أن يدخّن أثناء التحقيق في مكتب صغير مغلق وخصوصاً بوجود نساء؟ هل أكون صارمة في نبرة صوتي؟ غاضبة؟ جادة؟ أم مبتسمة متسامحة؟ شعرت بضيق شديد، لم أقُل شيئاً حتى الآن! إن كنتُ سأعترض فيجب أن أتكلم الآن، إذا أجّلت اعتراضي أكثر سيكون الأمر غريباً وغير طبيعي! ثم نظرت إلى شيماء.

لازالت تحدّق بيديها. هل إذا طلبت منهما الإقلاع عن التدخين سيطلقان ضحكة ساخرة ويقولان "هاذي تتعاطى" قاصدين بازدراء أنها تستنشق ما هو أسوأ بكثير من الدخان فلماذا يراعونها. وماذا عنّي أنا؟

خلال هذه البرهة التي أثرتُ فيها أكثر من طريقة في عقلي لأطلب منهما الإقلاع ولم أفعل، سأل فيها وكيل النيابة شيماء إذا كانت تتعاطى، فقالت لا. سجّل الكاتب. فقال لها أن والدها طلب منهم إحالتها إلى مركز إعادة تأهيل المدمنين لكي تتعالج، وأنه أفاد بأن ابنته تتعاطى ويريد لها أن تتعافى. ردت شيماء وقالت أنها لم تتعاطَ منذ زمن وأنها مستعدة لإجراء أي تحليل لإثبات ذلك. وأنها بالفعل أجرت تحليلاً قبل يومين لتثبت لوالدها أنها لم تعد تتعاطى. كانت نتيجة تحليل شيماء في ملفي، أخرجتها ومررتها له، فضحك وكيل النيابة ساخراً "تحليل بعيادة خاصة؟ يكتبون لج إللي تبين". فكرَّرَت شيماء أنها مستعدة لعمل أي تحليل آخر في مركز إعادة التأهيل لتثبت خلو جسدها من أية مواد.

وكيل النيابة: اشكثر صارلج من تعاطيتي آخر مرّة؟

شيماء: ما أدري... أشهر

وكيل النيابة: كم شهر يعني؟

شيماء: ثلاث أو أربع شهور

طلب من الكاتب أن يثبت كلامها، وفي هذه اللحظة دخل المرافق مرّة أخرى ليأخذ شيماء. طلبت شيماء من وكيل النيابة أن لا يحبسها، طلبتُ أنا منه إطلاق سراحها لأنها لم تتعاطَ منذ شهور كما أكدت وأنها مستعدة لعمل تحاليل لإثبات ذلك. بدأ المرافق ووكيل النيابة يؤكدان لي أنها لن تُسجن بل فقط سيتم إيداعها في مركز المدمنين لتتعافى. توسلّت شيماء أن لا يودعوها في المركز وأنها تكره ذلك المكان حيث يعاملون المدمنين أسوأ معاملة وأنها فقط تريد العودة للبيت. ردّ وكيل النيابة بأنها إذا ذهبت للمركز وعملت التحاليل وفعلاً كانت نتيجتها سلبية فسيسمحون لها بالعودة للبيت.

حاولتُ طمأنتها عندما مشيت معها والمرافق إلى "الأصنصير" وأنا لا أعرف مصيرها. خرجتُ من المحكمة أشعر بالتعاسة، قدماي ثقيلتان، قلبي متعب. تتردد في ذهني ضحكاتهم الدنيئة، كلماتهم البذيئة، سلوكهم المنحط.

انعدام الرجولة وانتشار الذكوريّة (2)

وقفتُ أمام القاضي في غرفة المداولة. ووقف أحد موكّلي مكتب المحاماة الذي كنت أعمل فيه. طليقته قد رفعت عليه دعوى نفقة أطفال بعد أن تركها هي وأبناؤها الثلاثة منها من دون نفقة ولا مساعدة مادية، وتزوّج من أخرى وأنجب منها طفلين آخرين.

لا خيار لي في الحضور معه لأنه موكل للمكتب، لكنني أكره بشده هذا النوع من القضايا، حيث يأتي ذكر أحمق ويكذب على المحكمة بعد أن حلف اليمين بأنه فقير ولا يملك الإنفاق على أبنائه! لماذا جئت بهم إن لم تكن قادراً على الإنفاق عليهم؟ ولماذا تتزوج من أخرى وتنجب المزيد من المتاعب والقضايا إن لم تكن قادر على الإنفاق على الذين أتيت بهم من الأولى؟ كان رجلاً سميناً جداً، ضخماً، بَشِعاً، ذو وجه مزعج، وشخصية منفرّة. وقد أحضر معه شهوداً من أهله (والده وشقيقه) لكي يشهدا معه بأنه فعلاً غير قادر على الإنفاق! كلاهما على استعداد أن يشهدا زوراً بعد حلف اليمين أن هذا الرجل الأربعيني، البدين، الذي يكاد كرشهُ العملاق أن يمزّق دشداشته، غير قادر على الإنفاق على أولاده الذين تتراوح أعمارهم بين الخمس والعشر سنوات. كنتُ أقف هناك مغتاظة، كارهة لوجودي كعون لمثل هؤلاء.

القاضي: أحمد، ليش ما تنفق على أولادك؟

أحمد: ما أشتغل ما عندي راتب!

القاضي: ليش ما تشتغل؟

أحمد: بحثت عن وظيفة، لكنني لم أجد شيئا!

القاضي: المحكمة طلبت حضور زوجتك في الجلسة السابقة وسألناها ما إذا كان عندك مصدر دخل، وقالت، وأكد الشهود الذين أتوا معها، بأنك تملك صالوناً بالسالمية ومعهد تدريب أيضاً في السالمية!

أحمد: لا والله يا حضرة القاضي، لا أملك شيء!

القاضي: أحمد (وقد احتدت نبرة صوته) يعني عمرك ما اشتغلت، شلون عايش؟

أحمد: كنت موظف وبعدين استقلت والحين ما اشتغل

القاضي: شكثر صار لك من دون وظيفة؟

أحمد: (يفكر) ثلاث سنوات

القاضي: ثلاث سنوات من غير دخل! (الدهشة وعدم التصديق في نبرة صوت القاضي) اشلون عايش؟ شلون تصرف على زوجتك الحالية وأولادك منها؟

أحمد: زوجتي هي اللي تصرف عليّ وعلى أولادنا

القاضي: (بعد برهة صمت نظر فيها إليه بدهشة واستغراب وبعض الإحتقار) أولادك من طليقتك لهم حق عليك، أنت ملزم فيهم و بمصروفاتهم

أحمد: أُمهم تشتغل وراتبها زين

القاضي: إنت أبوهم لازم تنفق عليهم، هذا وفق الشرع والقانون. أحضرت شهود؟ ناد الشاهد الأوّل، والدك

(دخل الشاهد الأول، والد أحمد)

القاضي: قول والله العظيم أقول الحق ولا أقول غير الحق

(بعد أن حلف اليمين، وسأله القاضي ما علاقته بالمدعى عليه أحمد، وأفاد بأنه والده)

القاضي: أحمد موظف؟ أم عنده أعمال حرّة؟ ماهو مصدر دخله؟

والد أحمد: ما يشتغل وما عنده مصدر دخل

القاضي: شلون عايش؟ منو يصرف عليه وعلى زوجته وأولاده؟

والد أحمد: زوجته تصرف عليه وعلى أولادها منه

(نادى القاضي الشاهد الثاني، شقيق المدعى عليه، وحلّفه اليمين، وسأله عن علاقته بأحمد، فأفاد أنه شقيقه)

القاضي: أحمد أخوك أين يعمل؟ ما هو مصدر دخله؟

شقيق أحمد: لا يعمل، وليس لديه مصدر دخل

القاضي: كيف يصرف على نفسه وزوجته وعياله؟

شقيق أحمد: زوجته تصرف عليه وعلى أولادهم

.....

أحمد يملك مصدر رزق (صالون ومعهد تدريب) لكن محل تجارته غير مسجّل باسمه بل باسم والدته حتى إذا أرادت المحكمة التأكد من صحة كلامه باستخراج معلومات عنه في الجهات المختصة يظهر بأنه لا يعمل في أي مكان ولا يملك شيئاً، أرى الكثير من هذا النوع المخجل من البشر، مستعد أن يكذب، أن يشهد زوراً، أن يأتي بأهله ليشهدوا زوراً معه، على أن يؤدي دوره كرجل، كأب ويُنفِق على أولاده. تذكرتُ طليقي بعد أن توقف عن أداء النفقة التي اتفقنا بعد الطلاق أن يؤديها لابنته، اضطررت لرفع دعوى. دافع محاميه عنه مدعياً أنه غير قادر على أداء النفقة لأن لديه أولاداً من زوجته الجديدة وكذلك لديه مسؤوليات مادية كثيرة، منها أنه يتبرع بمبلغ شهرياً لجمعية خيرية. ضحكتُ كثيراً على غبائه وحمدت الله كثيراً أنه خلصني منه، وفرحت بحكم المحكمة الذي أنصفني بنفقة أكبر من التي كان يدفعها لي ودياً قبل أن يمتنع، وكتب القاضي في حكمهِ معلقاً على نكتة التبرع لجمعية خيرية: "كان من الأولى أن يؤدي المدعى عليه نفقة ابنته بدلاً من التبرّع لجهة خيرية".

انعدام الرجولة وانتشار الذكوريّة (3)

كنتُ في محكمة المهبولة، أكثر الأماكن في العالم بؤساً. محكمة المهبولة، ليست محكمة بالمعنى الصحيح، بل مجموعة من العمارات السكنية التي تحيط بها القمامة، كل بناية مكوّنة من عدة أدوار، وفي كل دور عدد من الشقق. والشقق ذاتها هي قاعات التقاضي ومكاتب الموظفين الإداريين. في الكويت حيث لا وجود لتخطيط سليم، أو قرار صائب، يتم تحويل بنايات سكنية، في منطقة سكنية مكتظة، لا تحوي حتى على مواقف للسيارات إلى محاكم!

وقفتُ في الدور الخامس من المحكمة الكلية، حيث يوجد ممر بين كل قاعة (أو شقة وفقاً للتخطيط الأصلي للمبنى). كنتُ أنا وعدد هائل من الناس: محامون، مندوبون، رجال أمن، والمتقاضون، ننتظر حاجب الجلسة ينادي على رقم قضايانا، لندخل غرفة المحكمة ونقف أمام القاضي، ولأن كانت هناك فقط خمسة كراسٍ و عدد هائل من الناس، فأغلبية الأفراد كانوا واقفين.

لاحظت من بين الناس (ولم يكن من الصعب ملاحظتهم) امرأة تنتظر دورها وتنظر للأرض خوفاً وخجلاً، وتغطي وجهها بنظارات شمسية كبيرة، ورجل يبدو وكأنه زوجها يخاطبها بأسلوب فيه الكثير من التحقير والازدراء! كان يردد ذات العبارات بعنف و حِدّة واضحة للجميع: "يلاّ امشي جدامي"، "يلاّ ردي البيت "وياي، يلاّ خلصينا"، "يلاّ جدامي"، "يلاّ عن الخرابيط.. يلاّ"

كلاهما بدا في الأربعين من العمر، وكانت المرأة لا ترد عليه، بل تنظر للأرض فقط، وتحاول الابتعاد عنه قليلاً لكن بسبب الزحام، وبسبب ضيق المكان لم تستطيع الفرار منه.

بالرغم أنني كنت خائفة، إلاّ أنني لم أستطع الوقوف، بلا ردّة فعل. معاملتهُ الدونية لها وطريقتهُ في تحقيرها ودفعه لها لتترك المحكمة، حيثُ بالتأكيد جاءت للمطالبة بحق من حقوقها، جعل دمي يغلي غضباً، الكل كان يسمع ويرى ما أسمعه وأراه أنا، ولم يتدخل أحد بالرغم من وجود الكثير من الرجال. اتجهت إليهما وخاطبتها هي أولاً:

"أختي، هل هذا الرجل يضايقكِ؟"

(رفعت رأسها باتجاهي، لكن لم ترد، من شدّة الخوف والحَرَج)

فخاطبتهُ هو:

"هل ضايقتها؟"

(رد عليّ يصرخ غاضباً)

"زوجتي، قاعد أتفاهم معاها، أنتي شكو؟"

رديت عليه: "التفاهم معاها كان له وقته ومكانه، في البيت. لكن لما زوجتك تصل لمرحلة رفع دعوى في المحكمة، معناها خلاص، ما عاد في مجال للتفاهم، وبأنها يئست منك ومن التفاهم معك. والأمر الآن كلّه في يد القاضي، ولا تملك أنت أي كلمة، أو رأي، أو حق."

كان قلبي يخفق بشدة وكنت خائفة جداً وجسدي يرتجف، كان شكله مخيفاً، بشعاً، عيناه جاحظتان، حمراوتان، ذو وجهه مُسْود، كان يتصبب من العرق من شدّة الانفعال. زاد غضبه وقال بسخرية واحتقار

"وانتي شدرآج إن مافي مجال للتفاهم، تعرفيناّ؟ نعرفج؟ انتي شكو؟ يلا يبا توكلي، يلا روحي لا تدخلين"

قلت له: "لا أسمح لأي رجل، أو بالأصح لأي ذكر مثلك يهين أي امرأة، زوجتك حضرت للمحكمة لتطالب بحقها ولن ترحل إلى أن تأخذ حقها، وإذا كلمتها أو هددتها مرّة ثانية سوف أتصل بالشرطة ليأخذوك."

سمعت بعض النساء الواقفات حولنا يقلن بصوت خافت "إيي والله صاجة"، وبعض الرجال يقولون بصوت خافت من بعيد جداً كأنهم يريدون التدخل ويخشون العواقب، "يا جماعة قولوا لا إله إلا الله". كان يحدق بي بشدة، وكراهية، وطغيان، وكنت أُعيد التحديق به، ليفهم أنني لستً خائفة وبأنني لن أتنازل. فضحك ضحكة ساخرة و ردّ علي بقمة الازدراء .

"يلا اتصلي بالشرطة، يظهر أنكِ مجنونة أطلق ضحكة ساخرة أخرى، أشار إليّ بيده وخاطب زوجته: يظهر أن هذه معقدة مسكينة! يظهر أنها تريدكِ أن تقومين بتوكيلها بالقضية (ضحكة ساخرة أخرى)، تريد أن تستفيد مسكينة"

(لم أزح نظري عنه، واستمريت بالتحديق به متحديّة وردَدْتُ عليه بنفس الأسلوب الساخر)

"ليس كل البشر مثلك يفكرون بمصلحتهم الشخصية"

(بدأ يمسح العرق من جبينه بيده، ويمسح يده بدشداشته، ولازال العرق يسقط على وجهه ويزداد غزارة)

"نظر لزوجته وقال: "شفتي شلون فشلتينا؟ فضحتينا أمام الناس؟

ردت زوجته بصوت خافت جداً يكاد يكون همساً، لم يسمعه أحد غيري "والله محد فاضحنا أمام الناس غيرك"

كنتُ ملتصقة بزوجته لأحول بينها وبينه، فَهَمَسَتْ لي: "مشكورة حبيبتي، أرجوكِ ابتعدي عنه، ترى هذا حيوان يمد ايده على طول، لن يتردد باستخدام العنف، ما يخاف من الله". لكنني استمريت بالوقوف بينها وبينه لكي لا يوجه لها أي تهديد آخر بترك المحكمة. حضرتُ معها جلستها بالرغم أنها ليست موكلتي، وبعد ذلك مشيت معها إلى خارج المحكمة، حدثتني عن تعنيفه لها، يضربها باستمرار، يضرب بناته باستمرار، و يتحرّش جنسياً ببناته، يسبها، يهينها، يهددها بالقتل، يسرق منها، يوقع على شيكات وقروض لا تستطيع الوفاء بها، تعرف عن علاقاته بنساء أخريات منذ أعوام، وله علاقات جنسية برجال. يأخذ أموالها ويعطيها لصديقاته، لم تعد تطيق الحياة معه، لم يعد هناك أي أمل، يئست منه ومن المعاناة التي تعيشها. رأيته يراقبنا من بعيد بغضب وكره واضحين، ولازال يتصبب عرقاً! لم أملك أي كلمات للتخفيف عنها، غير أنني قلت لها أنها إذا احتاجت لصديقة تسمعها فيمكنها الاتصال بي، ورحلتُ بعدما تأكدت بأنها ركبت سيارتها ورَحَلَتْ.

المرأة في كلية الحقوق

اصمتي

تقيم كلية الحقوق جامعة الكويت ما يعرف بالمحكمة الصورية أو التدريبية، وهي إحدى الأعراف السنوية القديمة للكلية. تقوم فكرة المحكمة الصورية على تدريب الطلاب والطالبات الخريجين على أداء عرض مسرحي لقضية معيّنة على المسرح، ووضع ديكور مسرحي مطابق لقاعة محكمة. وبناءً عليه يتم اختيار قضية ويتم تدريب الطلبة والطالبات على عرض القضية بصورة مسرحية، فبعض الطلبة يمثلون دور القضاة، وبعضهم يمثّل دور المتهمين، والبعض يمثّل دور الحاجب وأدوار المحامين المدافعين وأدوار وكلاء النيابة. وبعد أن تم فصل الطلبة الذكور عن الإناث في الجامعة، صارت الطالبات تقدمن أداءً مستقلاً عن الذكور، وفي السنوات القليلة الماضية تم تشكيل أربع مجموعات، اثنتان من الإناث واثنتان من الذكور، كل مجموعة تقدم عرضاَ، ويقوم على تدريبهم دكتور مختلف، ويتم التنافس بينهم. الهدف من المحكمة الصورية هو تمرين الطلبة والطالبات على مهنة المحاماة، وظيفة وكيل النيابة، ووظيفة القضاء. كما أنها تعطيهم ثقة بالنفس، وتهيئتهم للحياة المهنية.

كنت أجلس في الصّف الأول لِمسرح عثمان عبدالملك في الكلية لأشاهد العرض، وكنتُ قد ساهمت (مع دكتور آخر) في تدريب مجموعة من الطالبات على أدائهن للمحكمة الصورية، قضينا شهوراً طويلة في التدريب، والطالبات بذلن جهداً عظيماً، خصوصاً أنهن في السنة الأخيرة من الجامعة أصبحن يعانين من ضغط وإرهاق شديد لتحصيل معدّل عالٍ والمحافظة على معدلاتهن، كما أن العرض كان في نهاية السنة الأكاديمية قبل الاختبارات النهائية ببضعة أسابيع، وبالرغم من كل تلك الضغوطات والتحديات قدمنَ عرضاً جميلاً، أداؤهن في المرافعة كان مثيراً للاهتمام والتقدير، كنّ ماهرات، أسلوبهن في الدفاع متّزن وقانوني.

كانت تجلس بجانبي سيدة متقدمة في السن عرفتُ لاحقاً أنها مستشارة قانونية في إدارة الفتوى والتشريع، تم دعوتها لحضور العرض مع مجموعة أخرى من القانونيين (من خارج الجامعة) ليقيّموا أداء الطلبة ويختاروا الفائز حرصاً من كلية الحقوق أن يكون الاختيار حيادياً.

كانت المستشارة قد أحضرت معها سيدة أخرى مقاربة لها في السن، وكانتا السيدتان تتهامسان بصوت عالٍ طوال العرض: "ما هذا الإجراء القانوني الذي قامت به الطالبة للتو؟ لم أسمع به!" و "متى ينتهي العرض، تأخر جداً". كان تركيزهما مشتتاً تماماً، لا يتابعن العرض بأي اهتمام أو تركيز، كانتا تتحدثان عن أمور خارجية، عملهن، وأُسرِهّن، السوق وأمور أخرى لا تمت بأي صلة بالمكان الذي يجلسن فيه، وكان حديثهن يشوّش علي استماعي للعرض، لا أستطيع أن ألغي أصواتهن من سمعي، ولا أستطيع التركيز على العرض كما أريد. لم يبدُ عليهن أي اهتمام بالعرض الذي تقدمه الطالبات، وكأنهن حضرن فقط للمجاملة وتلبية الدعوة.

ولأن في القضية متهمين، كانت هناك طالبتان تلعبان دور محاميتين، كانتا على درجة عالية من "الكاريزما"، يحفظن مرافعاتهن عن ظهر غيب، متمكنات، تحدثن بصوت واضح، أجش، وبثقة عالية بالنفس، وبلغة عربية سليمة. وأثناء مرافعة إحداهن، التفتت المستشارة إلى صديقتها وقالت: "لا تعجبني الفتاة التي تتكلّم بصوت عالٍ، لا أحب الفتاة التي تصرخ، والواثقة من نفسها، يفترض على الفتاة أن تكون خجولة هادئة، الحياء أهم شيء في الفتاة. ابني الذي أبحث له عن زوجة حالياً يكره الفتاة التي تتحدّث بصوت عالٍ، الرجل يفضل المرأة الصامتة، الساكتة، التي إن تكلّمت يكون حديثها هادئاً"، فاتفقت معها زميلتها في كل ما قالته.

لم أستغرب عندما اختار المحكّمون مجموعة الطلاب الذكور كالفائزين بمسابقة المحكمة الصورية، قد تكون تلك المجموعة للطلبة الذكور بالفعل أفضل من وجهة نظر المحكمين، لكن قد يكون سبب اختيارهم أيضاً هو أن المحكمين لا يحبون الفتاة التي تتكلّم بصوت عالٍ، لا تعجبهم الفتاة الواثقة من نفسها ويعدّونها وقحة لأنها تتكلم وتعبّر عن نفسها بوضوح، ويرونها غير صالحة كزوجة لأبنائهم الذكور الباحثين عن عروس.

في المجتمع الكويتي، الذكوري، الأبوي، صوت الرجل إن علا فهو قوّة، هيبة، رجولة، وثقة في النفس. أما علو صوت المرأة فهو عيب، خزي، وقاحة، وقلّة أدب. ينظر المجتمع نظرة غير محترمة للمرأة التي تتحدث بصوت عالٍ حتى لو كانت طالبة حقوقية تؤدي دور محامية على مسرح الجامعة. كما أن المرأة في الكويت لا يُنظر لماهيّتها، أو قدراتها، أو مواهبها، أو مهارتها إلاّ إذا كانت هذه المهارة هي الطبخ والتربية.

لأنه مهما ادعى المجتمع الكويتي التطور فهو لازال يرى الأنثى في حدود إطار ضيّق يتعلّق بتابعيّتها للرجل كزوجة، ودورها المحدود في الإنجاب والطهي. مهارة المرأة في أي مجال؛ علمي، أدبي، فنيّ، أو فكري لا يثير الإعجاب، ولا يضفي شيئاً لقيمتها كإنسان، لأنها بنظر المجتمع الكويتي لم تخلق إلاّ لهدف واحد الإنجاب والطهي. أياً كان مستوى علمها، ثقافتها، اطلاعها، أو طموحها فالتقييم الأخير والنهائي الذي يجريه المجتمع عليها هو صلاحيتها كزوجة من عدمه. كما أن العيون، والآذان، والعقول التي تقوم بتقييم صلاحية المرأة كزوجة من عدمها هي عيون، آذان، وعقول ذكورية ماسوجينية، سواء كانت عيون امرأة أو رجل. فالكثير من النساء الكويتيات "ماسوجينيات" لأنه تم تلقينهن من عمر صغير جداً ما هو دور المرأة في الحياة، وقد تشرّبته عقولهن وامتصته حتى ترسّخ في أذهانهن كالحقيقة التامة التي لا تقبل النقاش أو التغيير. تخشى تلك النساء من تغيير أفكارهن وتقبّل فكرة أن المرأة مساوية للرجل في الحقوق والحريّات وأنها لم تخلق فقط للإنجاب والطهي، وتستطيع ممارسة كل ما يمارسه الرجل من دون حرج أو انتقاص لها، ويصعب عليهن الاعتراف بذلك لأن هذا يعني أنهن سيتخلين عن التوهم أنهن ناقصات عن الرجل، والتخلي عن هذا الوهم يصبح صعباً جداً، لأن الاستمرار في العيش في ذلك الوهم أريح وأسهل من الخروج منه لِمواجهة واقع يمنحهنّ قوّة ومقدرة لم يتخيّلن أنهن يملكنها من قبل.

تأثير فصل الإناث عن الذكور في الجامعة

صدر قانون منع الاختلاط في الجامعات والمعاهد في الكويت عام 1996، نتيجة لنفوذ التيآرات الإسلامية الرجعيّة في الدولة وتأثيرها على العملية التشريعية، وضعف التيارات الديمقراطية وخضوعها للإسلاميين. وعندما كنتُ أنا طالبة في كليّة الحقوق، جامعة الكويت (1998 – 2002) كان القانون لايزال حديث التطبيق، فكانت بعض محاضراتي مختلطة وبعضها منفصلة عن الطلبة الذكور. في المحاضرات المختلطة كُناّ تلقائياً بمجرّد دخولنا القاعة الدراسية نجلس في الجانب الآخر من بعضنا البعض. المقاعد في الفصول الدراسية مفصولة بممر بالوسط، فإذا دخل الذكور وجلسوا في الجهة اليُسرى من الغرفة، نجلس نحن الطالبات في الجهة اليُمنى، أو العكس.

لم أفهم سبب الفصل سوى أنه يَفترض سوء النيّة في الطلبة والطالبات، وكأن الطالب يلتحق بالجامعة أو المعهد بحثاً عن الحب بدلاً من التعليم والشهادة العلمية! كما أن الأمر ساذج ومضحك، فإن كان الطلبة والطالبات يرغبون بالتواصل أو تكوين علاقات فذلك سيتم خارج الفصل الدراسي، لأن الدكتور أو الأستاذ سيكون موجوداً أثناء المحاضرة مما ينفي أي نوع من التواصل، خصوصاً أن الطالبة والطالبات سيكون تركيزهم على الشرح والموضوعات المطروحة وليس إيجاد وسيلة للتواصل، كما أن وسائل التواصل الاجتماعي (خصوصاً تويتر) أصبح الوسيلة المثالية للشباب والبنات للتعرّف على بعض وتكوين علاقات خارج الجامعة. من المدهش أن يظن الإسلاميون أن النزاهة الأخلاقية للمجتمع تقوم على منع علاقات عاطفية قد لا تحصل بين طُلاب الجامعة، وكأن علاقة عاطفية بين طالب وطالبة ستهدم مجتمعاً بأكمله! ما المشكلة؟ بعض هذه الارتباطات تنتهي بالزواج، وإن لم يكن كذلك فهي من التجارب الطبيعية التي يمر بها الإنسان في هذه المرحلة العمرية.

ما كنتُ ألحظه سواء في جامعة الكويت أو عندما أكملت دراستي في بريطانيا أن هناك نوع من المنافسة الشيّقة التي تحصل في المحاضرات المختلطة، حيث يسعى كل جنس ليثبت جدارته العلمية، وثقافته، واتساع نطاق معلوماته للجنس الآخر، مما يُضفي نشاطاً فكرياً على المحاضرة، ويعزز النقاشات المفيدة فيها،

ويجعلها أكثر متعة وفعالية. وهذا لا يعني أن النقاشات لا تحصل في المحاضرات أحادية الجنس لكنها لا تحصل بذات الحماس، وذلك لأن من طبيعة الجنسين أن كل منهما يريد أن يثبت جدارته للآخر، وكلاهما يخشى أن يظهر بمظهر المغفّل أمام الآخر، فإذا ما قال لنا الدكتور أنه يجب علينا التحضير للدرس القادم لأنه سيقوم بطرح أسئلة أثناء المحاضرة وسيتم تقييم الإجابات بالمدرجات، نأتي كلنا مستعدين استعداداً تاماً للاختبار الشفهي، حتى إذا جاء دور أحدنا بالإجابة لا نتعرّض للحرج أما الجنس الآخر.

لم تكن هناك مواقف مخلّة بالحياء بين الطلبة والطالبات، بل كان هناك احترام وتقبّل متبادل بينهم، ولم أسمع يوماً بتعرّض الطلبة للطالبات (أو العكس) على وجه يخدش الحياء. كان هناك إعجاب، ونظرات، وابتسامات، وهو أمر طبيعي وغير مضر، ولازال يحدث اليوم بعد مرور اثنين وعشرين سنة على تطبيق قرار منع الاختلاط، وبالرغم من تطبيقه بنسبة 100% في كليّة الحقوق.

من الأضرار التي نتجت عن تطبيق منع الاختلاط في الجامعة من وجهة نظري كأكاديمية كانت تدرّس في كليّة الحقوق، هو مضاعفة عدد الشعب الدراسية لتكون هناك شعب للإناث وأخرى للذكور مما يؤدي إلى عدّة عوائق، أولها التكلفة المادية لبناء مبانٍ أو شُعب إضافية كي يكون هناك قاعات للإناث مستقلّة عن تلك للذكور، و بما أن جامعة الكويت صارت تقبل أعداداً من الطلبة تفوق قدرتها الاستيعابية، فقد قبلت جامعة الكويت 38000 طالباً وطالبة في عام 2016 بينما قدرتها الاستيعابية لا تتجاوز 26000 طالباً فقط، مما يعني أنها تعدت قدرتها الاستيعابية بنسبة 145% ، وبما أن هناك حاجة ماسة للمزيد من المباني والقاعات والفصول تم بناء فصول ركيكة من الخشب لاستيعاب العدد، وهذه الفصول الخشبية (شاليهات) ليست مهيئة ولا تتناسب مع المستوى العلمي للجامعة، بل هي محاولة تخبّط وإرضاء للتيارات السياسية الإسلامية.

هناك المشكلة الأخرى، وهي استمرار الدراسة إلى ساعات متأخرة من اليوم، فبعض المحاضرات في الساعة الخامسة أو السادسة مساءً، وذلك لأن عدد الأساتذة لا يكفي – بالرغم من مضاعفة أعداد الأساتذة منذ 1996 - لسد حاجة الفصول المؤنثة والمذكرة، مما يعني فتح شُعب في وقت متأخر، والاستمرار بالتدريس حتى وقت متأخر، ولهذا أثر سلبي على كل من الدكتور والطالب، فالدكتور الذي بدأ بالتدريس في الساعة الثامنة صباحاً سيكون مُرهَقاً الساعة الخامسة عصراً وسينخفض أداؤه.

أما الطالب فيأتي لمحاضرة الساعة الخامسة عصراً منهكاً، ضعيف التركيز، بالإضافة أن المحاضرة المتأخرة تقضي على وقت الطالب، فهو مضطر بعد وصوله متعباً للبيت الساعة السادسة أو السابعة مساءً للمذاكرة إن كان لديه اختبار في اليوم التالي، مماّ يخفض المستوى الأكاديمي للطالب، ويجعله يتهرّب من حضور المحاضرة المتأخرة، وحتى لو حضر فهو شارد الذهن، متوتر، قلق، تفكيره منحصر بكمية الدراسة التي يجب عليه إنجازها.

الأساتذة يقومون بشرح ذات المحاضرة أربع مرّات في اليوم بدلاً من مرّتين، وذلك لأن كل دكتور ملزم بأن تكون بعض شعبه من الإناث والأخرى من الذكور، فبدلا من أن تكون لديه محاضرتان كل منهما تضم الإناث والذكور، تكون لديه شعبتان من الإناث وشعبتان من الذكور (نظراً لازدياد عدد الطلبة) ويقوم بإعادة ذات المحاضرة مراراً وتكراراً بدلاً من تسخير وقته للبحث العلمي، إلى جانب أن تكرار المحاضرة ذاتها كل تلك المرّات أمر ممل جداً للأكاديمي فيؤثر على مستوى أدائه، ويهدر طاقته، ويخفّض من إنتاجيته.

في المواد الاختيارية التي يكون فيها عدد الطلبة أقل، نظراً لتوزيع الطلبة على أكثر من مادة، عكس المادة الإلزامية، هناك أكثر من خيار للطالب في المواد الاختيارية. هنا يُجبر الأستاذ على فتح شعبتين من كل مادة اختيارية يُدرسها، لكي تكون إحداها للإناث والأخرى للذكور، بالرغم أن العدد ليس كبيراً ويمكن ضم الطلبة والطالبات في مدرّج واحد بدلاً من فتح شعبتين إحداهما غالباً تكون في وقت متأخر في اليوم، مما يجعل الطلبة يتذمرون ويتهربون من الحضور ويطلبون من الأستاذ السماح لهم بعدم الحضور لأنهم يحتاجون الوقت للدراسة لاختبار خاص بمادة إلزامية صعبة.

من الأمور المحبطة أيضاً هو أن الفصل بين الجنسين في الجامعة والمعاهد جعل كلا الجنسين غير معتادٍ على الآخر. فصرتُ أُلاحظ عند ذهابي لإلقاء محاضرة في المبنى الخاص بالطلبة الذكور، أن الطلبة ينظرون إليّ بطريقة غريبة وكأنهم لم يروا امرأة من قبل! يتوقفون عن الحديث، ويتركون ما كانوا مشغولين به، ويحدقون بي حتى أمر أو أدخل الفصل، حتى صرتُ أشعر بعدم ارتياح شديد، وأكره المرور من أمامهم، ويبقى نظري على الأرض متحاشية نظراتهم التي أشعر بأنها تفصّل جسدي تفصيلاً، وصرتُ أفكّر بطرق توصلني إلى محاضرتي من دون المرور من الممر الرئيسي الذي يقف فيه معظم الطلبة

ويلتقون فيه ويتحدثون مع بعضهم البعض. أنا لا أقول هذا لأنني أظن نفسي جذابة أو جميلة، لأنني أعلم أن ردّة فعل الشباب تلك هي نتيجة طبيعية لعدم رؤيتهم للإناث خلال يومهم الدراسي، عدد الأساتذة النساء أقل، والطالبات يتحاشين المرور بممر الشباب، لذلك صار منظر المرأة في الجامعة بالنسبة للشاب نادراً وغريباً ولهذا يحدّق الشاب بأي أنثى تمر من أمامه. أماّ بالنسبة للإناث فليس هناك ذات الحرج لأن الطالبات تعوّدن على الدكتور الذكر، وبالرغم أن تحديق الفتيات بالذكور يحصل إلاّ أنه ليس بذات الحدّة. ولأن هناك عدد قاعات أكثر في المبنى الخاص بالإناث لأن عدد الطالبات الإناث بالجامعة أكبر (الإناث 70% والذكور 30%) فغالباً يضطر الدكتور لإعطاء محاضرة للذكور في مبنى البنات، لذا ترى الطالبات الطلبة الذكور بشكل يومي.

تضطر بعض الطالبات أحياناً لعدم قدرتها على حضور محاضرة أو أخرى، أن تطلب من الدكتور السماح لها حضور محاضرة الشباب لذلك اليوم فقط، لأن لديها موعد طبيب أو غيره، وتفعل ذلك حتى لا يفوتها الشرح، ولا تحتسب غائبة (ويحصل العكس مع الطلبة الذكور) فأرى تلك الطالبة عندما تمر في ممر مبنى الذكور تكاد تسقط من شدّة الخوف والارتباك الذي تشعر به نتيجة التحديق الشديد للشبّان بها.

وبسبب تكدّس الشباب الذكور في المبنى الخاص بهم من دون وجود إناث، أعطاهم ذلك شعوراً يشبه تواجدهم في الديوانية أو المقاهي الشعبية الذكورية، بحيث لا يكون هناك أيّة مراعاة لمن يمر بممراتهم، فأجد عند مروري بينهم الأرض مغطاة تماماً بأعقاب السجائر، ودخان السجائر الخانق، وعامل النظافة يمرر فرشاة تنظيف الأرض بين أرجلهم، من دون أي مراعاة أو اهتمام منهم. وقد تكلمت مع طلابي في المحاضرة عن هذا الموضوع أكثر من مرّة، سألتهم: "أيصح أن يكون منظر ممر جامعي بهذا الشكل، مغطى تماماً بأعقاب السجائر؟ أليست هناك سلّة مهملات في كل مكان؟ ألا يخجل رجال ناضجون مثلكم من توسيخ المكان بهذه الطريقة الهمجية؟ وهل يصح لكم رمي أعقاب السجائر في بيوتكم، وغرفكم الخاصة؟ فكيف يصح في مكان علم كالجامعة؟ لكنهم لا يجيبونني، وتظهر على عدد قليل منهم علامات الخجل، وعلى أغلبيتهم علامات اللامبالاة.

أحياناُ أفكر أن الإيجابية الوحيدة من قرار منع الاختلاط هو الفتيات اللاتي لا تسمح لهن أسرهن بالذهاب للجامعة لو كانت الجامعة مختلطة، فهن – نتيجة لقرار منع الاختلاط – يقدرن من الالتحاق بالجامعة وبالتخصص الذي يرغبن به فعلاً. لكن هذه هي الإيجابية الوحيدة مقارنةً بالسلبيات الكثيرة.

فأصبح منع الاختلاط يؤثر سلباً على مقدرة الذكور بالمخاطبة، والتواصل وفهم الإناث. كان الطالب الشاب بالسابق يحتك بمثيلته الطالبة الأنثى، يراها في نطاق الجامعة، يسمع آراءها في المحاضرة، يتناقش معها في نطاق موضوع المحاضرة، يتم تبادل الأفكار، مما يساهم في مقدرة كل جنس على فهم الآخر حتى وإن كان هذا الفهم في مجال محدود، إلاّ أنها فرصة لمعرفة ولو شيء بسيط عن الجنس الآخر، مما يسهل على كل واحد منهما التعامل مع الآخر بعد التخرّج، في مكان العمل، في العلاقات الزوجية. لكن ما يحصل الآن هو تحريم صورة الأنثى في عقل الذكر، لا يراها لا يسمعها، لا يعرف أي شيء عن عقلها، عن فكرها، عن رأيها، عن دوافعها. فبالنسبة له الأنثى لغز، كائن غريب مختلف تماماً عن الذكر الخشن الذي يحتك به يومياً في مكان الدراسة، أو الديوانية. يعتاد على الفكر الذكوري، إلى درجة أن الفكر الأنثوي يصبح أجنبياً عليه تماماً لا يفهمه. وإن كان الشاب يرى أمه أو أخته بشكل يومي فهذا الاحتكاك الجذري بالأم أو الأخت لا يغنيه عن معرفة المرأة النظيرة له. فعلاقته بأمه علاقة وجودية، يرى أمه على أنها المرأة التي أنجبته وتهتم برعايته، والأخت متفرّعة من دور الأم، فأخته في البيت أيضاً تهتم برعايته إذا ما كانت الأم غائبة. وبالرغم من وجود بعض الحوارات بينه وبين أمه وأخته، فليس هناك أي أهمية لأن يكون هناك توافق بالفكر، تشابه بالرغبات والأهداف. وبالتالي قد يعيش مع أمه وأخته، ويتشاركون بيتاً لكنهم في عوالم مختلفة تماماً، لكل منهم شخصيته المختلفة عن الآخر. فيظن الرجل أنه يستطيع تكرار هذا المشهد في حياته الزوجية، فلا أهمية لتقارب الأفكار ولا الحميمية ولا الألفة، فقط يجد له أي أنثى ليعيش معها، أو لينجب منها. أو أن تقوم أمه باختيار فتاة له تنال إعجابها هي، تشبهها هي، أو تتوافق مع فكرها هي وليس مع فكر ابنها. ثم يكتشف بعد الزواج أنه لم يبحث عمن تتقارب أفكارها بأفكاره، ولا التي تتطابق آمالها مع آماله، لأنه لم يتم تعليمه أن المرأة عقل وليست مجرّد جسد، وأن اقتراب عقلك من عقل شريكتك في الحياة ضروري، لا بل جوهري لاستمرار حياتك الزوجية وتوافر درجة معينة من السعادة بينكما، لأن شهوة الجسد تنطفئ ولا يبقى سوى الحوار والصحبة والصداقة التي تجعل كلا منكما مرفأً للآخر، ترجعان (تعودان) لبعضكما البعض عندما تشتد الحياة.

وإن لم يتحقق نوع من التوافق فسيكثر الشجار والخلاف، ويعيش كل منهما كالغريب عن الآخر، ويبحث الرجل عمّن تشبهه خارج حياته الزوجية، ليعيش نوعاً من الانسجام الذي يفتقده في البيت.

تقول لي إحدى طالباتي السابقات، أنه حتى بعد التخرّج وعملها مع زملائها الذكور في نفس الإدارة واحتكاكها بهم يومياً، تجد حرجاً بأي تواصل مهما كان بسيطاً ومهنياً بينها وبينهم. فإذا ما طلب المسؤول منها أن تتعاون مع زميلها أو أن تطلب مستنداً أو أشياء أخرى من زميلها الذكر، تجد أنه يتحاشى النظر إليها عندما تخاطبه ويتوتر عند الرد، ويستغرب من مخاطبتها له. تقول لي: "ينظر إلي مستغرباً ثم ينظر لزملائه الذين يشاركونه المكتب وكأنه يسألهم، ما بها هذه تتكلم معي هكذا بكل أريحية!؟" أو "انظروا شباب، انظروا! إن هذه المرأة تكلمني، إنها فعلاً تخاطبني، إنها تقصدني في حديثها!".

تقول لي أخرى أنها صارت تكره التعامل مع زملائها الذكور في العمل، لكنها مضطرة. لأن مجرد حديثها معهم في نطاق العمل الذي يثير استغرابهم منها واستنكارهم لحديثها معهم، يجعلها تشعر وكأنها المرأة الوقحة الجريئة التي لا تستحي، لكنها بالواقع تقوم بعملها فقط.

وليس غريباً أن يبحث الرجل الكويتي عندما يرغب بالزواج عن المرأة التي تعمل في مكان لا تحتك فيه مع الرجال، فهو انفصل عن المرأة منذ سن صغير ولمدة طويلة جداً، حتى صار لا يعرف ماهيّة المرأة، وكيف تفكر، وتم تلقينه منذ سن مبكر أن الاحتكاك بالمرأة لا يؤدي إلاّ لشيء واحد فقط، الجنس الوحشي الحيواني. فصار يرى المرأة بعيون تملؤها الريبة والظن والشك، فكل كلمة تصدر من فمها ملوّثة بالاشتباه العاطفي والجنسي. فهو لا يتصوّر أبداً وجود علاقة غير جنسية بين الذكر والأنثى، ولا يتصوّر أن يكون هناك حوار بينهما حول الثقافة، الأدب، العلم، أو المهنية بعيداً عن الشهوة والجسد. ولأنه لا يتصور ذلك لنفسه، فبالطبع لا يتصوّر أن يكون ذلك بين الرجال الآخرين والنساء اللاتي يعملن معهم.

لا تطّيحين حظنا!

بدأتُ بتنظيم نادٍ نسوي أسبوعي في كلية الحقوق، بلّغت كل من الطالبات والطلبة عنه، من خلاله نجتمع مرّة بالأسبوع في إحدى القاعات الدراسية لنتحدث عن مواضيع نسوية اجتماعية، وتستطيع الطالبات من خلال النادي الحديث عمّا يتعرّضن له من تمييز في المجتمع الكويتي، سواء داخل الأسرة أو خارجها، وما يتعرّضن له من تقييد لحقوقهن وحريّاتهن سواء من قِبل أسرهن، أو بعد الزواج، ومن قِبل المجتمع بشكل عام.

كما توقعت، لم يهتم الشباب ولم يحضر أي منهم. لكن عدداً كبيراً من الفتيات حضرن، وفي اللقاء الثاني للنادي أثارت إحدى الطالبات مشكلّة التحرّش التي تتعرّض لها الإناث في الكويت بشكل كبير ومستمر، أثار الموضوع ردّة فعل باقي الطالبات في النادي اللاتي أكدن أنهن يتعرّضن للتحرّش بشكل يومي أثناء قيادتهن السيارة في الشارع، وأحياناً في الكلية من قِبل بعض الطلبة وأيضاً من قِبل بعض الأساتذة.

كنتُ أعرف مدى انتشار التحرّش في الكويت، وأراه يُمارس أمامي باستمرار في الشارع وفي المجمعات التجارية، وكنتُ ولازلتُ أتعرّض بين فترةٍ وأخرى لتعليق مزعج، أو كلمة خادشة في السوق أو في الشارع. لكن القصص التي سمعتها من الطالبات أدهشتني، الكثير منهن تعرّضن لتحرّش شديد في الشارع أثناء قيادتهن للسيارة إلى درجة أن حياتهن كانت معرّضة للخطر، إحداهنّ قالت أنها تتعرّض لتحرّش مستمر وتعرّضت لحادث سيارة بسبب أن الشاب يطلب منها إيقاف المركبة، ولأنها لا تفعل، يحدها الشاب بسيارته لكي تخاف وتتوقف وتأخذ رقم هاتفه. وفي الكثير من الأحيان يسرع المتحرّش بمركبته ويفاجئ الفتاة بخروجه من حارته والانتقال إلى حارتها برعونة واستهتار وما أن يتعدّاها بمسافة قصيرة، ويصبح أمامها يخفف سرعته بشدة بحيث يجبرها على التخفيف أو التوقف، وكثيراً ما تتفاجأ الفتاة فتفقد السيطرة على المركبة وتصطدم به.

فتاة أخرى قالت بحزن أن صديقة لها ماتت بهذه الطريقة وأن الشاب الذي تسبب بالحادث كان يلبس الزي العسكري، أخت الفقيدة كانت ترافقها بالسيارة، تعرضت لإصابات لكنها نجت، أما الشاب فهرب ولم يُحاسب.

في حادثة أخرى قام أحدهم بمضايقة فتاة بالشارع حتى انقلبت بها السيارة أكثر من مرّة، تعرضت فتاة لإصابة شديدة في ظهرها أدت إلى إعاقة، بقيت تحت العناية المركزة لأسابيع، وكان معها بالسيارة أطفال (أبناء أختها)، انتشرت الحادثة في "مواقع التواصل الاجتماعي" ، وأهل الفتاة يطالبون ويناشدون الناس ما إذا كان أحدهم رأى الشاب المتهوّر الذي تسبب بالحادثة وهرب، أو رأى رقم السيارة، ليبلّغوا عنه بالمخفر، لكن لم يتقدم أي أحد بأي معلومات.

حزنت عندما علمت أن عدداً كبيراً من الطالبات يتعرّضن للتحرّش في الجامعة، إحداهن تعرّضت للمس مباشر من أحد الطلبة في منطقة الصدر، وأخرى كانت تجلس في ممر هادئ تذاكر وتنتظر محاضرة متأخرة (فترة العصر) فسمعت أصوات غريبة كأنها تأوهّات جنسية تصدر من فيديو أو تسجيل، تلفتت فرأت أحد رجال الأمن يقف على مسافة منها وينظر إليها بطريقة مريبة وبيده هاتف نقال وقد شغّل مقطع إباحي بصوت عالٍ، ووجه شاشة الهاتف باتجاهها، خافت الطالبة وهربت من المكان. أخرى تقول أنها كانت تقف في أحد ممرات داخل مبنى مكاتب الدكاترة تنتظر حضور دكتور، وكان المكان هادئاً خالياً من الطلبة والأساتذة، فجاء شابان وأحدهما التصق بها وهو يمر بالممر من أمامها حتى لامس جسده جسدها بالرغم أن الممر لم يكن ضيّق، من شدّة الصدمة لم تستطع حتى الحركة أو الصراخ، لكنها تركت المبنى مباشرةً. أما ما تتعرّض له بعض الطالبات من تحرّش من قبل بعض الأساتذة والدكاترة فيتراوح ما بين قيام الدكتور بالتعليق بشكل غير مهني على لباسها، أو مديح مبالغ فيه عن جمالها، في بعض الحالات يعرض الدكتور على الطالبة درجة كاملة من دون أن تحضر المحاضرات أو الاختبار مقابل ذهابها معه لمزرعته الخاصة أو مكان آخر خاص.

حكت بعض الطالبات عن حالات تحرّش حصلت لهن في البيت من قِبل عضو في العائلة، إحداهن تعرّضت للتحرّش من قبل عمها، وأخرى تعرّضت أختها الصغيرة للتحرّش من قبل خالها. وأخرى تعرّضت للتحرّش من قِبل سائق كانت الأسرة تثق به وتسمح للفتاة بالركوب معه وحدها من دون مرافق، حصلت الحادثة عندما كان عمرها عشرة سنوات، حين كان يلامس السائق فخذ الفتاة في طريقه لأخذها للمدرسة، وكانت تخاف من البوح بالأمر لوالديها.

من ضمن تلاميذي الذكور طالب مثلي كان أيضاً يتعرّض للكثير من التحرّش سواء كان جنسياً أو سخرية و تنمّر أثناء وجوده في الكلية و في الكثير من الأحيان أثناء المحاضرات.

بعد نقاش طويل على مدى أكثر من لقاء قررنا أنا والطالبات أن نحاول إحداث تغيير في الكلية، عن طريق طرح موضوع التحرّش والحديث عنه بشكل مفتوح لكي نخلق درجة من الوعي، ووعدتهن أن أعرض الأمر على عميد الكلية لكي نجد حلولاً ونتصدى لمشاكل التحرّش في الكلية، فمن حق الطالبات أن يشعرن بالأمان وهن على مقاعد الدراسة. عندما تكلّمت عن موضوع التحرّش الذي تتعرّض له الطالبات في "تويتر" وأكدت أن الأمر يحدث من قِبل بعض الطلبة وبعض الأساتذة وليس الكل، صُعقت من ردّة الفعل القوية الغاضبة التي لاقيتها، الطلبة الذكور غاضبون ويدّعون أنني أتهمهم كذباً، رئيس قسم القانون العام الذي أعمل فيه يستدعيني ويقول لي أنه يجب عليّ أن أمسح التغريدة الخادشة لسمعة الكلية وأن الدكاترة مُنزّهون عن مثل هذه الأفعال، لا أحد منهم يتعرّض للطالبات. تم استدعائي من قِبل العميد الذي طلب منيّ أن أوقف "النادي النسوي" وأنني كدكتورة يجب عليّ أن ألتزم فقط بحضور محاضراتي، ولا يحق لي بدء نادٍ أو أي نشاط آخر، وأنه سيتخذ ضدي إجراء إذا لم أوقف نادي النسوية.

كل هذا أدهشني، لكن ردة فعل الطالبات هي التي لم أتوقعها والتي أذهلتني أكثر من أي ردّة فعل أخرى. قامت الطالبات اللاتي يحضرن نادي النسوية (عبر تويتر) بإعادة تغريد التغريدة التي أدعو فيها لإيجاد حل لمشكلة التحرّش وأنه من الخطأ ألاّ تشعر الطالبات بالأمان في الكلية، فانتشرت التغريدة. اعترضت الطالبات اللاتي لا يحضرن النادي ولسنَ مهتمات بموضوع النسوية اعتراضاً شديداً، لكن محور الاعتراض كان أغرب من الخيال بالنسبة لي.

أكدت الطالبات المعترضات بأن نصيبهن بالزواج سيقل بعد أن قمت أنا و النسويات الأخريات بنشر أمر التحرّش، فعلى حد تعبيرهن، كلية الحقوق أساساً من الكليات التي ينظر لها الرجل الكويتي أنها لا تناسب الفتاة، فدراسة القانون لا يناسب عقل الأنثى على رأي الذكر الكويتي، وينظر الرجل الكويتي للمرأة التي تحمل شهادة الحقوق على أنها جريئة ووقحة من جانب (ولسانها طويل)، وبأنها من جانب آخر تعرف حقوقها كزوجة، و كحاضنة، وكمطلقة، بشكل جيّد بحيث ستطالبه بكامل حقوقها ولن تتنازل عن شيء أو تفوّت شيئاً، فهي قويّة وجريئة وستغلبه بالنقاش أو الشجار، وستعرف كيف ستستفيد من القانون و تستخدمه ضده. ولهذه الأسباب فالذكر الكويتي يتحاشى الزواج من خريجة الحقوق. وبعد أن نشرت أنا والنسويات أمر تعرّض عدد من الطالبات للتحرّش فهذا من شأنه أن يمنع الذكور الكويتيين كلياً من الارتباط بخريجات الحقوق! وأنني على حد تعبيرهن "طيّحت حظهم" وهو تعبير كويتي شعبي يعني "أسقطت حظهن" ولن يحظين بالزواج بسبب أن الرجل الكويتي العظيم سيتحاشى الزواج من خريجة حقوق لأنها من الممكن أن تكون قد تعرّضت للتحرّش أثناء دراستها وهذا من شأنه أن يجعلها غير صالحة للزواج!

صُدِمت! هل فعلاً هناك طالبات في الجامعة يفكرن بهذا الأسلوب!؟ هل أولوية الزواج ورضا الذكر عنهن يوصلهن لهذه المرحلة من الخوف واليأس والخضوع والرضوخ وإلغاء الذات!؟ ولماذا التحقت هؤلاء الطالبات بكلية الحقوق؟ لماذا لم يلتحقن بكلية التربية، أو العلوم الاجتماعية، أو معهد تجاري متواضع، ينهين دراستهن فيه خلال سنتين، ويتفرغن بعده للزواج والتفريخ!

كثيراً ما تضع الفتيات في الكويت الرجل في مقام الألوهية، يحاولن بأي طريقة أن يكنّ كما يريد الرجل، وهذا من شأنه أن تلغي المرأة ذاتها وعقلها وتفكيرها لكي تكون كما يريدها الذكر أن تكون. تعيش الأنثى في خوف مستمر من أن يسيء الذكر الظن بها فتبالغ بلعب دور البريئة الخجولة الخائفة والغبية التي لا تعرف شيئاً حتى يشعر الذكر بقربها بقوته وذكائه، تبالغ الأنثى بالتديّن إذا ما رأت أن هذا ما يريده الذكر منها، تعيش حياتها بالكامل في حالة تصنّع ونفاق، تلغي شخصيتها، رغباتها، وأحلامها، وتعلّب نفسها تماماً كما يريدها الذكر.

وفي كل مرّة أنشر مقالة تتعلّق بالنسوية عبر مدوّنتي الخاصة على تويتر أرى ردّة فعل سلبية من بعض النساء اللاتي يخشين كل الخشية من خسارة رضا الذكر، حيث تم تلقينهن في البيت ومنذ الصغر أن رضاه بذات أهمية رضا الله أو أكثر أهمية، تعلم أن لا مستقبل لها سوى الزواج والإنجاب، فهي ترى أن هذا هو قدرها الوحيد والهدف من وجودها في الحياة.

لم أمتثل لتهديدات العميد ولا رئيس القسم واستمريت بلقاء الطالبات النسويات عبر النادي كل أسبوع. وفي مجتمع متديّن كالمجتمع الكويتي، حيث يستمد الكثير من عاداته وتقاليده من الدين لا يتصوّر أن نتحدّث عن النسوية من دون التعرّض للدين، وأثناء النقاش قلتُ أنني ضد تعدد الزوجات. كانت هناك مجموعة طالبات لم أرهن من قبل في النادي، وكان واضحاً من ملامحهن ولغة الجسد أنهن فقد حضرن اللقاء لكي يعارضنني في أفكاري خصوصاً بعد الجدل الذي حصل عبر "تويتر"، فعندما قلتُ أنني ضد التعدد أخذن يصرخن بأنه لا يحق لي أن أعترض على شيء مذكور و مسموح في القرآن. قلتُ لهن أنني أعترض على الكثير من الأشياء المذكورة في القرآن من تعدد، وتفضيل الذكر على الأنثى بالميراث، وجواز تأديب الزوج للزوجة، وتفضيل قوم على قوم ودين على دين، وصور التعذيب وأنواع الترهيب والتخويف من الله كلها أعترض عليها. فهاجموني بقوّة وقالوا لي أنه لا يحق لي أن أعترض على القرآن، فأكدت لهن أن لي عقل وأنني أحب تحكيم عقلي ولا أنصاع فقط لكل ما يؤمن به المجتمع من دون تفكير، خرجت إحداهن من القاعة بغضب وهي تكرر كلمات الاستغفار.

قالت لي إحداهن بغضب يجوز للرجل أن يعدد ويحق للزوجة الأولى إذا كانت ترى في زواج زوجها ضرراً عليها أن تطلب الطلاق. فرددت عليها أنه بالطبع سيكون زواجه الثاني ضرراً على زوجته الأولى، لذلك تسمى الزوجة الثانية (والثالثة والرابعة) "ضرّة"، فكلمة ضرّة مأخوذة من الضرر، ثم سألتها هل ترضين أن يتزوج عليكِ زوجكِ الذي أحببتيه، وأنجبت له الأبناء، واهتممتِ به، وضحيتي من أجله، وأعطيته حبكِ، وقلبكِ، ووقتكِ، وطاقتكِ وحنانكِ، هل ترضين أن يتزوّج زوجة أخرى؟

ردّت عليّ ويبدو واضحاً عليها ومن نبرة صوتها أنها غير مقتنعة: "لكن يجوز للزوجة الأولى أن تطلب الطلاق، إن كان زواج زوجها عليها فيه ضرر"، فقلت: "وهل طلاقها منه لا يعتبر ضرراً عليها؟

بعد العشرة، والسنوات التي قضوها معاً، وأبناء، وتربية، وتضحية، تقولين للزوجة الأولى إن لم يعجبكِ الأمر تطلقي منه؟! وماذا لو كانت تحبه؟! أليس في ابتعادها عن زوجها ضرر عليها، أليس انفصال الأبناء عن بيتهم ووالدهم ضرراً؟!"

سكتت الطالبة وكانت تفكر بكلامي.

ما يحزنني، أن المجتمع الكويتي (وفي كل المجتمعات الذكورية) يقال للزوجة أن تتمسّك بزوجها مهما حصل، حتى لو كان زوجها يسيئ معاملتها، ويتعدى عليها، ولا تجد معه الراحة ولا السعادة، وكانت تعيش معه بصعوبة وتريد الطلاق منه، تجد أهلها يمنعونها من الطلاق ويلزمونها بالبقاء ويحثونها على الصبر، وتجد أهله كذلك يمنعونها من الطلاق ويجبرونها على التحمّل. لكن عندما يريد الزوج أن يتزوج أخرى ويجرح كرامة زوجته الأولى، نجد ذات المجتمع الذي حرّم الطلاق على الزوجة الأولى يقول لها: "إن لم يعجبكِ أن زوجكِ قد تزوّج عليكِ فتطلقي!"

بعد اللقاء في نادي النسوية الذي اعترضت فيه على بعض النصوص المذكورة في القرآن، استدعاني العميد مرة أخرى! وقال لي أن عدد من الطالبات جئن إليه واشتكين له عنّي، وبأنني خلال النادي النسوي قلت أن كل ما بالقرآن خطأ، وأن القرآن هو سبب مشاكلنا في المجتمع! أكدت له أنني لم أقل ذلك، أما اعتراضي على بعض نصوص القرآن فأكتب عنها بشكل علني عبر تويتر وهي ليست سراً، هذه هي أفكاري وآرائي. قال لي أنه يجب عليّ أن أوقف نشاط النادي، وأنني ملزمة فقط بتدريس منهج المواد الدراسية ولا يحق لي أن أقيم أي نشاط مع الطلبة. بلغته أنه لا يوجد في لوائح الجامعة ما يمنعني من إقامة نشاط اجتماعي. قال لي أنه يحق لي فقط إقامة محاضرة عن موضوع معيّن لكن يجب عليّ أن أعرض عليه الموضوع أولاً للموافقة عليه، ويجب أن تكون المحاضرة مفتوحة للجميع، كل الطلبة والأساتذة يستطيعون حضورها. قلتُ له أنني مصرّة على أن يكون النادي النسوي "طاولة مستديرة" تستطيع الطالبات من خلالها عرض آرائهن والحديث عنها بأريحية، وليست محاضرة أقف فيها أمام الطالبات وأتحدث لوحدي والطالبات يسمعنني فقط، كما هو الحال في المحاضرات العلمية الأخرى. أما من ناحية حضور الكل، فالنادي النسوي يرحّب بالكل، وباب القاعة التي نلتقي فيها من أجل النادي دائماً مفتوح لا نغلقه، وكل الطلبة والطالبات والأساتذة مرحب بهم. سكت العميد وقال، أنه إذا كنتُ أتحدث عن الدين وأعترض على الدين فسيتسبب ذلك بمشاكل كثيرة، وقد يضطر هو لإحالتي للتحقيق، قلت له أن يفعل ما يشاء وخرجت من مكتبه.

ماذا كنت أتوقع من رجل تزوّج طالبتين من طالباته! بالتأكيد هذا العميد الذي يعتبر التعدد حقاً من حقوقه كذكر سيحارب امرأة مثلي تقول أنها ضد التعدد وتتجرأ على نشر فكرها النسوي بين الطالبات.

لكنني لم أعد أهتم، تهديد العميد لم يكن له أهمية بالنسبة لي، فقد تم تحريك شكوى ضدي بسبب تغريدة أدعو فيها الله ليمنحني حقوقاً مساوية لحقوق الرجل، وتم إحالتي للنيابة بتهمة المساس بالذات الإلهية و ازدراء الأديان، وبدأت أفكر جدياً بالهجرة من تلك البلد التعيس. سئمت من تلك الصحراء البائسة، سئمت من ذلك المجتمع المتحجّر، سئمت من أفكارهم، وعقولهم، ونفاقهم، وبدت لي فكرة الهجرة إلى الولايات المتحدة أملاً جميلاً، وباباً سيوصلني للراحة والحرية التي أتمناها منذ أعوام، ومستقبلاً أروع لابنتي حيث كنت أرى كم هي ذكية ولديها إمكانيات علمية هائلة، في كل مرّة أحضر اجتماع أولياء الأمور في مدرستها يقولون لي معلماتها أن ابنتي شديدة الذكاء، وأكدنَ لي أن المناهج التي يقدمونها بالمدرسة (بالرغم أنها مدرسة خاصة) سهلة جداً بالنسبة لابنتي جوري، فلا تجد فيها أي تحدٍّ. أردت لها مستقبلاً علمياً أفضل بكثير مما تقدمه مدارس الكويت متدنية المستوى، كما أنني أنجبت جوري أثناء دراستي في بريطانيا وقد عاشت هناك أول ستة سنوات من عمرها، ومنذ رجوعنا للكويت لم نشعر أنا وجوري بالتأقلم مع المجتمع الكويتي المتخلّف وكنا نحلم دائماً بالرحيل إما للمملكة المتحدة، أو للولايات المتحدة، الشكوى المقدمة ضدي أصبحت فرصة ذهبية أستطيع من خلالها طلب اللجوء للبلد الذي أتمنى العيش فيه، بلد يؤمن بقيمة الإنسان، بالديمقراطية، وبحريّة الفكر، فخططت للهجرة للولايات المتحدة الأمريكية، و رحلت في نهاية ديسمبر 2018.

استغباء المرأة لإرضاء الرجل

لا يوجد شك أن الرجل الماسوجيني يُفضل الارتباط بامرأة أقل منه درجة علمية، أو أقل منه ذكاء، أو فطنة، لأن ذلك يساعد على تفاقم حجمه مقارنةً بها ويُساهم في شعوره بالتفوّق عليها. فلا يوجد ما هو أشد على الرجل الماسوجيني من المرأة التي تفوقه ذكاء لأنه أمامها يشعر بالنقص ولا يشعر برجولته. كما أن ضعف ذكاء المرأة يعني تفويتها للكثير من عيوب الرجل، وغض نظرها عن الكثير من أخطائه، فإن سألته لماذا تأخرت، أو أين كنت؟ يعرف أن قليلة الفطنة ستصدق ما يلفّقه لها من أكاذيب، أما الذكية ستكتشف أكاذيبه حتماً. ولأن المرأة تعرف أن الرجل يُفضل البليدة، ضعيفة الفطنة، فهي أحياناً تتمادى في الاستغباء لإرضائه.

كنتُ أتحدّث مع إحدى طالباتي، فتاة ذكيّة ومجتهدة ومتفوّقة أكاديمياً في السنة الأخيرة لها في كلية الحقوق. حدثتني عن إعجاب أحد الطلبة الذكور بها وأنها تبادله الإعجاب، وصارا يتحدثان معاً وقد اتفقا على الزواج بعد التخرّج مباشرةً. ثم أضافت أن الطالب (محط اهتمامها) كان يُفترض أن يكون قد تخرّج الآن، فهو يكبرها بعام، لِذا فهو يسبقها بسنة أكاديمية في الكلية، لكنه في العام السابق تعمّد السقوط بدلاً من النجاح ليستمر لسنة أخرى معها في الكلية! تعجّبت منها عندما قالت لي العبارة الأخيرة وكأن ما فعله هذا الطالب هو قمّة في الرومانسية.

قلتُ لها: إن كان يحبّكِ فعلاً فمن الأحرى أن يجتهد ويتخرّج ويجد وظيفة كي يستطيع الزواج منكِ بمجرّد تخرجكِ، لا أن يتعمّد السقوط. ما فعله هذا الشاب ليس رومانسياً أبداً، ما فعله قمّة في الغباء، ليس على أي أحد أن يسقط من أجل شخص آخر مهما كان الأمر، وإن كان قد سقط بسبب إهماله وعدم رغبته في الدراسة، ويُريد إيهامكِ أن سقوطه وإخفاقه ليس فشلاً وتقصيراً منه، بل تضحية من أجلك فهو لا يحترم عقلك ويعتبركِ مغفلّة وبناءً عليه لا يستحقك. أنتِ فتاة ذكيّة ويُفترض ألا تقعي ضحية لِمثل تلك الأكاذيب والحِيَل.

سكتت الفتاة وبدت ملامحها حزينة، وفي ذات الوقت بدت عليها معالم الفهم، كأنها تعلم مسبقاً كل ما قلته لها، تعلم أن الشاب الذي تحبه تافه، تعلم أنه ما كان عليها تصديق تلك الكذبة الواهنة، لكن شيئاً فيها يُفضّل العيش في وهم أن ذلك الشاب مغرم بها وقد ضحّى تضحية عظيمة من أجل رؤيتها كل يوم، بدلاً من مواجهة الواقع وهو أن ذلك الشاب كسول، وغير ناضج، ولا يسعى للارتباط بها، وأنها تستحق أفضل منه.

تنمّر الرجال على النساء في مواقع التواصل الاجتماعي في الكويت كثير، و رهيب من حيث مدى انتشاره وتقبله. فأحدهم يختلف مع ما كتبته إحدى المغردات فيكتب: "كُلي زق أيتها العجوز المتصابية" فيتفق معه الكثير من متابعيه (رجال ونساء) على أن تلك المرأة عجوز متصابية، ويحصل رده هذا على تفضيلات، وإعادة تغريد، وضحك وسخرية يقصد بها تحقير المغردة. ولم يكن هناك استنكار لما فعله ذلك المغرّد من تحقير لتلك المرأة بسبب كبر سنها، بدلاً من مخالفتها بالرأي فقط من دون إلصاق ذلك بشخصها وجسدها، فالمجتمع الكويتي، والنساء بشكل خاص يتغاضين عن مدى طعن الرجل الكويتي بشكل المرأة الكويتية كوسيلة للتحقير والانتقاص، ويعتبرنه من المسلّمات، وكأنهن يعتقدن أنهن عندما يتفقن معه بالرأي بأن تلك المرأة عجوز متصابية فهن يبعدن تهمة الشيخوخة والتصابي عنهن، فينعمن بشيء يشبه الحصانة أو الحماية الوهمية من انتقاد الذكور لهن.

وآخر يكتب: "تطيح (تسقط) المرأة من عيني إذا طلبت ساندويتش شاورما لأنها بأكلها للشاورما تفقد أنوثتها"، فيقوم متابعوه (من رجال ونساء) بإعادة التغريد آلاف المرّات، ويحصل رأيه على قبول الإناث والذكور، وتدعي الكثير من الفتيات في ردودهن على تغريدته أنهن يكرهن الشاورما، ولا يأكلنها أبداً، وكأن كل واحدة فيهن تخشى خسارة رضى ذلك المغرّد عليها، وتخشى أن يراها ناقصة أنوثة، بالرغم أن تويتر عبارة عن عالم إلكتروني وهمي لا قيمة حقيقية له، وبالرغم أن ذلك الشاب سخيف تافه، ولا يفترض أن يكون لرأيه وزن. ثم تأتي تغريدة أخرى على إثر تغريدة "الشاورما" يظهر فيها مدى تأثير تحديد الذكور لمعايير الأنوثة؛ فيكتب أحدهم: "حبيبتي ما يصير كل ما أسئلك ماذا أكلتِ على الغداء تقولين لي سلطة! معقولة لا تأكلين غير السلطة!؟" بالرغم أن التغريدة ساخرة ويُقصد بها التصنّع المبالغ فيه للرقة من قِبل الفتيات اللاتي يرغبن بالظهور أمام الشباب أنهن أنثويات لدرجة أنهن لا يأكلن اللحم ويكتفين فقط بالخضراوات، كأنهن عصافير أو أرانب!

إلاّ أننا لا نستطيع أن نغفل مدى تأثُّر الفتيات الصغيرات بما يحدده هؤلاء الذكور من معايير للأنوثة، حيث تحاول تلك الفتيات إشباع تلك المعايير السخيفة التي يضعها الرجل للمرأة، فأكل اللحم من وجهة نظره فيه شراسة وانتقاص من الأنوثة.

وما لا تفهمه تلك الفتيات أنه لا حق للذكر في تحديد ما هو أنثوي وما هو غير أنثوي. المرأة هي التي تحدد ذلك. أنتِ الأنثى وبالتالي أنتِ من تحددين ما يعتبر أنثوي وما لا يُعتبر كذلك، ولكل امرأة معاييرها الخاصة، هناك من تعتبر لبس الفستان أو التنورة يضفي عليها أنوثة أكبر، وهناك من لا تظن ذلك. هناك من ترى أن إزالة شعر الجسم يضفي عليها أنوثة أكبر، وهناك من ترى أن شعر الجسد شيء طبيعي ولا ينتقص من أنوثتها.

عندما كتب أحدهم أن النسويات لا يتمتعن بأي أنوثة، كما أن الرجل النسوي لا يتمتع بالرجولة، فردّت عليه إحدى متابعاته قائلة: "صح كلامك كل النسويات لديهن حذاء في رؤوسهن بدلاً من العقل". وتظن في رأيها هذا، الذي يحط من قيمة أخواتها النساء اللاتي يطالبن بحقوق وحريّات أكبر لها ولشتى النساء، تظن أنها ستحصل على رضى وقبول ذلك الشاب. لكنه رد عليها قائلاً: "لا، من الخطأ إهانتهن بهذه الطريقة، أنا لم أقصد إهانتهن بهذه الطريقة."

المجتمع الكويتي يعلّم الفتاة من عمر صغير جداً أن الحصول على رضى الذكر هو أعلى درجات النجاح، وهو قريب جداً من الحصول على رضى الخالق. فتلغي الفتاة عقلها لتصدق أكاذيبه، وتغيّر رأيها ليتطابق مع رأيه، وتنقص من كينونتها كإنسان لتتماشى مع معاييره الخاطئة عن الأنوثة.

تعنيف المرأة الكويتية

ليست جثة مجهولة، اسمها غالية

في بداية شهر ديسمبر 2018 تم العثورعلى جثة فتاة في بر الكويت. كانت آثار التعذيب واضحة على جثّة الفتاة، حيث تم طعنها في مختلف أنحاء جسدها بآلة حادة، ثم خنقها بحبل بلاستيكي، ثم نحرها بمنشار.

عندما نُشر خبر العثور على الجثة، أراد الإعلام الكويتي أن يوهم الشعب أن المرأة ليست كويتية، فقيل أن الضحيّة وافدة (من سوريا)، أسلوب رخيص في تقليل بشاعة الخبر عن طريق الادعاء أن الضحية - على الأقل - ليست مواطنة، وكأن ذبح الأجانب أمر مقبول ويسير، وهي دلالة على مدى عنصريّة المجتمع الذي يتنفس الصعداء لمقتل إنسان لا يحمل جنسيته.

بعد يومين من نشر الخبر، انتشر خبر أن الضحية امرأة كويتية تبلغ من العمر 24 عاماً، وقد قتلها أخوها البالغ من العمر 20 عاماً، وقد سلّم الجاني نفسه للمخفر واعترف بقتل أخته في بر السالمي. وبدلاً من نشر اسم الضحية واسم قاتلها تم تسمية الضحية "جثة السالمي" حفاظاً على الجاني وسمعة أسرته. وأخذت مواقع التواصل بنقل ونشر خبر "الجثة المجهولة".

عدم تسمية الضحّية هي حيلة يستخدمها المجتمع الذي ينظر بدونيّة للمرأة، لأن ذكر اسم الضحية ووضع صور لها في الصحف (كما يحصل في الغرب) يجعل من الضحيّة إنساناً وليس مجرّد جثة مجهولة، إنسان كان له كيان وطموح وأحلام ومخاوف، ويطبع في ذهن القارئ صورة واضحة للضحية فيصعب نسيانها، ويعزز ذلك بشاعة الجريمة التي ارتكبت بحق الضحيّة، ونشر الوعي بوجوب معاقبة من لازال يحمل الفكر القبلي الرجعي الذي يتبنى جرائم الشّرف ويفتخر فيها، بمعاقبته أشد عقاب لردعه والقضاء على هذه الظاهرة.

هذه الحادثة ليست الأولى من نوعها في الكويت، ففي 2018 فقط، كانت هناك أربعة جرائم شرف (غير المذكورة أعلاه)، ثلاثة منها وقعت في يناير، حيث قام مواطن كويتي بقتل زوجته الحامل خنقاً، وآخر قتل زوجته بسلاح "شوزن" أمام ابنتهما، وآخر قتل أخته الأربعينية بسلاح "خرازة". وفي شهر يوليو من 2018 قام رجل كويتي بقتل ابنته الثلاثينية خنقاً، وفي كل مرّة يقتل فيها الكويتي بدافع الشّرف يسلّم نفسه للمخفر ويعترف بجريمته لأنه أمن العقوبة.

علماً أن هناك حالات كثيرة لا تصل للإعلام، حيث تُقتل المرأة وتُدفن في البر ولا يتم العثور على جثّة وإن سأل عنها الأهل والجيران، قيل لهم أنها تزوجت من رجل سعودي وذهبت للعيش معه في السعودية.

بل إن مفهوم العار متأصل جداً في عقل الرجل الكويتي إلى درجة أن أحدهم قتل أخته لأنه اكتشف أنها كانت على علاقة بزوجها قبل زواجهما، وقد وقعت هذه الجريمة في 2015

القانون الجنائي الكويتي يشجّع الرجل على جرائم الشرف، حيث تنص مادة 153 منه "من فاجأ زوجته حال تلبسها بالزنا، أو فاجأ ابنته أو أمه أو أخته حال تلبسها بمواقعة رجل لها، وقتلها في الحال أو قتل من يزني بها أو يواقعها أو قتلهما معاً، يُعاقب بالحبس مدّة لا تجاوز ثلاثة سنوات وبغرامة لا تتجاوز ثلاثة آلاف روبيه أو بإحدى هاتين العقوبتين."

ويتضح من نص المادة أن العقوبة مخففة، فالمفروض أن تكون جريمة القتل العمد جناية تستدعي إمّا الإعدام أو الحبس المؤبد وفقاً للقانون الكويتي. أما المادة 153 فتعتبر القتل بدافع الشرف جنحة وليست جناية، وتعاقب فاعلها بالحبس لمدة ثلاثة سنوات فقط مع غرامة، أو بإحدى هاتين العقوبتين، أي من الممكن أن لا يُحبس الجاني نهائياً ويكتفي بدفع الغرامة بالرغم أنه قد يكون قتل شخصين، المرأة ومن معها. وبسبب أن القانون الجنائي قديم فهو لا يزال يحتسب الغرامة وفقاً لعملة الكويت القديمة وهي الروبية الهندية، وثلاثة آلاف روبية اليوم لا تساوي أكثر من اثنى عشر ديناراً كويتياً.

وبناءً عليه يستمر الرجل الكويتي بارتكاب جرائم الشرف ويقوم بكل ثقة ووقاحة بتسليم نفسه للشرطة والاعتراف بجريمته البشعة لأنه أمن العقوبة. علماً بأنه في كل جرائم الشّرف التي وقعت في 2018 وتم ذكرها أعلاه، لم يفاجئ الجاني الضحيّة وهي في حالة زنا أو مواقعة جنسية كما نصت المادة 153، بل في كل الحالات يقتل الرجل المرأة لأنه يشك أنها قد تكون على علاقة مع آخر من دون أي دليل، أو بسبب خلاف شخصي يفقد فيه الرجل السيطرة على غضبه، ومع ذلك يستفيد من نص المادة 153 ويحصل على عقوبة مخففة. ففي قضيّة "فتاة السالمي" الضحية امرأة متزوجة ولديها طفل وعندما استعلمتُ أكثر عرفتُ أن أخاها لم يجدها متلبسة بالزنا، لكنها كانت قد حضرت حفلة في بيت إحدى صديقاتها. أما في حادثة قتل كويتي لزوجته خنقاً فأيضاً لم تكن الزوجة متلبسة بالزنا وقد قتلها فقط لأنها طلبت منه الطلاق.

وفي حادثة قيام رجل بقتل ابنته الثلاثينية (والتي لديها أربعة أطفال) لم يفاجئها وهي في حالة مواقعة جنسية، بل لأنها طلبت من والدها الاستقلال بسكن خاص فيها بعد أن تطلّقت من زوجها. حيث أن المتعارف عليه في معظم الأسر وخصوصاً القبائل عودة المرأة لمنزل والدها مع أطفالها بعد الطلاق، لكن الضحية هنا أرادت الاستقلال بسكن خاص بها لها ولأولادها بسبب عدم وجود مكان كافٍ لها ولأطفالها في منزل والدها. ولا أعني هنا أنه لو كانت الضحية متلبسة بالزنا لكان من حق والدها او أخيها أو زوجها قتلها، بل بترك الأمر للقضاء.

وسبب حصول هؤلاء الوحوش على أحكام جنائية مخففة هي الذكورية المتأصلة في المجتمع الكويتي القبلي، حيث نجد تشعّب القبائل في المؤسسات الأمنية والقضائية وهيمنتهم عليها، فالرجل الكويتي يعلم أنه لن يُعاقب لأن أبناء قبيلته من إخوة وأبناء عمومة مسيطرون على المخافر – فعدد كبير منهم في الشرطة، والمباحث الجنائية، وإدارة التحقيق، والنيابة، والقضاء. كل من هؤلاء يساعد الجاني، لأن كلاً منهم يعلم أن القبيلة ستقف معه وتخلّصه من العقوبة إن هو قام بقتل أمه، أو زوجته، أو أخته، أو ابنته.

المرأة الكويتية لا تشعر بأمان في مجتمعها بل ولا حتى بين أسرتها، فبدلاً من أن يكون الأب، الأخ، الزوج، وحتى الابن مصدراً لأمان المرأة، يكونون كالذئاب على أتم الاستعداد لنحرها ورميها في البر كحيوان رخيص لا قيمة له، فلا يذكر لها اسم ولا تُفتقد، وتُنسى تماماً وكأنها لم تكن.

تردد الأُم عبارة "اسكتي لا يسمعكِ أخوك أو والدكِ فيقتلكِ" على مسمع الفتاة منذ صغرها، فتعرف أن قتلها هيّن وحياتها رخيصة جداً في مجتمعها وبين من يفترض عليهم محبتها وحمايتها، فبمجرّد تفوهها برأي لا يعجب أخاها أو والدها يكون مصيرها القتل حتماً. وهنا نجد أن المرأة (غالباً الأم) أيضاً تلعب دوراً في المجتمع الكويتي الذكوري في تشجيع العنف ضد المرأة والتشجيع على جرائم الشرف، حيث تتقبّل عنف الأب والأخ والزوج، وتهدد ابنتها به على الدوام.

حتى وإن تعرّضت المرأة الكويتية للعنف من قِبل أسرتها وتم تهديدها من قِبلهم وعلِمت أن حتفها قريب لا يوجد من تستنجد به، لا يوجد قانون يحميها ولا ملجأ تأوي إليه.

إن كانت صغيرة في العمر(لا تحمل رخصة قيادة) فمن الطبيعي أنها لن تستطيع اللجوء للمخفر، وليس هناك خط ساخن تستطيع من خلاله طلب المساعدة، وإن كانت كبيرة في السّن وقادرة على الذهاب للمخفر ستتردد كثيراً لأن مصيرها العودة لمنزل معنّفيها، فهي في النهاية تعيش مع والدها أو أخيها أو زوجها المعنِّف، ولن يؤدي علمهم بذهابها إلى المخفر وتقديمها بشكوى ضدهم إلاّ لمزيدٍ من العنف. فضلاً عن ذلك أن المحقق في المخفر سيسعى جاهداً لإقناع المرأة بالعدول عن الشكوى وعدم الاستمرار فيها منعاً للفضيحة والإضرار بسمعة عائلتها، وإن أصرّت المرأة على شكواها، حاول المحقق استدعاء معنّفيها لحل الأمر ودياً بالمخفر لمنع تطوّر القضية وتحويلها للمحكمة، فهو يرى الموضوع من منظوره الذكوري الضيّق، ولا يريد لأخته أو زوجته أو ابنته في المستقبل أن تتجرأ في تقديم شكوى ضده في المحكمة وتشويه سمعته إن هو قام بتعنيفهن.

بُذلت بعض الجهود من قِبل مجموعة من السيدات الكويتيات أطلقن على مجموعتهن اسم Abolish 153

حيث من أولوياتهن إلغاء المادة 153 من قانون الجزاء الكويتي. تقدمت المجموعة باقتراح تعديل المادة للبرلمان الكويتي في عام 2017، لكن البرلمان لم يُبدِ أي اهتمام بالتعديل. سَعَت المجموعة للضغط على الحكومة بتخصيص ملجأ آمن للمعنفات الكويتيات، التي أثبتت دراسة قامت بها د. فاطمة السالم في 2018 أن 53% من النساء الكويتيات يتعرّضن للعنف من قِبل أسرهن، كما أشارت إحصائيات وزراة العدل الكويتية في 2018 أن هناك 368 قضية عنف مرفوعة من قِبل نساء كويتيات في المحاكم. وبالرغم أن الحكومة الكويتية خصصت مساحة للملجأ إلاّ أنه لا زال غير مهيّئ للسكن.

المرأة التي قُتلها أخوها الأصغر و رمي بجثّتها في بر السالمي في الكويت ليست مجهولة، بل اسمها "غالية"، وقد كانت غالية أماً لطفل، كان لها صديقات يحبونها، كانت لها أحلام وطموحات، ومن المؤكد أنها كغالبيّة الشقيقات الكبيرات، كانت تحب أخاها الصغير وتحنّ عليه.

عادي!

مواطن يقتل ابنته خنقاً في منطقة سعد العبدلله، عادي! لن يتكلم أحد ولن يستنكر أحد، وبعدين منو فاضي!؟

قضايا النساء المعنّفات في المحاكم الكويتية وصلت إلى 400 قضية السنة الماضية، وما لم يتم توثيقة أكثر، والمعنفات اللاتي يخشين التبليغ أكثر، عادي!

ناشطة في حقوق المرأة في الكويت تصرّح أن المسح الذي أجرته كشف أن العنف ضد المرأة الكويتية يحدث في 79% من الأسر، عادي!

نقيب يصرّح أن هناك عدداً كبيراً من النساء اللاتي يبلغن عن العنف الجسدي الواقع عليهن من قبل أزواجهن يومياً، لكن الإدارة تحاول حل الأمر ودياً بين المعنفة وزوجها من دون تحويل البلاغ إلى قضية، حتى عندما استخدم أحد الأزواج سيارته للاصطدام بسيارة زوجته محاولاً قتلها، عادي!

قضايا التحرّش الجنسي ضد المرأة، إذا كانت المرأة بالشجاعة الكافية للتبليغ عنها يتم حفظها من دون تحريك إجراء قانوني ضد المجرم، عادي!

رئيسة حملة نسائية أفادت أنهم يقومون باستئجار أماكن لإيواء الفتيات الكويتيات المعنفات من قبل أسرهن، بالرغم أن استئجارهم لهذه الأماكن غير قانوني، إلاّ أن الدولة لا توفر للفتيات المعنفات ملجأ آمناً، وأن الكويت مخالفة للمعاهدات الدولية التي وقعت عليها والتي تهدف لِحماية المرأة، عادي!

نعلّم الفتاة منذ عمر صغير جداً ألاّ تقترب من الرجال، أن لا تثق فيهم، أن لا تصدقهم، أن الرجال عبارة عن وحوش، ذئاب، كلاب، سيفترسونها، سيستغلونها، سيكذبون عليها، سيغتصبونها، عادي!

نعلّم الفتاة من عمر صغير أن تغلق رجليها، أن تنزل عينيها، أن تخاف، أن تستحي، أن تصمت، أن ترضخ، أن تتغطى بكفن أسود من رأسها إلى أخمص قدميها، نعلمها أنه يجب عليها فعل ذلك لأن الرجل كالحيوان، لا يُلام، لا يستطيع التحكم بشهواته، أنه يراها مجرّد جسد، أنها ليست إنسان، عادي!

ما لم نعلمه الفتاة الصغيرة أنها ليست بأمان مع والدها الذي قد يقتلها خنقاً، أنها يجب أن تخشى أخاها، وزوجها، وزميلها، وابنها، والضابط الذي ستذهب لتشتكي له في المخفر، والمحامي الذي سيرافع عنها، والقاضي الذي لن ينصفها.

الميزان

لأنني مهتمة بما يحصل على أرض الواقع بالنسبة للمرأة التي تتعرّض للتحرّش الجنسي في الكويت، اتجهت لأحد المخافر، ثم لنيابة الجرائم الجنسية في الرقعي، لآخذ المعلومات من المحققين، ووكلاء النيابة ذاتهم عن كيفية التحقيق في تلك القضايا وما إذا كانت المرأة التي تشتكي في المخافر تؤخذ على محمل الجد من عدمه، ولأستفسر عمّا يحصل إذا تغيّر تكييف الواقعة من جنحة إلى جناية، أي من تحريض على الفسق والفجور، إلى هتك عرض أو اغتصاب، وما إذا كان المحقق يقوم بتحويل الشكاوي التي يتم تكييفها على أنها جناية، وكيف يتعامل وكيل النيابة مع المجني عليها عند وصول الشكوى إليه.

في مخفر منطقة الأندلس والذي قيل لي أنه يتم إحالة الكثير من شكاوي التحرّش إليه بسبب قربه من مجمع " الأفينيوز " Avenues والذي تقع فيه الكثير من محاولات التحرّش والتحريض على الفسق والفجور، أكّد لي أحد المحققين أنه ليست هناك أعداد كبيرة من القضايا التي يسميّها القانون "التحريض على الفسق والفجور" أو ما نسميه بالعامية "التحرش"، وكل تلك الشكاوي يتم تكييفها على أنها "إساءة استعمال هاتف" حيث الجاني (في غالبية الشكاوي ذكر) يضايق الأنثى عبر الهاتف، يهددها بنشر صور أو غيرها، فتضطر لتقديم شكوى. لكن المحقق أكد لي أن هناك عدداً هائلاً من قضايا "هتك العرض" التي تمس القاصرات فيحيلها إلى نيابة الأحداث لأنها تخرج من اختصاصه. وقضايا هتك العرض التي تكون المجني عليها فيها بالغة (بلغت الثامنة عشر) يتم إحالتها لنيابة الجرائم الجنسية لأنها أيضاً تخرج من اختصاص المحقق.

أكد لي محقق آخر بأنه يومياً يتعامل مع عدد كبير جداً من شكاوي "التحريض على الفسق والفجور" وأنه دائماً ينصح الفتاة ومن معها من أهلها على عدم المضي بالشكوى حفاظاً على سمعتها. وإذا كان الجاني وافداً يتم تسفيره. قلتُ له أنه من الخطأ تسفير الجاني لأنه سيعيد التحرّش بفتاة أخرى في بلده، يقول لي بأن تلك هي الطريقة الوحيدة، لأنه لا يستطيع معاقبته من دون إحالة الدعوى للمحكمة، ولن يحيل القضية للمحكمة حفاظاً على سمعة الفتاة. سألته لماذا ينصح الفتاة بعدم المضي في الشكوى، فمن الخطأ عدم تجريم الفعل،

ولماذا عليها أن تخسر سمعتها فهي مجني عليها وليست جانية. كان ردّه بأنه في المجتمع الكويتي لا يوجد وعي قانوني، فإذا تقدمت المجني عليها لوظيفة، أو تقدم رجل لخطبتها، وعلم مقر العمل أو الرجل أنها طرف في جريمة هتك عرض أو تحريض على الفسق والفجور والتي تشمل قولاً أو فعلاً جنسياَ، فمباشرة سيفسّر الموقف على أنها فتاة سيئة وسيحجم عنها، ثم يستدرك المحقق، غالباً بعدما أشرح للفتاة هذه الحقيقة توافق على سحب الشكوى وعدم المضي بها.

أخذ ذلك المحقق يشرح لي ما يراه في المجمعات التجارية: "دكتورة لو رأيتِ كيف أن المجمع مليء بالفتيات اللاتي يمشين لوحدهن وملابسهن ضيقة، لو رأيتِ يا دكتورة كم هو ضيّق ذلك البنطلون الذي ترتديه الفتيات Leggings وكلهن فتيات صغيرات ليس معهن أحد من أخ أو أب أو أم، وبعد أن يتبعهن الشباب و يتحرشون بهن، تحاول الفتيات الهرب من الشباب عن طريق الطلب من رجال الأمن مساعدتهن، رجل الأمن وافد، غالباً من الجنسية المصرية، ينصح الفتيات بالدخول إلى ممرات ضيقة مثل السلالم التي تؤدي إلى مخرج الحريق، لا يوجد في هذه الأماكن أي أحد وغالباً ما تكون مظلمة، فيقوم رجل الأمن بلمس إحدى الفتيات". ثم يشرح لي كيف تأتي الفتاة إلى المخفر مع أمها وكيف يتم تسفير رجل الأمن وعدم المضي بالشكوى.

يخيّل لي أنه من النادر جداً أن تستطيع الفتاة البوح لأمها بما حصل لها، فغالباً ستلوم الأم ابنتها لأنها لم تكن حذرة، وستُلام على ملابسها، وستحرم من الخروج، لذلك فالفتيات غالباً لا يبلّغن عمّا تعرضن له من تحرّش، معنى ذلك أن نصف الفتيات اللاتي يتعرّضن للتحرّش سيتقدمن بالشكوى فقط والنصف الآخر سيصمت، ثم تصطدم الفتاة بعائق آخر حين ينصحها المحقق بعدم المضي بالشكوى، وهو عائق المجتمع الذي سيلومها إن هي كانت ضحية التحرّش.

يقول وكيل النيابة إن قضايا هتك العرض والمواقعة بالإكراه كثيرة، وأنه عندما يستدعي المجني عليها ليأخذ أقوالها تأتيه باكية ومُحطمة، لكنه يتفاجأ بعد استدعاء الجاني بأن المجني عليها تعرفه وأنه لايزال على علاقة معها، أو كان على علاقة معها، ويبدأ بالحلف لوكيل النيابة أنه قد مارس مع المجني عليها كل تلك الأفعال مسبقاً ولم يكن لديها أي مانع، وأنه تفاجأ بقيامها بتقديم شكوى ضده.

هنا قلتُ لِوكيل النيابة: "وإن كانت فعلاً على علاقة به مسبقاً، وإن كانت قد رضيت بالتقبيل أو حتى المعاشرة الجنسية مسبقاً، هذا لا يعني أن الجاني يستطيع إجبارها في كل مرّة يراها، لابد من توافر رضاها في كل مرّة كي لا نكون أمام إكراه، لا يحق للجاني أن يستند على رضى سابق ليفعل ما يريد، لا يستطيع أن يبني أفعاله على رضى سابق. توافر الرضا لازم في كل مرّة".

فيرد عليّ وكيل النيابة أنه يجب أن يعتمد على تحريّات ضباط المباحث، يقول: "الرسائل الهاتفية التي بين الجاني والمجني عليها، وعدد المكالمات، خصوصاً في اليوم الذي وقعت فيه الحادثة، والأيام ما قبل وقوعها، وبعد وقوعها أحياناً تؤكد أن الطرفين لازالا على علاقة".

أقول له: "نعم قد تكون لا تزال على علاقة معه لكن ذلك لا يبرر الاغتصاب، قد تكون خارجة معه بالسيار ولا تريده أن يلمسها، قد تكون معه في مكان خاص ولا تريده أن يلمسها، كونها خرجت معه بإرادتها لا يبرر اغتصابه لها، أتعلم أستاذ مدى الأذى النفسي؟ مدى قهر وانكسار المرأة إذا ما جاءت إليك تقول لك باكية أنه قد تم اغتصابها، بينما ترد عليها أنت أنها كان عليها عدم الخروج مع الجاني، أو عدم الموافقة على رؤيته؟ أو أنها طالما كانت على علاقة بالجاني مسبقاً وسمحت بالفعل ذاته مسبقاً، فلا يحق لها الرفض لاحقاً".

فيقول لي وكيل النيابة وقد انفعل وبدا عليه أنه تضايق من كلامي: "أنا لا أبالي ببكائها ولا بحلفه. عندما تأتيني المجني عليها تبكي، أضع كل دموعها وبكائها في الجرار"، ثم قام بحركة سريعة بيده بفتح وإغلاق جرار مكتبه الخشبي بقوّة، ثم كرر: "لا يهمني بكاؤها ولا حلفه، ما يهمني هو تحريات المباحث، وكثيراً ما يتضح أن المجني عليها تعرف الجاني، بل وقد تكون زوجته المنفصلة عنه جسديا ولا تزال تعيش معه في البيت من أجل الأولاد، وبعض الأحيان أيضاً طليقة الجاني التي تعيش معه بنفس البيت من أجل الأولاد".

أبدي أنا تعجبي: "يواقع زوجته المنفصلة عنه بالإكراه! يواقع طليقته بالإكراه، وأيضاً لا يتم تصديقها!! كيف؟ إن كانت لا تحل له أصلاً؟"

تخيلتُ دموع النساء التي يضعها وكيل النيابة في جرار مكتبه ويغلقه بعنف، تخيّلت دموع النساء تتسرّب ببطء من جوانب وزوايا الجرار، وتتساقط قطرة قطرة على السجادة، فتتكون بقعة داكنة اللون تتسع وتتمدد تحت قدميه.

تخيلت كفتيّ الميزان، إحدى الكفّتين منخفضة تماماً مثقلة بالدموع، تتصبب القطرات من أطرافها. والثانية خفيفة ومرتفعة عن الأولى تملؤها كلمات الحلف.

الملفات

بعد أن تخرّج وصار محققاً، زارني أحد طلابي السابقين، يحكي لي عن عمله، كيف أنه بشكل يومي يتلقى شكاوي التحرّش الجنسي. يقول لي: "تأتي الأم مع ابنتها، وتبدأ البنت بشرح ما حصل، وعندما تنتهي، أنصحهما أنه من الأفضل عدم المضي بالشكوى وتحويلها إلى قضية، لأن ذلك سيضر بمصلحة الفتاة، لأنها يوماً ما سترغب بالزواج، وأن العريس سيسأل ويستعلم عنها وعندما يكتشف أن هناك قضية تحرّش جنسي، حتماً سيلوم الفتاة ولن يفكر ولو للحظة أنها قد تكون ضحية أو مجنياً عليها، كل ما سيراه أنها فتاة سيئة وسيعزف عن الزواج منها. فتقتنع الأم والفتاة، وتُحفظ الشكوى، ولا يتم تحريك ساكن."

أردتُ أن أصرخ في وجهه، لكنني لم أفعل، أردت أن أشدّهُ من ياقته وأهزّه بعنف وأن أصرخ "ما بكم أنتم أيها الذكور؟ ما بها عقولكم؟ أو هل لديكم عقول أصلاً؟ أم أن رؤوسكم هذه ليس فيها إلاّ أساليب لقمع المرأة، لإسكاتها، لربط عفتها بكل خسيس دنيء، لئيم يتعرّض لها ويلمسها من دون رِضاها ومن دون وجه حق؟ إلى متى تتحمل المرأة جُرم الذكور، وقذارتهم، ووقاحتهم، وانعدام إنسانيتهم؟ إلى متى: "لا تفعلي كذا وإلاّ الرجل لن يرغب بالزواج منكِ، ولا تقولي كذا وإلاّ الرجل لن يرضى بكِ". لماذا على المرأة أن تصمت مهما كان حجم الظلم الذي وقع عليها، أن تصمت وتكتم الظلم الذي يدهسها في كل يوم في هذا المجتمع الذكوري المقرف، أن تتحمل الاضطهاد، أن تتحمل العنف والقمع لكي يرغب بها الرجل، لكي تحصل في نهاية طريقها التعيس الوعر على ذكر يتمتع بقهرها أكثر، بقمعها أكثر، باضطهادها وتحقيرها أكثر، بقتلها أكثر.

ملفات محفوظة – خاطرة

فوق أرفف محققي المخافر، في أدراج وكلاء النيابة، داخل خزانات المباحث

هناك ملفات محفوظة، ملفات ورقية صفراء باسم فاطمة، و وفاء، و نور، و روان..

ملفات مهملة تغطيها طبقة كثيفة من الغبار، مصيرها آلة تقطيع الورق

ملفات لا تحمل في طيّاتها أقوالاً لِمُتّهم ولا أقوالاً لِشهود، ولا أي أدلّة

ملفات هزيلة، لا تحتوى إلاّ على ورقة واحدة "أقوال الشاكية"

ملفات مثقلة بالآلام، بالهموم، بالخذلان، بالغضب، والندم، والعذاب

ملفات تشبه أقوال المرأة، مرمية، لا قيمة لها - مجرّد أقوال-

ورقة واحدة مغلّفة بكفن الستر والسريّة، مدفونة تحت التحفظ، والنفاق الاجتماعي، والكتمان

أقوال فتيات ونساء: "لمسني، أمسك بي، دفعته عنّي، حاول تقبيلي بالإكراه، حاول اغتصابي، صرخت، ناديت، بكيت، ثم جئتُ إليك، علّك تنصفني"

ملفات ورقية خاوية، ثقيلٌ صمتها، فوق أرفف عتيدة مغبرة مهجورة تشبه ضمير الرجل.

إن لم يحدث لي فهو لم يحدث لأحد غيري

هاجرتُ إلى أمريكا بعد رفع النيابة في الكويت دعوى جنائية ضدي بسبب نكته كتبتها عبر تويتر، النكتة كانت عبارة عن حوار متخيّل بيني وبين الله أطلب من خلاله حقوق مساوية لحقوق الرجل، كانت النكتة كالتالي:

Me: Dear God, it’s almost my birthday

God: I know!

Me: Can I have a Ferrari?

God: Be Reasonable

Me: Equal Gender Rights?

God: What color Ferrari?

أنا: عزيزي الله، سيحل عيد ميلادي قريباً

الله: نعم، أعرف

أنا: هل يمكنني أن أحصل على فراري؟

!الله: كوني عاقلة

أنا: حقوق مساوية لحقوق الرجل؟

الله: أي لون فراري تريدين؟

وجهت لي النيابة بسبب هذا الحوار التهم التالية: إساءة للذات الإلهية، ازدراء للدين الاسلامي، وإساءة استخدام هاتف.

أما أنا فاعتبرت ما حصل فرصة ذهبية لأطلب اللجوء في الولايات المتحدة، وللرحيل من المجتمع الكويتي المتشدد، لم أعد أطيق الحياة في مجتمع يحرّم كل شيء، ويمنع كل شيء، ويحتقر المرأة ويصغّرها، ولا يؤمن بحرية الرأي والتعبير ولا الحرية الشخصية، ويتدخل في شؤون الناس وفي خصوصياتهم وفي اختياراتهم، مجتمع تطغى عليه الكراهية والعنصرية والفئوية، والقبلية، والطائفية، والطبقية. كما أنني رأيتها كفرصة ذهبية لابنتي جوري التي أعلم كم هي ذكية وأعلم أن الحياة في أمريكا ومستوى التعليم العالي هناك سيمنحها فرصاً أفضل بالحياة، مقارنةً بالتعليم الرديء في الكويت والخدمات العامة المتردية، والوساطة والفساد، وانعدام التطوير وغياب النهضة، وانتشار ظاهرة الشهادات المزورة، ومحاربة الناجحين الطامحين، وشح الفرص بشتى أنواعها، الفرص الوظيفية أو الفرص المتاحة للابتكار والإبداع، ثم إنه لا فائدة من النجاح الأكاديمي في الكويت، لأن من يملك "الواسطة" سيحصل على الفرص ومن لا يملك الواسطة لن يحصل على شيء.

منذ أن رحلت، صرت أكتب كثيراً عبر تويتر عن القيود التي تحد من حرية المرأة في الكويت، وصار عدد كبير من الفتيات يرسلن لي عبر "التواصل الخاص" في تويتر عن تجاربهن الشخصية، عن العنف الذي يتعرضن له من قبل أسرهن، عن الحرمان والتحكم والتسلّط والاضطهاد.

وكنت أنقل معناتهن على شكل تغريدات من دون أن أفصح عن أسمائهن أو أسماء الحسابات التي يراسلنني من خلالها.

تقول لي إحداهن: "أهلي طيبون طالما مشيت على كلامهم وأطعت أوامرهم، لكن ما فائدة الحياة من دون أن يكون لي حق إختيار أي شيء في حياتي؟ لم أختر تخصصي الدراسي ولا أستطيع أن أعبر عن آرائي، لو يعرفون أنني أشك في صحّة الإسلام سيقتلونني بالتأكيد، عشت حياتي إلى الآن "ماشية جنب الحيط" كما

يقولون. عمري الآن 25 عاماً أي إنني في سن الزواج بنظر عائلتي وأعلم أنهم سيزوجونني رجلاً لا أعرفه ولا يعرفني، لن أرى زوجي إلا في ليلة زفافنا...

أنا لا أعرف مستقبلي ولا يحق لي أن أرسم مستقبلي بنفسي، وأشعر أن عمري سيضيع في الكويت، لكنني أخشى الهجرة ولا أعرف الطريقة."

الحب المشروط ليس حباً، ليس حباً أن يعلّم الآباء والأمهات أبناءهم أنهم لا يحبونهم إلا إذا أطاعهم الأبناء وكانوا تماماً كما يريدوهم الآباء أن يكونوا، لكن هذا هو الواقع في الكويت، كما هو في الكثير من الدول العربية البائسة. في معظم الأسر البدوية "القبائل" لا ترى الفتاة الرجل الذي ستتزوجه سوى في ليلة الزفاف، وإذا رفضت الزواج من العريس الذي اختاره لها أهلها فستتعرّض للعنف والاضطهاد.

تقول لي أخرى: "عمري 31 سنة، أنتمي لقبيلة، غير متزوجة، وأتعرّض لشتى أنواع العنف الجسدي والنفسي واللفظي على يد والدي وأخي، وتعرّضت للتحرّش الجنسي أكثر من مرّة على يد أقربائي الذكور في طفولتي وفي مراهقتي، لكنني لم أستطع البوح خوفاً من المزيد من التعنيف. كنتُ أطمح أن ألتحق بالجامعة، خصوصاً أن نسبتي في الثانوية كانت عالية، لكن أبي منعني وأجبرني على الالتحاق بمعهد. وبالرغم من أنني أحمل دبلوم هندسة كمبيوتر إلاّ أنني لازلت محرومة من العمل، فوالدي يمنعني من إيجاد وظيفة. أجبرت من قبل والدي وأخي على لبس النقاب، وعندما اشتكيت منه وقلت أنه يخنقني وقلت لهم أنني أريد خلعه قاموا بتعنيفي، لا أستطيع أن أشتكي من معاملتهم لأي أحد، أخوالي وأعمامي يرون أن من حق أخي و أبي تعنيفي، وأمي لا حيلة لها. أنا أعتبر نفسي ربوبية، لكن لا أستطيع البوح بأفكاري أو إيمانياتي وإلا تعرضت للقتل، أعيش بازدواجية، ألبس النقاب أمام أهلي وأخلعه إذا سمحوا لي بالخروج مع إحدى صديقاتي ونادراً ما يسمحون لي بالذهاب لأي مكان، حاولت الانتحار أكثر من مرّة لكنني لم أفلح."

وتقول أخرى "كنت متفوقة في الثانوية لكن أهلي لم يسمحوا لي بالالتحاق بالكلية التي أريد، محرومة من أبسط الأشياء؛ محرومة من ممارسة هواية أحبها، محرومة من العمل، محرومة من الزواج ممن أريد.

خالي كان يبعث لي رسائل جنسية ويتحرّش بي، وعندما تكلّمت وقفت العائلة بأكملها ضدي من ضمنهم والدتي التي اتهمتني بالجنون. ذهبت لطبيب نفسي بعد عدّة محاولات انتحار سألني الطبيب: "هل تصلين؟"، تقدم لي شاب يحبني وأحبه ومن ذات قبيلتي فرفضه أهلي بحجة أننا شيوخ القبيلة أما هو فينتمي لفخذ من أفخاذ القبيلة ونظروا له بدونية. أقول لكِ ذلك لكي لا تصدقي الأصوات التي تقول المرأة الكويتية قد أخذت حقوقها بالكامل، وتعيش بحريّة، نسبة كبيرة النساء في هذا المجتمع لا يستطعن ممارسة أبسط حقوقهن، ولا يستطعن الكلام وإلاّ تعرضن للعنف أو القتل."

وأخرى تقول: "أتمنى أن تستمري في نشر ما تتعرّض له الفتيات في الكويت، أنا أيضاً أتعرّض للعنف، و شاهدت أمي تتعرّض للعنف على يد أبي منذ طفولتي، أنا أمارس self harm وأعاني من اكتئاب شديد، وبالرغم أنني أرى طبيباً نفسياً إلاّ أنني لا أشعر بتحسّن، ومجبرة على لبس الحجاب، ولو أعبر عن رغبتي في خلعه سأتعرّض للتعنيف. لا يريد أحد أن يتكلّم عن هذه المشاكل، والكل يظن أن الكويتيات يعشن كما تعيش "الفاشنيستات" اللاتي يقضين أيامهن في عرض الأزياء والتصوير والسفر وتناول وجباتهن في أفخم المطاعم، و"الفاشينيستات" لا يستغلن شهرتهن في الحديث عن معاناة وآلام الفتيات المحرومات، بل أحياناً كثيرة يقفن مع عادات وتقاليد المجتمع"!

وأخرى تقول: "أعيش في أسرة يتم تفضيل الأولاد الذكور فيها على الإناث بشدّة، أبي قاسٍ وعنيف ويهددني دائماً بالقتل، ولو أراد قتلي لن يأخذ أحد بحقي، دائماً أرى والدي في كوابيسي وأحلامي المخيفة، لا أشعر بالأمان في بيتي و بين أهلي."

أما اللاتي تعرضن للتحرّش من قبل إخوانهم الذكور أو أقاربهم الذكور، وبعد أن بلّغوا أمهاتهن كان رد الأم ببرودة "ملابسكِ غير محتشمة، في المرّة القادمة البسي شيئاً أكثر احتشاماً ولا تتكلمي عمّا تعرضتِ له مع أي أحد".

كما أن عدداً من الفتيات أرسلن لي صوراً عن البقع والجروح والكدمات المنتشرة في أجسادهن نتيجة للعنف والضرب، لكن لم يسمحن لي بنشرها خشية من أن يتعرف عليهن أحد أقاربهن، بالرغم أن عدداً قليلاً من الصور فقط تظهر فيها ملامح نصف وجه مشوّه من شدّة الضرب.

وهناك أخريات تم إخراجهن من الكلية أو المعهد عنوة وحبسهن في البيت، ومنعهن من الخروج ومنعهن من رؤية أحد، وأُخذ الهاتف منهن لأن الأهل علموا أن الفتاة تتحدث مع شاب.

لا أدري ما الذي جعل نسبة كبيرة من النساء والفتيات يشعرن بأمان كافٍ للتواصل معي ومشاركتي بقصصهن وأسرارهن، قد يكون الحاجز والمسافة التي تفصلني عنهن، وقد يكون أن حساباتهن عبر تويتر "وهمية" لا تحمل أسماءهن أو قد تحمل فقط الأسم الأول، وبالطبع لا تحمل صورهن الشخصية، مما أعطاهم الشعور بالأمان وبإمكانية الحديث عن آلامهن.

لكن ما أحزنني، أنني عندما كنت أعرض تلك القضايا وأتكلم عمّا يحدث من عنف، كان رد الكثير من المتابعين أنني أكذب، أنني قمت بتأليف تلك القصص، وأنه لا يوجد عنف ضد الفتيات في الكويت. بل أن الكويتيات يعشن في نعيم، يدرسن، ويعملن، ويخرجن متى أردن من دون أي قيد على حريتهن أو حقوقهن. الكثير من النساء اتهمنني بالكذب وأنني فقط أرغب بتشويه سمعة الكويت، أكدن لي أنهن لم يتعرضن لأي نوع من أنواع العنف من قبل، وبما أنهن لم يتعرضن للعنف، فلا أحد يتعرّض له من وجهة نظرهن. كنت أسأل هؤلاء النساء: "هل إن أحببتِ رجلاً، ولم يسمح لكِ أهلكِ بالزواج منه بسبب المذهب أو كونكِ من الحضر وهو من البدو (أو العكس)، أو بسبب الطبقة الاجتماعية أو بسبب لون البشرة، أو الأصل (فالكويتية لا يسمح لها أهلها بالزواج من غير كويتي)، هل ستتزوجينه غصباً عنهم؟ طبعاً لا، لأنك ستتعرضين للعنف وستتبرأ منك أسرتكِ وسيحتقركِ المجتمع بالكامل. أنت تظنين أنكِ تتمتعين بحرية كبيرة إلى أن تصدمي بحد من الحدود التي رسمها لك الذكور في أسرتكِ. الشيء ذاته ينطبق على المرأة التي ترفض لبس الحجاب أو

العباية وهي تنتمي لأسرة متديّنة، أو تريد خلع الحجاب أو العباية وهي تنتمي لأسرة متزمتة في الدين، سوف تتعرّض للتعنيف.

كما أن عدداً كبيراً من الردود كان يلوم المرأة المعنفة، لماذا لا تشتكي؟ لماذا لا تذهب للمخفر؟ وكنت أرد على تلك الادعاءات بأنها إذا ذهبت للمخفر ستتعرّض لعنف أشد عندما تعود للبيت، لا سيما أنه لا يوجد ملجأ في الكويت تستطيع من خلاله الفتيات الاحتماء من عنف الأهل. وماذا عن الفتاة الصغيرة التي لا تقود أو يمنعها أهلها من القيادة؟ كيف ستلجأ للمخفر؟ خصوصاً أنه لا يوجد خط ساخن يمكن للفتاة الاستنجاد من خلاله. وماذا عن الفتاة المحبوسة، والتي تم إخراجها من الجامعة أو المعهد عنوة، وحبسها في البيت وحرمانها من الهاتف وحرمانها من رؤية أي أحد، كيف لهذه أن تتصرّف؟ كما أن طبيعة المجتمع الذكوري يعني أن في الكثير من الأحيان عندما تذهب الفتاة إلى المخفر لتشتكي عنف أبيها أو أخيها تجد ضابط المخفر أو المحقق يمتنع عن تسجيل قضية ضد الذكور من أسرتها، فالذكور في المجتمع الكويتي يقفون مع بعضهم البعض ضد الأنثى. ومن أسوأ ممارسات المجتمع الذكوري هو لوم الضحية وتأنيبها على ضعفها.

الذكور أيضاً كانوا يتهمونني بالكذب، وأفادوا أن ما يفعلونه من تقييد لحرية بناتهن وأخواتهن هو من باب الحماية. كنتُ أرد عليهم: "تحمون البنات ممن؟ من الذكور؟ ولماذا لم تربّوا الذكور على احترام البنات وعدم التعرّض لهن بالتحرّش؟ علّمتم الذكر أن يفعل ما يشاء من دون أن يحاسبه أحد، إلى درجة أن أصبح الأخ يتحرّش بأخته، فتقف الأم مع ابنها ضد ابنتها وتنصحها بالاحتشام والالتزام بالصمت، ثم تقولون نحن نحمي الفتيات!"

نقلتُ قصة امرأة تقول أن والدها يضربها و يحرمها من الذهاب للعمل إن لم تعطه راتبها بالكامل. فيرد عليّ البعض: ولماذا لا تعطيه! هو قضى حياته بالصرف عليها! وكنت أرد بأنه ملزم بالصرف على ابنته، أماّ هي فمن حقها أن تعطيه ومن حقها أن تمتنع، ولا يحق له أبداً تعنيفها لأخذ أموالها.

نقلت قصة لامرأة مطلّقة تقول أنها بعد سنوات من تعنيف الزوج طلّقت منه لكن أسرتها ألزمتها بالعودة والعيش في بيت والدها كما تفعل معظم الأسر في الكويت،

حيث عادت كما كانت قبل الزواج، تحت رقابة أبيها وإخوانها الذكور، ولديها عدّة أطفال، وبالرغم أنها تعمل إلاّ أنها تتحمل ديون قروض وتكاليف أبنائها، وفوق ذلك تتعرّض للهجوم والتحقير من قبل والدها وإخوانها، يهددونها باستمرار أنها إن لم تطعهم فسيحرمونها من أبنائها. قالت لي من باب رغبتها في التنفيس عن الضغوطات التي تعيشها "أحب أبنائي لكنني أتمنى لو يأخذ طليقي حضانة أبنائي لفترة وأسافر إلى مكان ما لوحدي، أشعر بضيق وحزن شديد، وعندما أطلب ذلك من أهلي يحقرونني و يهددونني إن حاولت السفر". رد الكثير من المتابعين لي بغضب شديد: "وكيف لها أن تتخلى عن مسؤولية أبنائها؟ ومن قال أن لها الحق في السفر والراحة، ومن سيهتم بأبنائها وهي تتمتع بالخارج"! طبعاً لوكان رجلاً يريد أن يأخذ إجازة من مسؤولية زوجته وأبنائه، لما كان هناك غضب في الردود. لكن المرأة لا يحق لها الراحة والاستمتاع فهي عبدة لأبنائها وأسرتها."

وترد إحداهن بأنه لا يوجد تمييز بين الذكور والإناث في الأسر الكويتية، فهي الفتاة الوحيدة بين عدة إخوة شباب ووالدها يعاملها كما يعامل أبناءه الذكور، يعطيها ذات المصروف مثلاً، فسألتها: "وهل يحق لكِ خلع الحجاب إن شئتِ بذلك؟ هل يحق لكِ الخروج حتى الفجر كما يفعل أخوتكِ الذكور؟ والسفر مع صديقاتك؟ أو أن تقضي عطلة نهاية الأسبوع في الشاليهات مع صديقاتكِ، كما يفعل إخوتكِ الذكور؟" فردّت عليّ: "لكنني لا أحب السفر أو الخروج"! تُقنع الفتاة نفسها بأنها لا تحتاج للحرية، بأنها تتمتع بحرية كافية لها هي كفتاة، بعد أن رأت بوضوح أن تعديها على الحدود التي رسمها لها مجتمعها الذكوري والذكور في البيت سيعرضها للتعنيف. فهي تفضّل أن تعيش في وهم أنها لا ترغب بالحقوق والحريات، لأن العيش في وهم أسهل وأفضل بكثير من رؤية الحقيقة، وهي أنها مضطهدة ومسلوبة الإرادة، وأن أي محاولة ثوران على تلك القيود والحدود ستعرضها للتعنيف.

أعرف عدداً من الفتيات في الكويت اللاتي أخذن زمام الأمور وهربن من جحيم البيت والأسرة. هؤلاء البنات عشن تحت وطأة الحرمان منذ بداية حياتهن، كل شيء ممنوع، إلى درجة أن إحداهن قالت لي أنها

كانت تشتري الروايات بالسر و تقرأها في الحمام بعد تشغيل "الدوش" حتى لا يشك فيها والدها الذي حرمها من قراءة الروايات! هؤلاء الفتيات أجبرن على لباس الحجاب والنقاب والعباءة منذ سن صغير، وحرمن من الخروج، ولم يمروّا بفترة مراهقة، وأجبرن على تخصص معيّن، وعملن بالوظائف التي أجبرن

على العمل فيها لمدّة مؤقتة، حيث لم يسمح لهن بالالتحاق بالعمل الذي يرغبن به، يقمن بتجميع مبلغ من المال، ثم بعد ذلك يتركن البيت، ويتركن الوظيفة التي يكرهونها وينتقلن للعيش لوحدهن في شقة صغيرة وبسيطة الثمن، ويعملن بوظيفة أقرب لطموحاتهن إن استطعن، لكن هذا الخيار غير متوفر لكل الإناث ذلك، هذا التمرّد قد يعرّضهن للخطر، فقد يتعرّضن للتعنيف وحتى للقتل. وطبعاً في هذه الحالة يجب قطع العلاقة تماماً مع العائلة بالكامل وليس فقط الأم والأب والأخوة، وفرصهن في الزواج تكون شبه معدومة لأن المجتمع لا يرحم الفتاة المستقلة بذاتها.

الفتاة في الكويت يجب أن تختار بين الأهل والمجتمع وبين الحرية، لا يحق لها أن تجمع بين الإثنين، وتدفع الثمن غالياً إن اختارت الحرية، فالمجتمع ينبذها ويلعنها طوال حياتها.

أما الفتيات اللاتي يتمتعن بجزء من الحرية أي أن أسرهن تسمح لهن بالخروج بالذهاب للمقاهي، بلبس البنطلون ولا يجبرونهن على العباءة أو الحجاب، هؤلاء الفتيات يمثلن الأقلية، وتعتقد تلك الفتيات أنه بما أنهن يتمتعن بهامش جيّد من الحرية ولا يتعرّضن للتعنيف فمن الطبيعي ومن المؤكد أن الفتيات الأخريات لا يتعرّضن له أيضاً.

كما أن الكثيرون يظنون أن التعنيف مقتصر فقط على الضرب والعنف الجسدي. لكن إجبار المرأة على لبس الحجاب عنف، وإجبارها على لبس العباءة والنقاب عنف، وتقييد حرية المرأة في اختيار التخصص الدراسي عنف، وحرمانها من الدراسة والعمل عنف، وإجبارها على الزواج عنف، وحبسها في البيت عنف، وإلزامها بالصمت إن هي تعرّضت للعنف الجنسي عنف، لا سيما طبعاً العنف النفسي من تحقير وتسفيه، والعنف اللفظي من سب وشتم وقذف.

أقصاها امرأة

خالد نقا العازمي ضابط أمن كويتي ينتمي لقبيلة بدوية قتل صحفية كويتية السيدة هدية السلطان في 2001 لأنها كتبت في مقالة أنه في الماضي كانت النساء في الكويت يحضرن راقصات من المنطقة التي تسكن فيها قبيلة العوازم للرقص في الأعراس. قتلها عمداً بستة طلقات في الشارع وفي وضح النهار أمام الناس دفاعاً عن شرف قبيلته

وفقاً للقانون الكويتي الجنائي كان يجب أن يُعدم القاتل،

وفقاً للشريعة ومفهوم القصاص (النفس بالنّفس) كان يجب أن يُعدم،

ووفقاً للأعراف القبلية البدوية (الثأر) كان يجب أن يُقتل

لكنه سُجِن ولم يُعدم، لماذا؟

لأن حياة المرأة في الكويت رخيصة

ولأن القضاء الكويتي فاسد يسمح بالمحسوبيات، والوساطات، والتدخلات العشائرية، والقبلية ويتأثر بها ويتبناها في قراراته، ولأنه قضاء غير حُر وتحت سلطة وسيطرة الحاكم وأهوائه. ولأن المجتمع الكويتي ذكوري أبوي يسترخص حياة المرأة مقارنة بحياة الرجل. تم سجن المجرم بدلاً من إعدامه بالرغم من كونه ضابط أمن، وقد قتل المجني عليها بالسلاح الحكومي الذي رَخّصَت له الحكومة حمله حمايةً للأبرياء وليس لِقتلهم، هذه العوامل من شأنها تغليظ العقوبة وليس تخفيفها.

الحكم الذي صدر على المجرم هو السجن المؤبد، لكنه سيخرج الآن (إبريل 2019) بعد 19 سنة من الحبس بعد أن شنّت قبيلته حملة لجمع "الديّة" بمقدار عشرة ملايين دينار، وقيل بأنها أكبر حملة جمعت أكبر ديّة في تاريخ الخليج. و"الديّة" في الأصل هي المبلغ الذي يجوز لأهل المقتول قبوله من أهل القاتل إذا كان القتل خطأ، أما القتل العمد فالأصل أن يُواجَه بالقصاص وليس الديّة .

قتل النساء بدافع الشرف أصبح أمراً شبه عادي في الكويت بعد أن قُتلت خمسة نساء كويتيات على يد أبائهن أزواجهن وأشقائهن في 2018 من دون أي استنكار من قِبل المجتمع، أو الحكومة، أو تغليظ العقوبات من قِبل البرلمان الكويتي الفاشل

فالمرأة في الكويت هي "الآخر"، الجنس الآخر، الجنس الأدنى، وعندما يتم تحويل أي كائن حي إلى "الآخر" يصبح من العادي ومن الطبيعي تعنيفه، و "تشييئه"، و حرمانه من حقوقه و حرياته، و إزهاق روحه.

"المرأة في الكويت هي "الآخر"، والوافد الأجنبي في الكويت هو "الآخر"، والحيوان في الكويت هو "الآخر

ففي 2012 تم جمع الدية لشاب ينتمي لقبيلة بدوية بعد أن قتل طبيباً وافداً عمداً في أحد المجمّعات التجارية، بسبب خلاف دار بينها على موقف سيارة.

أما الحيوان فيتم دهسه في شوارع الكويت وتعذيبه بشكل عادي ومستمر من دون استنكار أو استهجان.

أتخيّل الذكور في "الدواوين" أثناء تبرّعهم للإفراج عن المجرم القاتل يرددون "أقصاها امرأة" ويخرجون رزمة الدنانير من جيوبهم،

أتخيّل كل من رقص واحتفل بخروج المجرم القاتل، حالياً يفكر بشيء من النشوة: أي امرأة سيقتل يا ترى؟ أخته؟ زوجته؟ ابنته؟ أمه؟ إحدى عشيقاته؟ أو امرأة أجنبية عنه تماماً تفوّهت برأي لم يعجبه؟ فيصبح مشهوراً وبطلاً لدى قبيلته، ويتحدث عنه الناس في مواقع التواصل الاجتماعي، وينادون بالإفراج عنه، ويطالبون بجمع ديّته، فيشعر أنه ذو أهميّة وذو شأن، ويرقصون ويحتفلون بخروجه من السجن،

أتخيّل أهل المقتولة الذين سيتقاسمون العشرة ملايين دينار ويستمتعون بها، ماذا سيشترون بقيمة فقيدتهم؟ يختًا؟ أرضاً؟ قصراً؟ فالمرأة في الكويت ليست إلاّ شيئاً.

التعدّي الصغير

Micro Aggression

عندما نتكلم عن العنف الواقع على المرأة في المجتمع الذكوري الأبوي الكويتي، فإن الصورة التي تثيرها كلمة عنف في مخيلتنا مباشرة هي العنف الجسدي الناجم عن الضرب والتعذيب، أي الألم الحسيّ الواقع على جسد المرأة. لكن للعنف صور كثيرة أخرى؛ العنف اللفظي وهو الذي يتمحور حول كلمات التحرّش، أو التهديد، أو الشتم، أو التحقير والتنمّر، وتتعرض المرأة الكويتية للعنف اللفظي بشكل يومي وعلى نطاق واسع جداً، فإحدى الفتيات ذات بشرة سمراء تحكي لي كيف تتعرّض للتحرّش من قِبل ذكور في الأماكن العامة وعندما تتجاهلهم، يرمون بأبشع الكلمات عليها وبصوت مرتفع: "يا العبدة"، "يا التاير[12] "، "ريحتج[13] صنان[14] عبيد". أما الفتاة البدينة فيلاحقونها الذكور وإن تجاهلتهم سخروا من جسدها "يا الدبّة"، "يا الكَبَت". وبشكل عام كلما تجاهلت المرأة تحرّش الذكور نادوها "يا النعال". فالذكر يتغزّل بالمرأة إلى أن تعبّر عن عدم رغبتها به، فيتحوّل كلامه مباشرةً من غزل إلى سب وقذف وإهانات.

إلكترونياً أيضاً تتعرّض المرأة لنفس التحرّش ونفس التعدّي. كان أحدهم يتواصل معي عبر الرسائل الخاصة في تويتر، في البداية لم أمانع لأنه كان يناقشني عن مواضيع سياسية واجتماعية، لكن كلامه بدأ بالتغيّر تدريجياً، صار يكتب لي كلمات غزل، شعرت بعدم ارتياح فطلبت منه بكل احترام التوقف. لم أتفاجأ عندما وصفني بالمعقدّة، فقد تعرضت لذات الموقف أكثر من مرّة، أتحاور مع رجل كويتي بقصد الصداقة لا أكثر، وعندما أضع حداً للعلاقة وأذكره بأنه مجرّد صديق وأطلب منه باحترام ألاّ يتعدّى حدود الصداقة، يصفني مباشرةً بالمجنونة أو المعقدة أو المريضة.

بخلاف ما يظنه الكثيرون؛ أن الحجاب هو وقاية للمرأة من تطاول الذكور وأنظارهم وألسنتهم، فالمحجبة تتعرّض للتحرّش باستمرار، وعند تجاهلها لوقاحة الذكور، يبدؤون بالسخرية من حجابها، فيتحوّل المتحرّش الخسيس بقدرة قادر وبغضون ثوانٍ إلى رجل دين ووصي على تلك المرأة المحجبة، فيطعن بدينها وحجابها وبأن حجابها لا يدل لا على دين ولا تديّن، وأنه مجرّد زينة، ولا يغطي شعرها بشكل صحيح، وأن ملابسها

[12] تاير هي الكلمة العاملة لعجلة السيارة
[13] رائحتكِ
[14] الرائحة الكريهة

لا تتناسب مع امرأة محجبة، إلخ. وحتى المرأة التي تلبس العباءة لا تنجو منهم، فيتم التحرّش فيها بسبب أن عباءتها مزركشة أو أنها تظهر شكل الجسم وإن لم تكن ضيّقة، وانتشر "هاشتاق" أو وسم #العباءة_المزركشة عبر تويتر للسخرية من النساء اللاتي يلبسن العباءة التي تحمل عليها بعض النقوش، أو التي لا تكون سوداء تماماً، فيختلط فيها لونان كالأسود والأبيض مثلاً، وفي هذا "الهاشتاق" الذي تم إطلاقه من قِبل ذكور، لم يترك المغردون الذكور كلمة سيئة لم يلصقوها بالمرأة التي تلبس العباءة المزركشة، فوصفوها بالعاهر، والرخيصة، وغيرها من الكلمات.

إلى جانب العنف اللفظي، هناك ما يسمى "بالتعدّي الصغير" أو باللغة الإنجليزية Micro Aggression

وبالرغم أن العدوان أو التعدّي الصغير لا يقتصر فقط على تعدي الرجل على المرأة أو المرأة على المرأة، أي لا يقتصر فقط على التمييز الجنسي أو "الماسوجينية". بل يقع التعدي الصغير من خلال التمييز العنصري أيضاً. يحصل عندما يصغّر ويهمّش المواطن الوافد مثلاً، أو عند التمييز ضد الآخر بسبب لون البشرة أو اللهجة أو الدين أو المذهب أو الأصل. والعدوان هنا لا يشترط أن يكون كلمة مهينة من سب أو شتم لكن بكلمة تخدش آدمية "الآخر"، ففي الكويت هناك تمييز بين العوائل الأصيلة وغير الأصيلة، بين البدو والحضر، بين الشيعة والسنة، بين البيض والسمر، بين الكويتي وغير الكويتي، بين كويتي الأبوين وبين من تحمل أمه أو والده جنسية أخرى. فمجرّد السخرية من لهجة الآخر أو قول "هذولا مو من مواخيذنا" أو "هذولا مو أصيلين" أي لا نحن لا نتزوّج من هؤلاء فهم ليسوا بمستوانا، بسبب المذهب أو الأصل أو غيره يعتبر عدواناً صغيراً. بل يتحقق هذا النوع من العدوان بالتعدي على المعاق بأخذ موقف السيارة الخاص به، أو بإهانة المريض النفسي بوصفه بالمجنون.

لكنني هنا سأركز على التعدّي الصغير الذي تتعرّض له المرأة بسبب التمييز الجنسي. في هذا النوع من العنف تتعرّض المرأة لكلمات قد لا تعتبر شتماً أو قذفاً أو سخرية مباشرة، لكنها تمس آدميّتها، وبما أن هذا العدوان صغير جداً ويتكرر يومياً فهو يعمل تدريجياً على تفتيت وتكسير ثقة المرأة بذاتها. مثال على ذلك، تذهب المرأة للعمل صباحاً فتعلّق زميلاتها على جسدها "تبدين سمينة! هل اكتسبتِ وزناً إضافياً؟"، أو أن تكون المرأة تمر بظروف شخصية وتبدو شاحبة الوجه فيعلّق مسؤولها "لماذا أنتِ دائماً كئيبة و نكديّة، ألا تبتسمين أبداً؟"، تعود للبيت منهكة فيحلق زوجها بها وهي تتناول معه وجبة الغداء ثم يقول "أهذا شيب في رأسكِ؟ لقد أصبحتِ عجوزاً حقا"، وعندما تقول له أنها لن تأكل الحلويات بعد الغداء لأنها تريد تخفيف وزنها، يضحك بسخرية و يقول "لن تخسري الوزن أبداً، فلماذا لا تأكلين الحلويات!" تود لو تقول له، أنها

ترغب بشيء من الدعم النفسي، تود لو يرى إيجابياتها بدلاً من أن يتصيّد عيوبها والشعرتين البيضاوتين في رأسها، لكنها تعلم أنها لو تكلّمت فسيغضب ويقول لها أنها شديدة الحساسية ونكدية ولا تعرف معنى المزاح.

مديرة قالت للموظفين والموظفات الذين ترأسهم في إحدى الدوائر الحكومية أنها ستأخذ إجازة وستختار أحداً منهم ليحل محلها أثناء غيابها، فذهبت إلى مكتبها إحدى الموظفات تعرض عليها إمكانياتها بالإدارة، مؤكدة أنها تملك القدرة والكفاءة لتحل محلها في غيابها. فردّت عليها المديرة أنها لن تختارها هي لأنها لا تثق بمهارة أو قدرات النساء وأنها ستختار أحد الموظفين الذكور.

كنت في دورة تدريبية لم يكن فيها أي حضور سواي أنا ورجل يعمل مسؤولاً في إحدى المدارس الخاصة. قمنا بالتعريف بأنفسنا في بداية الدورة، لذا يعرف المدرب أنني دكتورة في الجامعة، لكنه طيلة الدورة (مدة الدورة يومان) كان يخاطبني بِ "يا أختي" بينما كلما خاطب الرجل قال له "سيدي الكريم"، لا يهمني إن ناداني أختي إذا كان ينادي الرجل أيضاً بأخي، لكنه أعطى وزناً أكبر للرجل فقط لأنه رجل.

كما كنت أكتب بحثاً عن الجرائم المخلة بالشرف في الكويت، وكنت أذهب لوكلاء النيابة لأسألهم عن الجرائم التي حققوا فيها، فيخاطبني وكلاء النيابة بِ "أختي" بالرغم أنهم يعرفون أني دكتورة بالجامعة وأنا أناديهم بِ "أستاذ" احتراماً لمناصبهم واحتراماً للمهنية التي أفضّل أن أتعامل بها، لكن الذكر الكويتي يظن أنه شرف كبير بالنسبة لي أنه يعتبرني أخته، فهو يظن أنه قد رفع من مقامي بمناداتي بِ "أختي" بدلاً من الالتزام بالمهنية.

هذا غير الزملاء الذكور بالعمل الذين يغدقون عليّ بالنصائح كلما رأوني بالرغم أنني لم أطلب نصائحهم، و يُعلّمونني ما يجب عليّ فعله و قوله، وما يجب عليّ الامتناع عن فعله و قوله، وينظّرون لنواياي، و يعبرون عن عدم رضاهم عن آرائي و نظريّاتي وأسلوبي في التدريس لأنهم يرون أنفسهم أفضل مني لمجرّد أنهم ذكور، يتلهفون بإغراقي بتجاربهم وخبراتهم المثيرة،بشكل شبه يومي، أثناء العمل يقف عند مكتبي أحد زملائي الذكور ليقول لي:

"أنا لا أعرفكِ معرفة جيدة لكن لكِ هذه النصيحة مني، وهي نصيحة لوجه الله، ليس لي في نصحكِ أي مصلحة" وكأنه يجب عليّ أن أشكره أو أن أكون ممتنة لأنه تكرّم بنصحي رغم أنني لم أره شخصاً كفؤا

للنصح منذ أن كنت أنا طالبة في كلية الحقوق. ومثل هذا الرجل لا يمكن أن يتجرأ ويقول لأحد زملائه من الأكاديميين الذكور: "خذ هذه النصيحة لوجه الله"، هذه الجرأة يمارسونها فقط على المرأة.

أحدهن تقول لي أنها دفعت لأحدهم لتصليح التكييف في بيتها لكن المشكلة استمرّت، كررت التواصل معه، وفي كل مرة يحضر للمنزل لكنه لا يصلح المشكلة بشكل نهائي، يعمل التكييف لمدة مؤقتة ثم يتعطّل ثانيةً. فقدت أعصابها وصرخت عليه بأنه أخذ أموالها ولم يصلح التكييف، فغضب هو وقال لها "احترميني أنا رجل". فردّت عليه وما دورك أنت في أنك ولدت رجلاً! هل اخترت أن تولد رجلاً!؟ لكن الذكور يؤمنون تماماً أنهم يستحقون الاحترام والتبجيل من قِبل المرأة لمجرّد أن الصدفة أنجبتهم ذكوراً.

تقول لي إحدى النساء أنها تسكن في أحد البنايات في منطقة السالمية المزدحمة: "كل صباح أجد هذا الرجل المسن جالساً على أحد الكراسي بجانب البقالة يبحلق بالنساء، كل ما ركبت سيارتي صباحاً ذهاباً للعمل، كل ما عدت بسيارتي ظهراً عائدة من العمل، كل ما خرجت لأخذ الملابس للمصبغة أو للمشي أو لشراء الحاجات، أجد هذا الرجل المسن يبحلق في، حاولت أن أوجه له نظرة غاضبة لعلّه يفهم أنني متضايقة من نظراته، لكنه لم ينزل عينيه بل استمر بالبحلقة وكأنه يتحداني. فقلت له بصوت عالٍ أنه عيب عليه البحلقة بالنساء طوال النهار وأنه يضايق النساء ويضايقني بشكل خاص، فلا شأن له بوضع ذلك الكرسي على جانب الشارع للنظر لكل من يذهب ويجيء، لكنه تظاهر بأنه مصدوم، وادعى أنه لم يرني قط ولم ينظر إليّ وأنه يحب الجلوس هنا وتدخين السيجارة. سمع بعض الرجال السجال فقالوا لي اتقي الله فهذا رجل مسن ويجب عليّ احترامه! رددت عليهم، ولماذا لم يحترم هو نفسه؟ لماذا على المرأة احترام الرجل بينما الرجل لا يحترم المرأة. ثم قالوا لي بأنه يجب عليّ أن أهدئ من أعصابي وبأنه لا داعي لكل ذلك الغضب."

في كل مرّة تغضب المرأة من تصرفات الرجل الذي آذاها أو ضايقها يُقال لها "هدئي من أعصابك، لا داعي لتضخيم الأمور"، أو يُقال لها أنها تحب "الدراما" أو أنها مجنونة أو معقدة أو مريضة. وكأنه لا يحق للمرأة الغضب أو الاعتراض على ما تتعرّض له من تعدٍ من قِبل الرجل، كأنه يجب عليها أن تتحمّل أي تصرّف وأي قول من قِبل الرجل مهما كان يضرها.

إحدى الفتيات تقول أنه منذ تطلّق والداها، وأخوها يبالغ بلعب دور الأب في البيت، يمنعها من كل شيء و ينهرها ويصرخ عليها و يتحكّم في تصرفاتها، إلى درجة أنها كانت تناقش والدتها برغبتها في إكمال

دراساتها العليا في الخارج بعد التخرّج من الجامعة، فتدخّل هو و صرخ عليها بأنه لا يحق لها السفر لا للدراسة ولا لأي سبب آخر. تقول أنها أحياناً تصل لمرحلة تفوق صبرها فيتشاجران، لكنها تجد أمها في كل مرّة تقف مع أخيها و تبرر تصرفاته، وتغضب من ابنتها لأنها تشاجرت معه ولا تكلّمها أياماً!

أخرى تقول أنه في كل مرّة تناقش أخاها بموضوع ويتضح أن كلامها هي أصح من كلامه، يغضب منها ولا يكلّمها أياماً!

صديقة لي تعمل في إحدى الشركات الخاصة التي تتمتع بجو عمل لطيف، عدد الموظفين قليل، أعمارهم صغيرة ومتقاربة، وهناك نوع من الألفة واللطافة بين الذكور والإناث. تقول لي: "زملائي الذكور يحكون معي ويضحكون معي باستمرار وأشعر أنهم أصدقائي، لكنني أعلم أن الأمر سطحي فقط، لو يعلمون أنني مثلية مثلاً لن ينظروا لي بنفس الطريقة، أو سينصحونني بالتقرّب من الله، أو يدعون لي بالهداية، أو سيتجنبونني. لكن الأمر ليس فقط متعلّقا بكوني امرأة مثلية. لو أثرت موضوع أنني أعيش لوحدي بعد أن تركت بيت أهلي الذي تعرضت فيه للكثير من العنف، أيضاً سيتحوّل "أصدقائي" إلى واعظين وسيقولون لي أنه لا يصح لامرأة أن تعيش وحدها، وماذا سيقول الناس؟ لذا أعرف أن صداقتنا سطحية ولا يمكن للذكر الكويتي أن يتفهّم."

التعدي الصغير قد يكون كلمة لا ترتقي للشتم لكنها تؤثر في ثقة المرأة في ذاتها، قد يكون نقداً مباشراً لشكلها أو مظهرها، قد يكون على شكل تكذيب المرأة عندما تتعرض لتعدٍ من قِبل الذكر، قد يكون تحقيرها وتحقير رأيها، قد يكون في اتهامها بأنها تبالغ وأنها تعاني من أمراض نفسية، وقد يكون بتفضيل الأم للابن بالوقوف في صفّه ضد الابنة حتى لو كان مخطئاً، وقد يكون بغضب الرجل من المرأة فقط لأنها تغلّبت عليه بالنقاش أو صححت له معلوماته، كل هذه الأمور تؤثر في المرأة وفي قدرتها على مواجهة الحياة في المجتمع الذكوري، خصوصاً أن مثل هذه الممارسات الصغيرة تحدث بشكل شبه يومي أو تتكرر باليوم أكثر من مرّة، وتشعر المرأة بالحرج أو الخوف من الاعتراض عليها خوفاً من أن يُقال لها أنها مجنونة أو أنها تبالغ أو أنها لا تتحمّل أي كلمة من الغير، فتصمت وتتأثر من دون القدرة على البوح بما يضايقها وبما يؤثر على نفسيتها.

تخشى المرأة التغريد في مجتمع يظن أن التحكم حب

تحصل معي كثيراً، أكتب تغريدة نسوية أو تغريدة جريئة فيها نقد لاذع، تحادثني بعض النساء عبر الخاص في "تويتر" ويحكين لي أنهن يرغبن في إعادة التغريد أو التفاعل مع التغريدة لكن بسبب متابعة أزواجهن، إخوانهن، أو آباءهن، يخشون القيام بذلك. يصل حد التحكّم بالمرأة في المجتمع الذكوري إلى الخوف من الإعجاب بتغريدة، أو إعادة التغريد، أو التفاعل مع رأي. تخشى المرأة من عنف الرجل إذا هي عبّرت عن آرائها، أو اتفقت مع أخرى في رأيها.

أما الرجل الذي يراقب ويعنّف المرأة التي تعبّر عن آرائها، والتي تعيد تغريد رأي يعبّر عن تسلط الذكور، يعتبر تحكمه هذا حباً. هو يحبها إذن فهو يتحكم بها، هو يحبها إذن فهو يعنفها إن هي عبّرت عن رأي لا يعجبه. ومن أين تعلّم الرجل هذا النوع من الحب الذي هو في حقيقته تحكّم وعنف؟ من والده الذي يعنّفه ويقول له أن تعنيفه حب، من والده الذي يتحكّم به ويتحكّم بقراراته ويوهمه أن ما يفعله هو حب، وخوف واهتمام، ويجب عليه أن يشكره على كل ذلك التحكّم فهو يخاف عليه ويبحث عن مصلحته. يتعلمه عندما يرى والده يصرخ على أمه ويأمرها بالسكوت فترضخ، ويصرخ على ابنته ويأمرها بالسكوت فترضخ وإلا تعرضت الأم والأخت للضرب.

هذا الأب المتسلّط المتحكّم أيضاً يرضخ تماماً لحاكم يتسلّط عليه، ويتحكّم به، ويظلمه، ويقمعه، ويوهمه أن كل ذلك كان حباً فيه وخوفاً على مصلحته. يدعي هذا الحاكم أنه الأب والشعب كلهم أبناؤه، وكما يحصل من قِبل الأب في محيط الأسرة داخل البيت، ظاهرياً يبدو هذا الحاكم ليناً متفهماً متواضعاً مع "أبنائه"، إلى أن يعبّر أحد "أبنائه" عن رأي لا يعجبه، أو ينتقد قانوناً أو نظاماً تعسفياً مقيداً لحقوقه وحرياته كفرد، أو يطالب بالمزيد من الحريات، حينها يَظهر هذا الحاكم "الأب" على حقيقته كطاغية ويرمي "أبناءه" بالسجن، ثم يظهر إعلامياً ويُقر بأنه لا يوجد في بلده سجناء رأي، وأنه كفل لشعبه النهضة وحريّة الرأي والتعبير،

فتصمت المجاميع بالرغم من حاجتها للانتقاد خشيةً من الحبس. هذا النظام يتطابق مع ما يفعله الرجل داخل نطاق الأسرة، بعد أن يقوم بترهيب أسرته بعدم مخالفته، وتهديدهم إن أبدوا آراء لا تعجبه، أو خرجوا عمّا يعتبره هو مسموحاً، يُقر بأنه غير مقصّر في حقوقهم وأنهم بفضله منعمّون مترفون، بينما الواقع أنهم يخشون الانتقاد والبوح بما يشعرون به من قمع وتحكم وتقييد للحريات، لعلمهم مسبقاً أن مصيرهم هو التعنيف.

التحكم في المجتمع الذكوري الأبوي يستمد شرعيّته من الدين الذي ينص على طاعة أولي الأمر ويعتبرها امتداداً من طاعة الله، كما يظن الرجل في المجتمعات الذكورية الأبوية أنه آلهة، باعتبار أن الذكورة والألوهية صفتان متلازمتان في الأديان السماوية.

هذا المجتمع الذكوري الأبوي لا يحرمك فقط من التعبير عن الرأي، بل يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، يحرمك من تكوين رأي، يحرمك من الوصول إلى الرأي عن طريق منع الكتب. القراءة في الآراء الفلسفية والسياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية المختلفة هي الوسيلة الوحيدة لتكوين رأيك الخاص، والطريقة الوحيدة للاطلاع على البدائل حين تشعر أن الفكر والسلوك الموروث في مجتمعك خاطئ ولابد من تجديده، كما أن قراءة آراء من عارضوا أنظمتهم وعاداتهم المقيّدة يفتح أمامك مساحة شاسعة من الحرية في التفكير، ويوسّع ادراكك، ويمكنّك من النظر إلى ما هو أبعد من الواقع وبإمكانية خلق واقع جديد، ويقلّص وحشة الشعور بالوحدة، الوحدة التي تشعر بها عندما تتساءل ما إذا كنت الوحيد الذي يشعر بأهمية التغيير.

قراءة الكتب ضرورية جداً لخلق الوعي لدى الفرد وتمكينه من التمرّد على التقاليد الرجعية التي تمنعه من النمو والمضي وتطوير الذات والمجتمع الذي يعيش فيه. والدليل على ذلك قيام الكويت بمنع 4.590 كتاب في الخمس سنوات الأخيرة، شملت الكتب الممنوعة روايات، ودواوين شعر، وعدداً كبيراً من الكتب الفلسفية والدينية والسياسية الاجتماعية والاقتصادية والعلمية. وماذا كان تبرير السلطة الكويتية لمنع كل هذه الكتب؟ حماية الأفراد، وحماية الشباب من الانجراف وراء هذه الأفكار التي قد تؤثر على عقولهم وتؤثر على المجتمع. باعتبار أن الشباب هم الفئة الأكثر تعطشاً وتقبلاً ورغبةً في التغيير. تمنع المجتمعات الذكورية الأبوية التفكير عن طريق منع الكتب وقمع حرية الرأي والتعبير وتوهم أفرادها في ذات الوقت أن ما تمارسه ضدهم من قمع هو في صالحهم، وحمايةً لهم.

يدعي الحاكم "الأب" أنه يحمي أبناءه، لكنه في الواقع يحمي شرعيته وسلطته. يدعي أنه يحمي "أبناءه" من انتشار الأفكار المطالبة بالمزيد من الحقوق والحريات، لأن في ذلك خروجاً عن العادات والتقاليد والدين، الذي بدوره سيؤدي للخروج عن الاستقرار والترف الظاهري الذي يتمتع به المجتمع، فيرمي بالمفكرين وبالمعارضين بالسجون كما يحصل الآن في الكويت (حيث يوجد 70 سجين رأي) وتتراجع وتصمت الآراء المثقفة الطامحة للتغيير خشيةً من السجن، ويخشى الفرد من التعبير عن رأيه في مواقع التواصل الاجتماعي أو حتى إعادة تغريد رأي يطالب بالتغيير، هكذا تستمر الأنظمة القامعة بالسيطرة وبالحكم.

الأسرة هي النواة المصغّرة للمجتمع، والمجتمع هو النواة المكبرة للأسرة، ما يحصل في الأسرة يعكس ما يحصل في المجتمع والعكس صحيح. في كل بيت في الكويت، نشأ فيه الأبناء وهم يدركون حق الإدراك أن هناك أفكاراً وآراء لا يمكنهم البوح بها أمام الأب خشيةً من غضبه والعقاب، وفي ذات الوقت تم تلقينهم من قِبل هذا الأب بعدم التعبير عن آرائهم السياسية ولا سيما المعارضة منها حتى لا يتعرّضوا للسجن.

الذكوري المتديّن والذكوري الليبرالي:

وجهان لعملة واحدة

انتشر خبر قيام حكومة الكويت بمنع 4.590 كتاباً في مواقع التواصل الاجتماعي في أواخر أغسطس 2018. وشعرتُ كأكاديمية ودكتورة في القانون وعندي إيمان بالدستور الكويتي (رغم أن إيماني بالدستور والديمقراطية في الكويت مات منذ زمن) الذي يحمي حرية الرأي والتعبير والنشر، أنه من واجبي التصدي على ذلك التعدي الصارخ على الدستور بمنع الكتب، وأنه من الخطأ السكوت عن منع الكتب، فاليوم الحكومة تمنع الكتب، وغداً تمنع التجوّل، أو تتنصّت على المحادثات الهاتفية! أما عن تقييد حرية الرأي، فقد بَرَعت الحكومة الكويتية بملاحقة وسجن كل من يعبّر عن رأي سياسي معارض أو رأي ديني مخالف، حسب التوثيقات الرسمية أثناء كتابتي لهاذا المقال في مايو 2019 تنظر المحاكم الكويتية لما يقارب 5000 قضية رأي يتم من خلالها محاكمة أشخاص عبّروا عن آراء سياسية ودينية في "تويتر"، إلى جانب وجود ما يقارب 75 سجين رأي، وعشرات المهاجرين الذين صدرت ضدهم أحكام حبس بسبب رأي.

عندما علمت بخبر منع الكتب بدأت أنادي عبر تويتر للوقوف وقفة احتجاجية لأنه من حق الشعب أن يقرأ ما يشاء، ومن الخطأ فرض الوصاية على عقول الأفراد، وتحديد ما يجوز ومالا يجوز لهم قراءته، خصوصاً أن ما تم منعه من كتب هي روايات وقصص أطفال وكتب في الفلسفة والاقتصاد والدين والشعر والأدب وليس في تلك المؤلفات ما يدعو للمنع، وحتى لو كانت هناك مؤلفات جريئة أو تحمل في طيّاتها آراء سياسية أو دينية مخالفة فمن الأحرى مواجهة الرأي بالرأي، والسماح بكل الآراء وبالتعددية، بدلاً من التعسّف في تقييد الآراء وحجبها. فكانت لنا (لي ولمجموعة من الأفراد الذين وقفوا احتجاجاً على منع الكتب) عدّة وقفات احتجاجية لم يتحقق من ورائها (للأسف) ما طمحنا له من إيقاف منع الكتب وإطلاق سراح الكتب الممنوعة.

لفت انتباهي في تلك الوقفات الاحتجاجية، أن الرجال الذين يحضرون لا يحضرون زوجاتهم أو أخواتهم الإناث، أو بناتهم، عدد الحضور في تلك الوقفات لم يكن كبيراً، وكنت أرى من يتحاورون معي عبر تويتر حول قضية منع الكتب وأتذكر تفاعلهم واهتمامهم بالموضوع، لكن عندما يحين وقت التعبير عن الرفض، فيقتصر ذلك التعبير عن الرفض على الذكور من دون الإناث. هذا لا يعني أنه لم يكن هناك إناث في تلك الوقفات، كان لي عدد بسيط من الصديقات اللاتي يحرصن على الحضور وعدد بسيط من الكاتبات المهتمات بأمر منع الكتب. لكن أثارني أن الداعمين للحراك من الذكور والذين يدعّون الانفتاح والليبرالية لا يحثّون النساء في أسرهم على مرافقتهم في تلك الاعتصامات. وهذه الظاهرة لاحظتها حين حضرت اعتصامين من اعتصامات "البدون" التي حضرتها في عام 2012 في الكويت والتي من خلالها كان يحضر مئات الرجال من دون ولا امرأة من البدون. كان الرجال من البدون يشكرونني على الحضور وعلى تأييد القضية، لكنهم لا يسمحون لنسائهم الوقوف والتعبير عمّا يتعرضون له من ظلم. كما لاحظت أن عدداً من النساء الكويتيات وقفن عدّة وقفات من أجل حقوق البدون في 2019 ، كان يحضر هذه الوقفات رجال من البدون ولا يسمحون لنسائهن بالحضور. فالرجل البدون لا يمانع من أن يقف بجانب امرأة كويتية تحمل الجنسية وتدافع عن حقه، لكنه يمانع أن تقف بجانبه أخته، أمه، زوجته أو ابنته.

عندما كنت أعد للوقفات الاحتجاجية وأتواصل مع الناس عبر تويتر وأدعوهم للوقوف وأحدثهم عن أهميته، تواصل معي شاب أبدى رغبته بالمساعدة بالتنظيم، وكنت بالفعل أحتاج للمساعدة. أثناء عملنا معاً، حدثني هذا الشاب عن حياته، حيث كان متديناً جداً في السابق، أما الآن فهو يعتبر نفسه "ليبرالي". يقول أن كل شيء كان بالنسبة له حرام عندما كان متديناً، أطال لحيته، وكان نادراً ما يذهب لأي مكان، يجلس في غرفته متعبداً، لا سيما أنه كان يحفظ القرآن، يذهب للصلاة ثم يعود لغرفته ليكمل تلاوته أو قراءته لكتب الفقه، التفسير، والسيرة. أعمامه وأخواله يطفؤون سجائرهم عندما يدخل الديوانية ويرحبون به: "حياك الله يا شيخ". ونظراً لتدينه الشديد تزوّج بامرأة متديّنة وفرض عليها التغطية بالكامل من عباءة ونقاب.

لكن كل شيء تغيّر، بدأ هذا الشاب بقراءة كتب الفلسفة، وكانت لديه الكثير من الأسئلة عن الثغرات التي صار يراها في القرآن وفي السنة، لكنه لم يجد أجوبة مقنعة لتلك الشكوك بل كان يُلام لطرحه لتلك الأسئلة

وتعبيره عن تلك الشكوك، كان يُفترض عليه الإيمان فقط من دون أن يسأل لماذا وكيف، لأن تلك الأسئلة هي من عمل الشيطان هدفها جرّه إلى الكفر وصرفه عن الصراط المستقيم. تأزمّت علاقته بمن حوله من أهله عندما بدأ يتحرر من الدين، حلق لحيته الطويلة، توقف عن الصلاة والصيام وصار يعبر عن رأيه عبر تويتر، عرف أهله أنه أصبح ملحداً فقطعوا صلتهم به، آراءه عبر مواقع التواصل الاجتماعي صارت تزعجهم وتحرجهم، زوجته رحلت لبيت أهلها واضطّر لتطليقها، لأنه أصبح كافراً ولا تستطيع هي أن تعيش مع رجل كافر. وبعد فترة تزوّج من امرأة أخرى يقول أنها أقرب لفكره. قال لي كل ذلك بصوت يملؤه الحزن لأن أمه ترفض التواصل معه وتقول له أنه سبب مرضها وتعبها وألمها. لكن ما أبهرني في كلامه أنه كان يدافع بشراسة عن حقوق المرأة وحرياتها، وأنه يعتبر نفسه نسوياً.

كنت أستمع له بكل احترام من دون أن أسأل عن التفاصيل لعلّها خصوصيات لا يريد الإفصاح عنها، خصوصاً أننا لم نكن أصدقاء، ولم نكن نعرف بعض منذ زمن، علاقتنا كانت فقط مقتصرة على التعاون في الحملة التي بدأناها دفاعاً عن الكتب الممنوعة في الكويت. في إحدى الأيام تواصلت معه كي أسأله إن كان يمكنه مساعدتي في أمر يتعلّق بالحملة، كتبت له عبر "الواتس آب" هل يمكنني أن أتصل؟ أم أنك مشغول؟ "متى الوقت المناسب للتواصل؟ فردّ عليّ أنه "مع الأهل"!

استغربت! هل هذا الملحد الليبرالي النسوي يقول عن زوجته "الأهل"، خصوصاً أن هذا اللفظ يستخدمه الرجال في الكويت الذين يخجلون من التصريح بكلمة "زوجتي" فالزوجة بالنسبة لهم عيب وعار، فبدلاً من أن يقول الرجل أنه خارج مع زوجته، يقول خارج مع الأهل. قد قال لي مسبقاً أن والدته وأخواته لا يتواصلون معه، مما جعلني أتأكد أنه يقصد زوجته، فكتبتُ له بشيء من المزاح والشعور بالخذلان: "أتقصد زوجتك؟ توقعت أن شخصاً ليبرالياً نسوياً مثلك لا يخجل من أن يقول أنه خارج مع زوجته".

غضب جداً من كلامي، وأفاد بأنه خرج مع زوجته وأمه وبناته، وأنه استخدم لفظ "أهل" للاختصار، وأنه يحترم المرأة جداً ولا يخجل من زوجته بتاتاً، بل أنه يعلّق الحرف الأول من اسم زوجته حول رقبته في سلسلة، لا بل أكثر من ذلك، هو الآن يحاول أن يقنع زوجته بأن تصبح ملحدة مثله!

قلتُ له أنه لا يحق له إقناع زوجته بأن تصبح ملحدة مثله، بل يفترض أن يعطيها الحرية التامة بأن تكون ما تشاء هي وليس ما يشاء هو. قلتُ له أنه لم يتغيّر بتاتاً مما كان عليه عندما كان متديّنا وكان يفرض على المرأة ما يشاء هو، فقط أزال اللحية، أما الفكر هو ذاته لم يتغيّر.

استغربت من ذلك الرّد، لماذا يقنع زوجته بأن تصبح ملحدة إن هي ليست كذلك. إن كان الرجل متزمّتا في الدين أجبر زوجته أن تكون متزمّتة في الدين مثله. وإن أراد أن يتحلل من الدين أجبرها على التحرر من الدين كذلك. الذكوري يجبر المرأة أن تكون على ما يريده هو، ولا يعطيها الحرية أن تكون هي كما تريد، سواء كان متشددا في الدين أو ليبراليا، فهما وجهان لعملة واحدة.

غضب ذلك الشاب جداً من كلامي وكتب تغريدات مفادها أن هناك "دكتورة مجنونة ومعقدة ومريضة تقول له بأنه "داعشي" لأنه قال عبارة "خارج مع الأهل" بدلاً من أن يقول "خارج مع زوجتي"". ودعا أصدقاءه للسخرية من تلك النسوية المجنونة، ووصفها بالمختلّة عقلياً.

هكذا يتصرّف الذكوري الجبان غالباً عندما تواجهه المرأة. يغضبه جداً لماّ تصحح له المرأة فعلاً أو قولاً، فيهاجمها بأبشع الكلام وأبشع الصفات، يتحوّل خلال ثوانٍ من ليبرالي نسوي، إلى ذكوري ماسوجيني يضطهد ويحتقر المرأة.

ولدتُ هكذا

قالت لي فتاة كويتية في العشرين من العمر على استحياء:

كنتُ أعرف أنني مختلفة منذ كان عمري 8 سنوات،

لاحظت أنني لا أميل للأولاد، وخفتُ من شعوري اتجاه الفتيات. اختلافي أخافني، لأنني منذ البداية، وقبل فهمي للنظرة الدينية الصارمة والمُحرِّمة لما أشعر به، لم أرَ في مجتمعي الصغير فتاة تحب فتاة أخرى، كل ما كان يدور حولي كان يرفضني ويرفض طبيعتي،

لم أفهم لماذا أنا مختلفة، ولم يكن عالمي مكاناً آمناً يتيح لي أن أسال والدي أو والدتي لماذا أنا هكذا؟

لذلك أبقيت نفسي سراً، غلّفتُ قلبي تماماً حتى لا يراه ولا يقترب منه أحد، ودفنتُ ذاتي وهوّيتي، وصرتُ تماماً كما تريديني أسرتي أن أكون، وكما يريدني مجتمعي الذي يرفض ويكره الاختلاف والانفراد، ويسجن المثليين، ويُحقّر المرأة التي تميل للمرأة، ويلعنها ويطردها من رحمة الله.

بالرغم أنني أحبُّ الله كثيراً، أحبُّ الله وألجأ إليه، أصلي له وأبوح له همومي وأسراري وأتوكّل عليه. لكن تم تلقيني أنه لا يمكن لواحدةٍ مثلي أن تحب الله، لا يمكن لمسخٍ مثلي أن تكون امرأة مسلمة، عليّ أن أختار بين مثليّتي وبين حب الله، لأن الله لا يحب الذين يميلون لبني جنسهم.

ومهما صرخت أنه ليس اختياري، ليس اختياري، أنا لم أختر أن أكون مختلفة، لم أختر أن أحب الفتيات، لو كنت أستطيع تغيير ذاتي لفعلت، الحياة في هذا المجتمع المنغلق، الأعمى، الخانق صعبة كما هي، فلماذا أختار تعقيدها أكثر؟ لماذا أجني على نفسي في مجتمع يقهرني ويلومني لولادتي كما أنا؟

كلمات الناس تقتلني، كلمات أمي عندما تنظر إليّ وتسألني بحسرة وحزن: "لماذا لا تكونين أكثر أنوثة؟"

كلمات الشباب في الأماكن العامة، عندما يسخرون من مظهري، أو أسلوبي في المشي، أو ملابسي،

كلمات أقرب صديقة لي، التي أعرفها منذ طفولتي، بعد أن جمعتُ كل قوّتي وشجاعتي لأبوح لها بسرّي، كنتُ أرتعد خوفاً، كنتُ أخشى أن تتركني، أن تنهي صداقتنا، أن تتغيّر بعد أن تعرف حقيقتي. سكتت برهة ثم قالت: "تعرفين أنه لا يمكنكِ أن تكوني فتاة مسلمة ومثليّة في نفس الوقت أليس كذلك؟". تمنيتُ لو أنني أبقيتُ قلبي مغلفاً وهويّتي سراً."

لا أريد أن أختار، أحب الله، لا أريد أن أخسر صديقتي، لم أختر جسدي أو عقلي، لستُ سيئة، ولدتُ هكذا والله لا يخطئ.

المرأة الكويتية المثلية والعابرة جنسياً

يفضّل البعض التوهم بأنه لا وجود للمثلية في الكويت، لأنه يفضّل العيش في وهم أن المثلية مرض غربي، ناتج عن الانحلال الخلقي في الغرب، لا يمكن أن يحصل في مجتمع مسلم ومحافظ كالكويت، والبعض إن رأى أو سمع عن رجل مثلي أو امرأة مثلية أو أحد العابرين جنسياً في الكويت ادعى مسرعاً بأنهم أجانب، لا يمكن لهم أن يكونوا كويتيين. فالكويتي ليس إنساناً بل آلهة، الكويتي مدعّي الفضيلة، مدّعي الدين، مدّعي الأخلاق، مدّعي العفّة يعيش في المجتمع مثاليا لا تشوبه هذه النزعات أو الميول التي يسميها شذوذاً جنسياً، أو انحرافا، أو رذيلة، لأن كل ما هو مختلف عمّا هو متعارف عليه في المجتمع المنافق يعتبر مرفوضاً ومكروهاً وقذراً وسيئاً.

لن أدخل في متاهات الدين، لأنها فعلاً متاهات لا نهاية لها، ينقسم من يسمّون نفسهم شيوخ دين من الملتحين الزاهدين الذين يدعون أن دينهم دين رحمة وإلههم الرحمن الرحيم إلى ثلاثة أقسام: المتشددون منهم قالوا أن المثلي يُقتل أو يُحرّق أو يُقذف من شاهق، مستنداً إلى الآية التي تدين آل لوط وأن الرب خسف بهم و قلب أرضهم فجعل "عاليها أسفلها" وأمطر عليهم حجارة من سجيل، أي حجار من نار، حتى مسحهم من وجه الأرض. والأقل تشدداً منهم قالوا أن عقوبة المثليين ليست القتل أو الحرق بل الإيذاء، والإيذاء يكون بالشتم والتعيير، والضرب بالنعال، فإن تابوا فالإعراض عنهم. أما من هم بين المتشددين والأقل تشدداً فيدّعون أن عقوبتهم الجلد والرجم.

كل هذه الأحكام القاسية الشديدة لا تلتفت للتطورات العلمية الحديثة التي أثبتت التأثيرات الجينية والهرمونية والنمائية التي تؤثر بالميول الجنسية، كما أنها لا تلتفت للأبحاث والتجارب الإكلينيكية السريرية على مدار عقود التي أثبتت أن الميول المثلية تتأثر بالبيئة الهرمونية التي ينمو بها الجنين، وأن العوامل الهرمونية تؤثر

على بنية الدماغ، ولم تلتفت لعلم ال Epigenetics الذي يهتم بدراسة التغيرات التي تطرأ على الجينات فتنشّط أو تثبّط عمل الجينات من دون تغيير تركيبتها. ولا تلتفت لتأثيرالموجات الهرومنية في العقل، ولا للجندر ديسفوريا Gender Dysphoria الذي يمر به العابرون جنسياً. كما أن المؤسسات الطبية ومؤسسات الصحة العقلية في الولايات المتحدة تخلّت منذ فترة طويلة عن تصنيف المثلية والعبور الجنسي كاضطراب نفسي، وتوصلّت أن هذه الميل هو شكل من الأشكال الطبيعية للتجربة الإنسانية.

ما يهمنّي هو كيف يتعامل المجتمع الكويتي مع هذه الفئة التي هي ليست فئة صغيرة من رجال ونساء، مع التركيز على المرأة المثلية والرجل العابر جنسياً ليكون امرأة. وذلك لأن كتابي هذا مهتم بقضايا المرأة. بالطبع القسوة التي يتعامل بها الدين مع هذه الفئة ستؤثر على كيفية تعامل المجتمع الكويتي مع فئة المثليين، لأنه يعتبر نفسه مجتمعاً متديناً، بالرغم أن تديّنه سطحي. يتعامل بشدة وقسوة مع الأمور المتعلّقة بالجنس، أما الفساد والربا والظلم والواسطة والحسد والكراهية والعنصرية والطبقية فيتغاضى عنها. ولأن المجتمع الكويتي مهووس بنظرة الغير له، فعبارة "ماذا سيقول عنّا الناس" أهم من الحب والعطف والرحمة الذين يختفون تماماً من قلوب وسلوك الأبوين بعد أن يعلما أن أحد أبنائهما مثلي الجنس أو عابر جنسياً.

ويسعى المجتمع لإثارة شتى أنواع الأعذار كي لا يعترف بالمثلية، فيسميّها ظاهرة، ويسميها مرضاً، ويسميّها مرحلة مؤقتة بسبب طيش أو جهالة. والبعض يلوم الأفلام والمسلسلات الأجنبية التي شجعت الشباب والشابات العرب لممارسة المثلية، والبعض يدّعي ضعف الوازع الديني، بل أن الأخصائيين النفسيين الذين يلجأ لهم بعض المثليين يتسابقون لسؤالهم "هل تصلي/تصلين؟ لماذا لا تعود/تعودين للدين؟ تقرّب/تقرّبي من الله"، وقد أكد لي بعض المثليين الذين تحدثت معهم أنهم بعد صراع مع أنفسهم بسبب رفض المجتمع ووالديهم لهم، وإلحاح والديهم بأنهم مرضى ويتوجّب عليهم العلاج والذهاب لأخصائي نفسي، وجدوا أن الأخصائي الذي يتوجب عليه أن يكون مهنياً ومتعلّماً ومثقّفاً، يكرر ما يقوله الجاهل أن الأمر يتعلّق بالابتعاد عن الدين.

ومن منظور بعض المثليين والعابرين جنسياً الذين قد يكونون ممن يؤمن بوجود الله وبأهمية الدين وممارسة شعائره، أنه تم تهديدهم بعذاب الله باستمرار، وتم تأكيد كراهية الله لهم، وبأن ما يفعلونه فاحشة كبيرة يهتز لها عرش الرّب،

وبأنهم شاذون عن الفطرة التي فطر الله عليها البشر، وأنهم مذمومون ومكروهون، فيتم تشبيحهم وإبعادهم عن الدين لأن الرسالة التي يستمر المجتمع بإيصالها لهم بأنهم لا يمكن أن يكونوا مثليين أو عابرين جنسياً ومسلمين في ذات الوقت. وهذا من شأنه أن يبعدهم تماماً عن الدين ويُكرِّهُهُم به، كما يبعد الله نفسه عنهم ويهددهم بعذابٍ أليم، بسبب أنه خلقهم مثليين. لذلك نرى الكثير من المثليين والعابرين جنسياً ملحدين أو ربوبيين[15] بعد أن كانوا يؤمنون بالله والدين.

البعض ممّن ينكر المثلية يقول أنها بسبب سوء التربية، ويبرر ذلك بالعذر السطحي الذي يقوم على أساس أن الوالدين قد اشتريا لعبة "باربي" للولد مما جعله شاذاً، وأنهم سمحوا للولد باللعب مع الفتيات مما شجعه على المثلية أو العبور الجنسي. والأمر ليس بهذه السذاجة أو البساطة، فإحدى المثليات أكدت لي أنها منذ الصغر كانت أختها التي تكبرها بسنة تحب "باربي" أما هي فتحب لعب الأولاد، رغم أن الفتاتين كبرتا في ذات البيئة، ولم تكن الأخت المثلية تلعب مع الأولاد بكثرة، كانت قريبة من أختها متغايرة الجنس. وهناك نساء مثليات أحبّبن اللعب بلعبة باربي عندما كنّ صغيرات، المرأة المثلية ليست المرأة المسترجلة فقط، هناك نساء مثليات لا يختلفن عن المرأة متغايرة الجنس من حيث النعومة، وطريقة المشي، والصوت الليّن الرخيم، واللبس، والاهتمامات. وكذلك الرجل المثلي لا يقتصر على الرجل الناعم الذي قد يحب إطالة شعره أو تبدو على جسده أو أسلوبه بالحديث والمشي علامات أنوثة، بل قد يكون كالرجل المتغاير الجنس تماماً من حيث الاهتمامات، والملبس وطريقة الكلام والمشي، والاختلاف الوحيد هو الميول الجنسي.

والكثير من الأخصائيين الاجتماعيين والنفسيين في الكويت يفسرون المثلية لدى المرأة كردّة فعل لخبرات طفولة قاسية. فقد تكون الفتاة تعرّضت للتحرّش في سن صغير، فتكوّن في عقلها الباطن أن الأنوثة ضعف، والذكورة قوّة فتميل للذكورة. أو أنها رأت والدها يضرب والدتها فتكوّنت لديها ذات القناعة بأن الأنوثة ضعف والذكورة قوّة، أو أنها رأت مشهداً قاسياً في التلفاز لرجل يغتصب امرأة، أو قرأت عن جريمة قاسية كانت ضحيتها المرأة والجاني رجلاً، فتكوّنت لديها ذات القناعة. وإن كان الأمر كذلك فلماذا لم تتحوّل كل الفتيات اللاتي شاهدن قسوة الرجل على المرأة، واللاتي تعرّضن للعنف الجنسي في سن صغير إلى مثليات؟!

[15] الذين يؤمنون بخالق لكن لا يؤمنون بالأديان

بل أن إحدى النساء المثليات الكويتيات قالت لي أن أختها تعرّضت للاغتصاب عندما كانت صغيرة، لكنها لم تتغيّر من متغايرة الجنس إلى مثلية، ولما كبرت تزوجت وأنجبت ومستقرّة في حياتها الزوجية، أما هي (المرأة المثلية) فلم تتعرّض لأي عنف جسدي أو جنسي أو لفظي.

ثم يقول هؤلاء الأخصائيون أن الرجل المثلي أصبح كذلك لأنه تعرّض للاغتصاب أو التحرّش في صغر سنه. لكنهم لا يملكون تبريراً للمثلي الذي لم يتعرّض للعنف الجنسي في صغر سنه. ولا يملكون تبريراً للذي تعرّض للعنف الجنسي لكنه لم يمل للذكور جنسياً.

ما تواجهه المرأة المثلية والعابرة جنسياً من تمييز واضطهاد في المجتمع الكويتي رهيب، فهي تتعرّض للتهميش في سن مبكر، يبدأ التمييز ضدها في المدرسة حيث يتم تعنيفها لفظياً بأنها "بوية"[16] و "مخنّثة" و "شاذة" و "جنس" أو "شيميل Shemale [17]" ويتم تهديدها باستمرار باستدعاء أولياء أمرها لتعنيفها، بسبب أن شعرها أقصر من المتعارف عليه، أو أن حركاتها صبيانية، أو خشنة.

والعكس بالنسبة للمرأة العابرة جنسياً يتم التنمر عليها، وتهديدها، وتعنيفها بسبب أسلوبها الأنثوي في الكلام، وشعرها الذي قد ترفض أن تقصّه قصيراً جداً ليشبه شعر الأولاد. التعنيف في البيت من قبل الوالدين يشمل الضرب والتعنيف اللفظي والحبس والحرمان من الخروج من البيت. تتعرّض كثيراً للرفض وعدم القبول من قريناتها حيث تُمنع من دخول منزل صديقتها مثلاً بسبب عدم رغبة أسرة الصديقة بها.

وفي 2007 عندما صدر قانون في الكويت بتجريم "التشبه" أي بتشبه النساء بالرجال وتشبه الرجال بالنساء، أصبح من المعتاد إيقاف المرأة المثلية إن كان شكلها الخارجي أقرب للرجل بسبب شعرها القصير جداً، وعدم وضعها للمكياج، وملابسها التي غالباً تكون بنطلون جينز و "تي شيرت" واسعة، وأحياناً "كاب" أو قبعة. فيتم تهديدها من قبل الأمن لجرها للمخفر وأحياناً كثيرة تؤخذ للمخفر وتُحبس. كثيراً ما يتم رفض تجديد بطاقتها المدنية أو الجواز بسبب أن الاسم اسم امرأة، لكن الشكل في الصورة يبدو وكأنه رجل، فيتم رفض طلب التجديد.

تحكي لي أحد النساء المثليات والتي يميل شكلها الخارجي للرجل أكثر منه للمرأة:

[16] بوي" يقصد بها الكلمة الإنجليزية boy ولد، و كلمة "بوية" أي الفتاة المتصابية

[17] لفظ يطلق على المرأة العابرة جنسياً في نطاق الأفلام الإباحية، هي امرأة بقضيب رجل

"أخذت صورة شخصية واتجهت لتجديد الجواز، فرض الموظف الصورة لأنني أبدو كرجل بينما اسمي اسم امرأة. وأمرني أن أحضر صورة أخرى. فرفضت موضحة أن هذا هو شكلي، فكيف أغيّر شكلي، خصوصاً أن هناك حرصاً وتدقيقاً شديداً من قبل الأمن في المطارات على ضرورة أن تكون صورة الجواز مطابقة للشكل الفعلي لحامل الجواز. ردّ علي الموظف بغضب "ارتدي الحجاب والتقطي صورة، افعلي أي شيء، لا يهمني، لكن لن أجدد لكِ الجواز بهذه الصورة"

هناك نساء كويتيات مثليات محجبات، وبالتالي لا يتعرّضن لمثل هذا التمييز، الحجاب الذي يرتدينه ليس بدافع التديّن لكن بسبب الضغوطات التي تمارسها أسرهن عليهن، يظهرهن بمظهر المرأة العادية أياً كانت ميولهن الجنسية، كما أن الحجاب يرمز للتديّن فتظهر هؤلاء النساء بمظهر النساء المتدينات، فإن كان شعرهن قصيراً جداً أو كنّ لا يضعن المكياج، فلا يثرن أي شك من قبل رجال الأمن.

فالقانون لا يعاقب على الميول بل يعاقب على الشكل فقط. المادة 198 من القانون الجنائي الكويتي تجرّم الفعل الفاضح في المكان العام منذ صدور القانون في عام 1960، وتعاقب من يرتكب الفعل الفاضح بالحبس سنة وبغرامة لا تتجاوز ألف دينار، لكن أضيفت فقرة جديدة إلى المادة 198 في عام 2007 تجرّم التشبّه بالجنس الآخر، وتعاقب من يتشبه بالجنس الآخر (من حيث الشكل) بذات العقوبة التي يُعاقَب بها مرتكب الفعل الفاضح. المادة تنص على التالي:

"يعاقب بالحبس مدة لا تتجاوز سنة واحدة وبغرامة لا تتجاوز ألف دينار أو بإحدى هاتين العقوبتين كل من أتى إشارة أو فعلا مخلاً بالحياء في مكان عام بحيث يراه أو يسمعه من كان في مكان عام، أو تشبه بالجنس الآخر بأي صورة من الصور."

المشرّع أقحم الفقرة الثانية بالمادة وهي "أو تشبه بالجنس الآخر بأي صورة من الصور."، لكن يظل التجريم متعلّقاً بتواجد المتشبه في مكان عام، والمكان العام هو المكان الذي يتواجد فيه عامة الناس: الشوارع، الحدائق، الوزارات، المطاعم، الشواطئ، والمقاهي. وفقاً لذلك يجوز لرجل الأمن إيقاف أي رجل أو امرأة متشبهين في هذه الأماكن والقبض عليهم. لكن النص القانوني لم يحدد ماهيّة التشبه، هل إطالة الشعر بالنسبة للرجل، وتقصير الشعر بالنسبة للمرأة يعتبر تشبهاً؟

لا سيما أن الفقرة مخالفة للدستور الذي ينص في المادة 30 على أن الحرية الشخصية مكفولة. ثم ما حكم الأجانب ذوي الأفكار والديانات والعقائد التي تختلف عن المجتمع الكويتي، هل يتم جرّهم للمخافر إذا تبيّن لرجال الأمن أنهم متشبّهون؟

تحكي لي امرأة كويتية مثلية شعرها قصير جداً، لا تضع المكياج، لا تقوم بحف حواجبها، سمراء البشرة، تلبس ملابس رياضية فضفاضة، وصوتها وأسلوبها بالكلام يميل للذكورة أكثر من الأنوثة:

"يتم إيقافي باستمرار بالشارع من قبل رجال أمن بسبب شكلي، في كل مرّة يهددني بأخذي للمخفر وبتسجيل قضيّة فعل فاضح ضدي. لكنني وضعت حلقات أذن في السيارة، وفي كل مرّة يستوقفني الشرطي، ألبس الحلق، فيتم تمريري! الحلق هو المعيار الذي يفرّق بين الذكر والأنثى في الكويت، ولديّ صديقات مثليات، يبقين أحمر الشفاه معهن في السيارة، حتى إذا تم إيقافهن، يضعن أحمر الشفاه بسرعة فيتم تمريرهن."

امرأة مثلية أخرى قالت لي أنه في كل مرّة يستوقفها الشرطي، يقول لها أنها إذا ساعدته بالتعرّف على بنات فسيسمح لها بالمرور. في بال الشرطي أن المرأة المثلية تعرف عدداً كبيراً من الفتيات وكلّهن فتيات جريئات يبحثن عن اللهو والجنس، لذا يظن أنه يستطيع أن يتفاوض مع المرأة المثلية، هي تعرّفه على فتيات وهو يمتنع عن جرّها للمخفر. أما بالنسبة للمرأة العابرة جنسياً فغالباً ما تتعرّض للابتزاز من قبل رجال الشرطة فيقول لها إن مارست الجنس معه فسيتركها تذهب.

تقول لي إحدى المثليات التي تبدو عليها علامات الذكورة: في أكثر من مرّة يتم منعي من دخول مقهى بسبب شكلي، وعندما أسأل لماذا يُقال لي أنهم لا يريدون استضافة المثليات. وفي إحدى المرات قال لي صاحب المقهى أنه هناك حد أدنى للطلب Minimum Charge أنه يجب ألاّ تقل قيمة طلبي عن 5 دنانير، بينما لم يتم فرض ذلك الشرط على صديقاتي اللاتي كنّ معي، سألته لماذا فقال لي أن هذه هي سياسة المقهى مع المثليات، قلت له بأنني لن أدفع سوى قيمة ما طلبت وأنه لا يحق له التمييز ضدي، لكنني لم أعد لذلك المقهى ثانيةً.

الأمر ليس بتلك السهولة بالنسبة للمرأة الكويتية العابرة جنسياً. الشاب الذي تحوّل لمرأة هو أكثر هذه الشريحة اضطهاداً، تقول لي امرأة كويتية كانت رجلاً، وقامت بكل العمليات اللازمة للعبور جنسياً في أمريكا واستقرت في أمريكا بسبب تكرار اضطهادها وقمعها وظلمها في الكويت، وتبرّؤ أسرتها منها:

كنتُ صبياً جميلاً جداً، بشرتي بيضاء، عيناي واسعتان، رموشي طويلة، شعري ناعم، خدودي محمرّة ناعمة. وكل من يراني يقول لوالدي ووالدتي أنني أبدو كفتاة. حزنت كثيراً عندما بدأت بنات خالاتي بالتحجب عنيّ بعد بلوغي، أردتُ أن أقول لهن أنني لا أفكر هكذا، ولا أشعر كما يظنون. والدي شديد التديّن كان قاسياً جداً ويتفنن بضربي، يكرر يومياً "أنت لست رجل ويجب عليّ أن أؤدبّك كي تصبح رجلاً"، أخرجني من المدرسة العادية ووضعني بمدرسة خاصة تركز بشكل أكبر على الدين، كان يأخذني لجمعية الإصلاح، وإلى الديوانية، وكنتُ أتعرّض للتحرّش من قِبل الرجال في كل مكان، وخصوصاً في الديوانية التي يأخذني إليها والدي، من دون علمه عندما يكون مشغولاً بأصحابه، يلمسني أحدهم، أو يضعني أحده في حضنه فيتحسسني بقضيبه، أو أخرج لساحة البيت الذي توجد فيها الديوانية فيخرج أحد الرجال فيتحسسني و يلمسني متظاهراً بأنه يلعب معي أو يريد أن يريني شيئاً، وأنا لا أستطيع الكلام، عندما كبرتُ و تعرّفت على آخرين مثلي علمتُ بأن الولد الجميل يتعرّض لأشد أنواع التحرّش الجنسي في الكويت، وذلك لأنه يتواجد في أماكن يكثر فيها الرجال كالديوانية ويسهل لمسه والتحرّش به، تحت غطاء الملاطفة أو اللعب. في إحدى المرات التي أجبرني فيها والدي للذهاب للديوانية كنت أغسل يدي في مغسلة الديوانية، وجاء أحد الرجال من ورائي وأخذ يحك قضيبه في ظهري ومؤخرتي. صرت أرفض الذهاب إلى ديوانية أبي، واشتد ضربه وتعزيره لي. وبعد ازدياد التحرِش الجنسي والضرب الذي كنت أتعرّض له من قبل الأولاد بالمدرسة، توقفت عن الذهاب إلى المدرسة، لم أكمل الثانوية. في أكثر من مرّة، بينما كنت في الخامسة عشر و السابعة عشر من العمر، أخذني والدي إلى إحدى المخافر حيث يعمل عمّي مدير المخفر وسلّمني والدي إليه "خذه واجعل منه رجلاً"، فينهال عمّي عليّ بالضرب ويحبسني في زنزانة لبضعة أيام. طردني والدي من البيت عندما كنت في التاسعة عشر من العمر، لم يقف معي أحداً، أمي كانت تبكي فقط وتقول لي بأنني جلبتُ لها العار، وأن الناس يتكلمون عنا ويتشمتون فينا بسببي. لم أكن أملك نقوداً حتى أوفر مكاناً للسكن، تعرفت على شاب أحبني واستطعنا إيجاد سكن متواضع جداً، لكنني لم أشعر بالأمان أبداً،

في كل مرّة أخرج من البيت للذهاب للطبيب أو لشراء احتياجات أساسية يتم إيقافي من قبل الشرطة، يتم جرّي للمخفر وضربي وحبسي وحلق رأسي، وفي الحبس أيضاً أتعرّض للتحرّش، والاغتصاب. ازدادت الأمور سوءاً، وحتى الشاب الذي أحبني وساعدني بإيجاد مسكن قال لي أن أمه تلح عليه بالزواج وأنه لن يستطيع الاستمرار في رؤيتي، أو مساعدتي.

في إحدى السنوات قبل أن يطردني والدي من المنزل، أرسلني إلى خالي الذي يعيش في أمريكا مع زوجته الأمريكية لفترة الصيف، كانت وسيلة أبي للتخلّص منّي لفترة لأنني قد جلبت له العار، عندما ذهبت إلى خالي قلت له أنني أود السكن مع أسرة أمريكية وأن أتعلّم اللغة، فساعدني. المرأة العجوز التي سكنت معها كانت طيبة جداً، أحبتني وساعدتني، وتعلمّت اللغة. لذا عندما أصبح وضعي مستحيلاً في الكويت، وقد تم رفع دعوى فعل فاضح ضدي من قبل الشرطة فقط لأن شكلي يبدو كامرأة، تواصلت معها، بعد أن تخلى عنّي كل أهلي. وشرحت لها ما حدث لي، ألّحّت علي بالقدوم وأنه يجب عليّ ألاّ أقلق، "فقط تعالي وسيكون كل شيء على ما يرام" وعدتني أمي الأمريكية. فذهبت وفعلاً ساعدتني هي وابنتها، وحصلت على اللجوء في غضون أسبوعين. درست وأكملت الثانوية، ثم دخلت الجامعة وحصلت على شهادة، وعملت، وكوّنت مجموعة رائعة من الأصدقاء الذين أحبوني واهتموا بي ولازالوا معي، هم أسرتي، جمعت مبلغاً من المال وأجريت عملية التحويل بالكامل. وها أنا الآن أملك مسكناً وسيارة، ولدي أسرة من الأصدقاء الذين يحبونني كما أنا ويهتمون بي، هم أهلي.

تُكمل العابرة جنسياً كلامها عندما سألتها عن طفولتها، وأنها قد تكون عبرت جنسياً بسبب التحرّش الذي تعرّضت له في طفولتها كما يدّعي البعض: "لا، لم يكن الأمر هكذا، منذ طفولتي وقبل تعرّضي للتحرّش وأنا أشعر أنني فتاة، أرفض تعرية الجزء الأعلى من جسدي أثناء السباحة، أرفض قص شعري، أحفظ أغاني مسرحية "ليلى والذئب"، وألبس روب الاستحمام الذي يبدو لي كأنه فستان، وأرقص وأغني كما فعلت هدى حسين[18] في المسرحية أمام أمي وأخواتي. وانهرت تماماً عندما قاموا بإبعاد ابنة خالتي عنّي والتي كانت أعز صديقاتي، ومنعها من اللعب معي، لأنهم ظنوّا بأنه تأثير الفتيات عليّ. بينما لي أقارب ذكور أيضاً تربوّا مع بنات ولم يظهروا أي صفات أنثوية.

[18] هدى حسين ممثلة كويتية اشتهرت بتقديم الأعمال المسرحية للأطفال، ومسرحية ليلى والذئب الغنائية كانت من أشهر أعمالها

عندما كبرت صار والداي يذهبان بي من أخصائي نفسي إلى آخر محاولين معالجتي، لكن هؤلاء الأخصائيين لم يكونوا مهنيين. أحدهم قال لي بمجرّد دخولي من الباب، وقبل أن أجلس على الكرسي "قبل أن تدخل وتجلس، هل لديك استعداد للتغيّر؟" وعندما أجبت "لا"، قال لي "إذن اخرج من هنا".

عندما كبرتُ أكثر، أنا من نفسي صرتُ أبحث عن الأجوبة، ذهبت لثلاثة من المتخصصين بعلم النفس، مشهورين جداً في المجتمع الكويتي، وقد أكدوا لي بأن العبور الجنسي ليس أمراً اختيارياً كما يظن غالبية الناس، وأنني لا أدعي أو أمثّل دور الأنوثة، أو أنني مهووسة بممارسة الجنس مع الذكور، أو أنني صرت هكذا بسبب خبرات الطفولة أو التحرّش الجنسي كما يظنه الكثيرون. لكن هؤلاء الأخصائيين أيضاً يرفضون التعبير عن آرائهم العلمية خوفاً من المجتمع الذي سيهمّشهم، ويرفضهم، ويرفض اللجوء إليهم للعلاج، هم صامتون كي لا يخسروا مصدر رزقهم."

عندما أسأل امرأة مثلية ثلاثينية عن حياتها في البيت، وكيف تم التعامل معها من قبل والديها، تقول لي:

"دخلت في معارك لا نهاية لها مع والداي، لم يكونوا راضين عن شكلي، أو تسريحة شعري القصيرة جداً، أو أسلوبي في الكلام، أو طريقتي في اللبس، أو نوعية الفتيات اللاتي أصاحبهن. لكن الآن بعد أن كبرت وصرت أنا وأمي فقط نعيش لوحدنا وصلنا إلى نوع من التفاهم الهادئ. أنا أفعل ما أشاء من دون أن تعرف هي التفاصيل. فهي ترى أنني أقترب جداً من فتاة محددة لبضعة أشهر، ثم تختفي هذه الفتاة تماماً، ثم تأتي فتاة أخرى أمضي معها كل وقتي، ثم تختفي هي الأخرى، أمي تعلم عن الأمر لكنها تفضّل ألاّ تناقشني بالأمر. فبالنسبة لها الآن بعد أن أصبحت سبعينية، ما لا تعرفه لن يضرها. كما أنها استسلمت لكوني لست امرأة كباقي النساء، قبل بضعة أيام كانت أختي التي جاءت لزيارتنا تلاطفني وتقول لي "ما رأيكِ أن أضع لكِ المكياج اليوم؟" فردّت عليها أمي بسخرية "أي مكياج!؟"، ثم تسألني أختي مرّة أخرى "اصبغي شعركِ أشقراً أو لوناً آخر، لماذا لم تصبغي شعركِ قط؟"، فترد عليها أمي ثانية: "لا، لا يناسبها أي لون سوى شعرها الأسود كما هو."

امرأة مثلية أخرى تحكي لي:

"نعم، عندما لاحظت أمي بأنني مختلفة أجبرتني أن أذهب لأخصائي نفسي، أحدهم حاول إقناعي بأنني أميل للبنات بسبب خبرات الطفولة، لكنني أعلم أن الأمر ليس كذلك لأنني لم أمر بأي خبرة عنف جنسي أو غيره. وآخر أكد لأمي أنني طبيعية تماماً وليس عليها إلاّ أن تتقبلني كما أنا، وأن أتقبل نفسي كما أنا. ثم أخذتني أمي لعمل تحليل للهرمونات، فاتضحت نتائج التحاليل بأنني طبيعية تماماً."

عندما أسأل النساء الكويتيات المثليات عن كيفية أو طريقة لقائهن بصديقاتهن أو حبيباتهن، يكون ردّهن أن كل شيء يجب أن يتم بسريّة تامة، لأنه من الممكن أن يتعرّضن للقبض وللحبس بسبب المادة 198 التي تجرّم تواجدهن معاً كفعل فاضح.

تطمح هؤلاء النساء المثليات والعابرات جنسياً في الكويت، بأن تتغيّر الأمور في الكويت، وأن يعترف بهن المجتمع ويتقبّلهن، وأن يكون هناك مخرج من خلال الزواج المدني الذي يمكنّهن من الزواج والعيش معاً بدلاً من الاختباء في شقق سيئة السمعة، واستراق لحظات للقاء. لكنهن يرون أن هذا حلم بعيد في مجتمع لازال ينظر إليهن بنظرة ازدراء، ويسعى لقمعهن وسجنهن وتعزيرهن.

المعايير الذكورية

قالوا - خاطرة

إذا اهتمت بمظهرها قالوا سطحية

وإذا اهتمت بدراستها قالوا معقدة

وإذا أحبت الكتب والقراءة قالوا اشدعوى يعني ذابحتج الثقافة

إذا ضحكت قالوا هبلة وخريشة

وإذا صارت جديّة قالوا ودرة ودمها ثقيل

إذا اشتغلت وطمحت قالوا مهملة، مو مهتمة في بيتها وعيالها

وإذا قعدت في البيت وربت أولادها قالوا موطموحة، كسلانة

وإذا تكلمت بلغة أجنبية قالوا تتفلسف

وإذا تحاورت بمواضيع تهمها ومواضيع من اختصاصها قالوا ما تفهم

وإذا سكتت تجنباً للنقد قالوا ما تعرف شي ومخها فاضي

إذا طالبت بحقها بهدوء، لا يأخذونها على محمل الجد وقالو ضعيفة

وإذا طالبت بحقها بقوّة وجُرأة قالوا شيطانة، قليلة أدب، ولسانها طويل

إذا طلعت من البيت قالوا صايعة

وإذا لزمت البيت قالوا نكدية ما تعرف تستانس

إذا حضرت كل الأفراح وكل الدعوات قالوا انتي كله برة البيت؟ ماتقعدين؟

وإذا اعتذرت عن حضور الأفراح والعزايم قالوا موسنعة ما تعرف الواجب

وإذا رفضت مساعدة زوجها مادياً قالوا ترى الحياة مشاركة وتضحية

وإذا عطت زوجها قالوا محّد قالج! إنتي خبلة ليش تعطينه!؟

إذا لم تكن متدينة قالوا قحبة *

وإذا اهتمت بالدين قالوا صيري قحبة حق زوجج

إذا رقصت بالأعراس ضحكوا عليها وقالوا تافهة

وإذا رفضت الرقص لأنها لا تجيده قالوا لازم ترقصين حق زوجج، الرجل يحب اللي ترقص له

يمنعونها من الحديث مع أو النظر إلى أي رجل، ويقولون لها أن أي رجل غريب حتماً سيكون سيئاً ويريد استغلالها فقط والضحك عليها، ثم يجبرونها على الزواج من رجل غريب.

يغمضون عينيها عن الجنس ويقنعونها أن الجنس شيء قذر ويقولون لها "أهم شي في البنت الخجل والبراءة، ومن دون الخجل والبراءة لن يقبل بكِ أي رجل كزوجة". ثم يقولون لها يجب عليها ألاّ تكون خجولة وبريئة في فراش زوجها وإلاّ تركها لأخرى، لأن الزوج لا يحب بالبريئة الخجولة في الفراش.

*المرأة القحبة: أي المرأة الباغية التي تمارس البغي

لكن القحب في اللغة العربية هو السعال، فيقال أصابها قحاب (أي أصابها سعال)، أو قحب الرجل (أي سعل بشدة)، وفي الجاهلية كانت المرأة الباغية تسعل (تكح) كوسيلة للفت نظر الرجال أو دعوتهم.

معايير الجمال المستحيلة

شوارع الكويت تملؤها إعلانات عملاقة، دعايات لشركات التجميل، والمكياج، وعيادات الجراحة التجميلية. أينما التفتت المرأة أثناء قيادتها في الشوارع تجد إعلاناً عملاقاً يدعوها لتنحيف الجسد، تصغير الأنف، نفخ الفم، تركيب الرمش، شد الوجه، إزالة التجاعيد، تركيب العدسات الملوّنة للعين، مساحيق تَعِد بتكثيف الشعر، أو إعادة الشباب لبشرة الوجه، وتحسين مظهر الأسنان وتبييضها. هذه الإعلانات الضخمة تُلقّن المرأة أن شكلها الطبيعي غير كافٍ، مظهرها كما هي على طبيعتها غير مقبول، ولابد لها من تحسين مظهرها الخارجي.

يتم تلقين المرأة عن طريق وضع هذه الإعلانات في كل مكان في الشارع، حتى تتأثر المرأة وتبدأ بالتساؤل ما إذا كانت بالفعل تحتاج لتحسين مظهرها الخارجي. يتم وضع هذه الإعلانات في الشوارع أيضاً حتى تضمن شركات التجميل التأثير على كل النساء حتى اللاتي يتحاشين شراء المجلات الخاصة بالأمور الجمالية، والموضة، تلك المجلات التي تملؤها صور العارضات الجميلات، بأجسادهن المثالية التي تم تحسينها عن طريق برامج "الفوتوشوب"، ملامحهن أوربية ومختلفة تماماً عن شكل المرأة الكويتية، أجسادهن طويلة ونحيلة ولا تمت لجسد المرأة الكويتية بأي صلة. المرأة الذكية تعرف أن هؤلاء العرضات لا يمثّلنها (يمثلونها)، ولا مصلحة لها هي بأن تنفق مالها في شراء تلك المجلاّت غير المفيدة والتي تملؤها صور النساء الجميلات اللاتي يسوّقن للمكياج، والعطور، والكماليات، والماركات. لكن شركات التجميل العبثية تسعى للوصول لكل النساء، حتى للمرأة الذكية التي لا تبتاع مجلات التجميل والموضة، فتضع اللوحات والإعلانات في كل مكان في الشوارع. كما أن هذه الإعلانات هي طريقة للوصول لعقول الفتيات الصغيرات اللاتي لا يشترين المجلات وليس لديهن اهتمام بها، فيبدأ تلقين الفتاة في عمر مبكر على كره شكلها الطبيعي، وتدريب عقلها على الرغبة في تغيير شكلها حتى يصبح شكلها مشابهة للنساء في تلك الإعلانات.

لكن صور النساء في تلك الإعلانات لا يشبه الفتاة أو المرأة الكويتية بتاتاً، فالمرأة في الإعلان بيضاء البشرة، شقراء، وذات عينان زرقاوتين، ملامحها أوربية. لا يوجد مكياج ولا أي عدد من عمليات التجميل التي ستحوّل امرأة أو فتاة كويتية إلى امرأة أو فتاة أوربيّة المظهر. لكن الذي تقصده هذه الشركات هو وضع معايير جمال مستحيلة، لن تستطيع المرأة الوصول إليها مهما أنفقت من مال. فليس من مصلحة تلك الشركات وضع صورة لعارضة عربية تشبه المرأة الكويتية، أو عارضة هندية على الأقل مشابهة للكويتية بلون البشرة ولون الشعر والعينين، بل تضع شيئاً مستحيلاً لا تستطيع الكويتية الوصول إليه، وهي بهذه الطريقة تقوم بإيصال الفكرة التالية: هذه هي معايير الجمال الحقيقية إن لم يكن مظهركِ هكذا فلابد من تغييره لكي تبدين كالعارضة في الصورة، وإن لم تصلي لتلك المعايير فأنتِ قبيحة، غير جميلة، غير كافية كما أنتِ. هذه الحيلة تجعل المرأة دائماً في حالة عدم رضا عن ذاتها، تسقط في دوّامة الشك بالذات، تتكسّر تدريجياً وتتهمّش ثقتها بذاتها، تبدأ بالتساؤل؛ قد يكون من الأفضل لي خسارة الوزن، قد يكون أفضل لي أن أحسّن قوامي بالعمليات، قد يكون من الأفضل أن أصغّر أنفي، أن أنفخ شفتاي، أن أزيل تجاعيد وجهي، أن أضخّم أثدائي.

هذه الشركات تحقق أرباحاً طائلة من وراء القضاء على ثقة المرأة بذاتها. أينما تنظر المرأة ترى معايير جمال مستحيلة لا تستطيع الوصول إليها.

لا يوجد معيار للجمال، وذلك لأن ما نعتبره جميلاً يختلف من شخص إلى آخر. لكن نستطيع القول أن هناك معايير جمال كلاسيكية، أو ما يسمى بالجمال الكلاسيكي، وهي المعايير التي فرضها المستعمر الأوربي. فالمستعمر الأوربي عندما فرض سلطته، وثقافته، ولغته على البلدان المستعمرة، فرض أيضاً جمال نسائه كالمعيار الجمالي الذي يجب أن تُقارن فيه المرأة في البلدان المُستعمرة نفسها. لذلك نجد في الدول التي عاشت تحت الاستعمار كالهند والدول الأفريقية والدول العربية التي يتميّز سكانها بلون البشرة السمراء، نرى تفضيل المرأة البيضاء، والتي تُعتبر جميلة وفقاً لثقافة المُستعمِر.

قد يختلف معي القارئ بالقول أن الموضة هي لون البشرة السمراء، لما قد شهدناه في الخمس سنوات الأخيرة من إقبال العربيات والأوربيات على تسمير بشرتهن سواء كان ذلك عن طريق استخدام كريمات التسمير، أو أجهزة التسمير، أو التعمد للتعرض للشمس على الشواطئ. نعم هناك موضة لتسمير البشرة، وهناك نسبة من النساء الصغيرات في السن اللاتي يرغبن بتسمير بشرتهن بصورة مؤقتة، لكن بمرور الوقت، ستمر الموضة وتنتهي ويبقى المجتمع الكويتي بشكل خاص يفضّل المرأة البيضاء، ويعتبرها أجمل ويعود ذلك لندرتها لأن الأصل في الكويتيات سمرات البشرة، كما أن المجتمع الكويتي منغمس تماماً بمعايير الجمال الغربية نتيجة لانسكابه التام في الثقافة الغربية من أفلام، وإعلام، و سوشال ميديا، و دعايات، ومطربات غربيات جميلات، كل هذه العوامل تؤثر في تفضيلاته ومعاييره.

في إحدى اللوحات الدعائية العملاقة الموضوعة في شوارع الكويت كانت هناك صورة لجسد يشبه كثيراً في مقاييسه جسد الأمريكية الشهيرة "كيم كيرداشيان"؛ صدر كبير، خصر صغير جداً، ومؤخرة عملاقة، المرأة العارضة في اللوحة ليست "كيم" لكن هناك تشابه بمقاييس الجسد، وعلى اللوحة كُتِبَت عبارة "احصلي على مؤخرة برازيلية"، وفي لوحة أخرى مشابهة كتبت عبارة "تكبير المؤخرة يظهر جمال خصرك" وفي أخرى: "احصلي على الجسد المثالي عن طريق نحت الجسد بالليزر من دون جراحة" ثم بيانات عيادة التجميل وعنوانها. وما يجب التنويه له هنا أنه ليس من طبيعة الجسد الأنثوي أن يحمل أثداء كبيرة، ثم خصر صغير جداً، ثم مؤخرة عملاقة، فطبيعة الجسد هو التوازن بين كافة أعضائه. الخصر يدعم الجذع وبالتالي يجب أن يكون حجم الخصر مناسباً لحجم الصدر. كما أنه من الغريب وجود مؤخرة عملاقة وأفخاذ ضعيفة ورشيقة فالأفخاذ تدعم المؤخرة وتحملها وبالتالي لا بد من وجود تناسق في حجميهما. "كيم" من النساء اللاتي حققن ثروتهن من أجسادهن (ومن زواجها من مطرب مشهور) فمن الطبيعي أن تقضي معظم وقتها في "النادي الصحي"، وقد قالت في أكثر من مقابلة شخصية لها أنها تذهب للنادي الصحي ثلاثة مرات في اليوم. أي أنها تكرّس كل وقتها وطاقتها لجسدها لأنه مصدر رزقها،

أما المرأة العادية العاملة فلن تستطيع تكريس كل ذلك الوقت على جسدها، وكيف لها ذلك وهي تحمل مسؤوليات كثيرة، بالإضافة أن المرأة العاملة لا تحقق دخلها من جسدها، بل عقلها هو مصدر رزقها، لذلك عليها التركيز والاهتمام بفكرها وتطوير مهاراتها، وليس قضاء كل وقتها بالنادي الصحي.

"الجسد المثالي" وهم، لا يوجد شيء مثالي، وخصوصاً الجسد، ففي كل جسد معالم جمال وعيوب بالرغم أن تلك العيوب نراها لأنه تم تلقيننا أن الأجساد الجميلة في الصور والمجلات هي المعيار الذي يجب أن نقارن فيه أجسادنا، فنقول مثلاً: "هي حلوة لكنها سمينة" لأنه تم تلقينا أن النحافة هي الأقرب للجمال أو نقول: "هي حلوة لكنها سمراء" لأنه تم تلقيننا أن البياض هو الجمال، إلخ.

انتشرت عيادات التجميل في دولة الكويت انتشاراً كبيراً، ونتيجة للمنافسة الشديدة بينها صارت كل واحدة منها تنادي المرأة لتغيير وتحسين شكلها بأسلوب مغرٍ أكثر، فهذه الشركة تدعي أنها تنحت جسد المرأة خلال يومين، وتلك تنافسها وتدعي أنها تستطيع تحسين القوام خلال 24 ساعة، وأخرى تدعي أنها تستخدم الليزر بدلاً من الجراحة، وهكذا صار جسد المرأة وكأنه في مزاد علني، هذا يعد بتحسينه بمبلغ أقل من منافسيه، و هذا يعد بتعديله في وقت أقل من منافسيه، فتتحوّل المرأة من إنسانة ذات فكر، وعقل، ومشاعر، و آراء، وهموم، وأحلام، ومهارات ومواهب، إلى قطعة من اللحم التي تنهشها وتقطعها سكاكين أخصائيو التجميل وأجهزتهم الليزرية. بينما الرجل ينعم براحة البال، يتقدم بالسن، يتجعد وجهه، يكبر كرشه، يتفاخر بشيب شعره، خصوصاً بعد أن صار الكثير من المشاهير المحبوبين مثل "جورج كلوني" يتباهون بوقار الشيب، يتمتع بالوقار، والحب، والاحترام، أكثر وأكثر كلما كبر في السن. لكن المرأة تعيش في دوامة، تتمسك بشبابها كما يتمسك الحيوان بفرسية تكاد تهرب منه، تلهث وراء تغطية الشيب، وإزالة التجاعيد، وتكميم المعدة. وتعيش في خوف وقلق مستمرين من أن يتركها زوجها، أو أن يتزوج أخرى صغيرة لأنها قد كبرت في السن. تخاف من زوال رغبة الرجل فيها لأنها تفقه تماماً أن هذا هو كل ما تعنيه هي للرجل، مصدر رغبة وشهوة واستغلال جسدي فقط.

لم تخلقي لتكوني جميلة – خاطرة

حبيبتي، لم تخلقي فقط لتكوني جميلة

ولم يخلق الرجل، كي يكون مسطرة الجمال

حبيبتي هناك آلاف الطرق التي يريدون فيها أن يهزموكِ، يهدموكِ، يسرقوا منكِ حبكِ لذاتك

سيعبثون بعقلكِ حتى يقنعوكِ، أنكِ لستِ كافية كما أنتِ

سيشنون الحروب الدعائية، سيدفعون الملايين، سينشرون الإعلانات، سيعلقون الملصقات، سيقفون عند باب كل متجر وسوق، يذكرونك في كل ساعة من كل يوم أنك لن تكوني أي شيئاً، إن لم تكوني جميلة

ولن تكوني جميلة حتى تزيديهم ثراء، تشترين مساحيقهم، تبتاعين أكاذيبهم، تستسلمي لمشرط طبيب التجميل

تقفين لساعات وساعات أما المرآة، تبحثين عن العيوب، عن الفراغات التي حفروها فيك محاولة لملئها،

أعرف كيف عبثوا بقلبكِ، بإيمانك بأنكِ إنسانة، وضعوا أمامك كل تلك المعايير المستحيلة

في مكان ما في طريقك إلى أحلامك، ابتدأ التغيير، لا تذكرين كيف؟ أو متى بالضبط ، لكن ثعباناً نائماً استيقظ فيك

وسعي عينيك، انفخي شفتيك، صغرّي أنفك، انفخي خدّيك، ضيقي خصركِ، غيّري لون شعركِ

حبيبتي، أنا لا أخاف عليكِ من المساحيق والمكياج، أنا أخاف عليكِ من نظرتك الكارهة لصورتك في المرآة.

المرأة التي تثير الإعجاب ولا تثير الاحترام

في المجتمع الكويتي حيث المظهر يغلب على الجوهر. حيث يتم تلقين المرأة منذ سن صغير على صب كل اهتمامها بمظهرها، بمكياجها وملابسها والشنطة ذات الماركة العالمية، بدلاً من تشجيعها على تطوير ذاتها وعقلها واكتساب مهارات جديدة.

تتحوّل المرأة من عقل وفِكر وثقافة إلى جسد تم تزينه بالمكياج والأقمشة. ولماذا يتم تلقين المرأة في المجتمعات الذكورية أنها مجرّد شكل؟ لأن كل ما تراه هذه الأنثى منذ الصغر يدل على أن المرأة دمية خلِقت لإرضاء الرجل وإثارة إعجابه وليس الحصول على احترامه.

فالأنوثة في المجتمع الذكوري هي الضعف والصمت والرضا والرضوخ وانعدام الرأي وانعدام الفِكر. وعندما ترى الفتاة منذ سن مبكر أن هذه هي الصفات التي ستمنحها محبّة الرجل ورضاه، بالرغم أنها لن تحظى من خلالها على احترامه. تسعى الفتاة لإظهار علامات الضعف والخوف، فتصرخ عندما ترى صرصاراً أو قطة ليأتي الذكر لإنقاذها فيشعر هو برجولته بتأكيدها هي لضعفها بخوفها من حشرة صغيرة أو حيوان أليف، وتصمت وترضى وترضخ عندما يهينها الذكر، أو يتحكّم بها أو يعنفها أو يفرض رأيه عليها ليشعر برجولته، عن طريق إلغاءها هي لذاتها ورغباتها ورأيها والتظاهر بأنه لا حيلة لها سوى أن ترضخ للذكر.

تجلس الفتاة الصغيرة مع والدتها والنساء اللاتي يكبرنها سناً فلا تسمع سوى أتفه الحوارات عن الموضة والمكياج ومن تزوّج ممّن، ومن تطلّق ممّن، ومن خان من، وعن روعة حفل زفاف تلك، وسوء اختيار إحداهن لفستان زفافها، أو قبح تسريحة شعرها، عن تلك التي زاد وزنها، وتلك التي عملت عملية تخسيس، عن هذه التي صبغت شعرها، وتلك التي وضعت عدسات بلون غريب.

ثم تبدأ الفتاة الصغيرة بحضور حفلات الزفاف فترى فتيات ونساء بالمكياج الكثيف المبالغ فيه، والفساتين الضيقة والقصيرة، والمبالغة في إبراز الصدر والمؤخرة، والرقص بهز الصدر والمؤخرة، والذي تم تلقين الفتاة الصغيرة بأنه عيب، لكن في مثل هذه الظروف، بتواجد النساء فقط فهو مقبول، وأمام زوجها عندما تكبر وتتزوّج فهو مرغوب!

في المدرسة يتحدثن الفتيات مع بعضهن عمّا يفضله الذكر، هل يفضّل ذات الشعر الطويل أم القصير؟ هل يفضّل ذات البشرة السمراء أم البيضاء؟ هل يحب القصيرة أم الطويلة، هل يفضل النحيفة أم الممتلئة؟

يتشبّع عقل الفتاة الصغيرة بهذه الصور والكلمات والإيماءات والحركات التي تؤكد لها بأن هذه هي الأنوثة، وتشجعها بأن تكون المرأة الضعيفة المتزينة الساذجة التي تهز صدرها ومؤخرتها، وتنفق مبالغ كبيرة على المكياج والذي تحاول من خلاله تحسين ملامحها بتصغير الأنف وتوسيع العين وتحديد الفم، وتتمحور اهتماماتها حول الملابس والمجوهرات والماركات، والتي تشكّل نفسها ومظهرها كما يحب الرجل هي التي تفوز بالرجل، وأن الفوز بالرجل هو مصيرها الوحيد والهدف من وجودها على قيد الحياة، فقد تم أدلجتها بأنها في حالة منافسة مستمرة مع من حولها من فتيات على أي منهن ستحظى بذلك الذي سيوفر لها امتيازات اقتصادية أكبر.

وعندما يُطرح النقاش بأنه لا يمكن للمرأة الجمع بين الاهتمام بعقلها وتطوير ذاتها، وفي ذات الوقت الانغماس التام والهوس بمظهرها الخارجي، تغضب بعض النساء ويدّعين بأنهن يستطعن الجمع بين الاثنين، أو كما قالت إحداهن عبر تويتر بأنها تحمل كتب الفلسفة العميقة في حقيبتها ال Louis Vuitton مبينة بأنها تهتم بتوسيع عقلها ومداركها وفي ذات الوقت متابعة الموضة وارتداء آخر الأزياء.

المسألة ليست مسألة حقيبة واحدة أو اثنتين، المسألة هي أن لكل منّا طاقة عقلية وجسدية محددة، إذا كنتُ أستثمر طاقتي العقلية والجسدية بشكل يومي على شكلي الخارجي فلن يتبقى لي طاقة أستثمرها في إشباع عقل، أو تنمية موهبة، أو اكتساب مهارة، أو تطوير ذات، أو إنماء علم أو معرفة. إذا كانت المرأة تستيقظ باكراً فقط لتقضي ساعات بوضع المكياج واختيار البدلة لكي يكون مكياجها وشكلها مثالياً قبل ذهابها للجامعة أو للعمل، فكم من طاقتها تبقّى للعمل أو الدراسة؟

وإن كانت تقضي أياماً استعداداً لحفل زفاف أحد أقربائها، ثم بعد الزفاف ببضعة أيام هناك حفل استقبال لقريبة أو صديقة أخرى، وبعدها هناك حفل عشاء لأخرى، ثم حفل ولادة لأخرى، ثم حفل تخرّج لأخرى، وبضعة زيارات ومجاملات، وضرورة التجهيز لرمضان بأزياء شعبية، ثم اللهث والجري على أزياء العيد ومكياج العيد وعدسات العيد، فكم من الوقت في السنة والطاقة العقلية والجسدية قد تبقى لها لكي تهتم بالقراءة أو بالدراسة أو لتغذية روح أو تنمية عقل؟ ولا ننسى أنها عندما تقوم بالتجهيز لكل هذه المناسبات المتتالية فهي تقوم بذلك بغاية إثارة إعجاب من حولها من أقارب وصديقات وفقاً لما تم رسمه لها مسبقاً من معايير ذكورية، فهي عادة لا تشتري أو تلبس ما يعجبها بل ما يعجب المجتمع من حولها من إناث وذكور. تصبح المرأة في المجتمع الذكوري ماهرة جداً بإثارة الإعجاب، لكنها لا تثير الاحترام، فإن كانت تقضي كل وقتها بالتزيّن، ثم تقضي وقتها بالقلق على مثالية زينتها من مكياج أزياء وهي متجهة لتلك المناسبات والمجاملات التي لا تنتهي، فماذا ستكون حواراتها سوى حوارات خالية من العقل والفكِر، تدور حول الأزياء والمكياج فقط.

وحتى الذكر في المجتمع الكويتي صار محور اهتمامه ملابسه، وساعته، وحذاؤه، وسيارته، وتسريحة شعره، وتنمية عضلاته في النادي، لا يملك ثقافة في أي موضوع لأن لا وقت لديه للقراءة، يقضي وقته في النوم أو في الديوانيات أو في المقاهي، وكل ما يحمله عقله من معلومات قد سمعها من صديقه، الذي سمعها بدوره من صديق آخر. بعد أن اتضح له أن مجتمعه سطحي يهتم بالمظهر ولا يهتم بالجوهر.

وعندما تصبح الأنوثة كلمة مرادفة للضعف والخوف والصمت والرضوخ، والدين الذي له تأثير كبير على المجتمع وعلى علاقة المرأة بالرجل، يرسم المرأة بصورة ضعيفة، فوفقاً لكتب السيرة أن آخر وصايا النبي قبل وفاته كانت "رفقاً بالقوارير" والتي يقصد بها توصية الرجال على النساء بأنهن ضعيفات كالقوارير، حيث تم تصوير المرأة بأنها هشة وضعيفة كالقارورة المصنوعة من الزجاج أو الفخّار يسهل كسرها وتحطيمها. لما تصبح صفة مكروهة عند الجنس الذكوري "الضعف" ميزة تتحلى بها الأنثى، فليس من المستغرب من أن المرأة ستثير إعجابه من حيث الشكل، لكنها لن تثير إحترامه.

ثم يردد المجتمع الذكوري على مسامع المرأة "أنتِ أميرة أو أنتِ ملكة"، يرددها على مسامع الفتاة الصغيرة، حتى تكبر و تصير هي أيضاً ترددها ظانة بأنها ميزة وفخر، فالملكة لا تعمل، الرجل يعمل عنها ويصرف عليها، والملكة لا تطبخ بل يحضرون لها من يطبخ عنها، والملكة لا تربي أولاداً، يحضرون لها المربيات، والملكة لا تخرج للأماكن العامة فيراها عموم الناس. وهي ليست إلاّ حيلة لسلب المرأة من كل حقوقها وحرياتها، لا تملك استقلالاً مادياً لأنها لا تعمل فتظل دائماً تحت رحمة الرجل الذي يعطيها مصروفاً كالطفل إن شاء، وإن لم يشأ فلا حول لها ولا قوّة. لا تملك قوّة الشخصية ولا العلم ولا الفكر الذي يمكنها من تربية أطفال أصحاء نفسياً، عقلياً وأقوياء شخصية، فنرى المجتمع الكويتي يعتمد على الخادمات في تربية الأطفال، خادمات لا يتشابهن مع المجتمع الكويتي لا بالثقافة ولا باللغة ولا بالمبادئ، يتم جلبهن من أفقر دول العالم حيث حتى معايير النظافة متدنية جداً أو معدومة. والذكور الذين قلّدوا المرأة هذا العرش، عرش الملكة، هم ذاتهم يتذمرون من اتكالية المرأة عليهم، يتأففون من غلاء المهور، والتزامهم المادي تجاه زوجاتهم وأطفالهم، فصفة "الملكة" التي يستخدمها الذكر في إقناع المرأة بالتنازل عن حريتها بالخروج والعمل وممارسة حياة طبيعية، هي التي تصبح مصدر احتقار الذكر للمرأة وانعدام احترامه لها. كما قال الفيلسوف الفرنسي "بالزاك" (1799 – 1850) الزوجة عبدة يقنعها زوجها أنها تجلس على عرش.

عندما كتب الفيلسوف الفرنسي "روسو" (1712 – 1778) أن تعليم المرأة وعملها وخروجها ومزاحمتها للرجل في الحياة العملية اليومية سواء لكسب الرزق أو لقضاء الحاجات سيجعلها أقل أنوثة وأقرب للرجولة، وإذا صارت المرأة مشابهة للرجل فلن يكون لها سلطة عليه، كما للأنثى الضعيفة سلطة عليه. ردّت عليه الفيلسوفة الإنجليزية "ماري ولستونكرافت" (1759 – 1797): لا أريد للمرأة أن يكون لها سلطة على الرجل، بل أريد أن يكون لها سلطة على ذاتها، وغير معتمدة على الرجل في كسب قوتها أو إدارة حياتها.

ما هو الحل؟

الحل هو التوقف عن تصوير الأنوثة على أنها ضعف وبأنها براءة وجهل، وبأنها صمت وخوف ورضوخ. على الذكر التوقف عن اعتبار المرأة الضعيفة الخائفة البريئة هي الأنثى المثالية. عليه التوقف عن الاعتماد على الأنثى لتشعره برجولته، عليه التوقف عن الاعتقاد بأنه ليس رجلاً قوياً إلاّ إذا مارس سلطته على مرأة ضعيفة، فإذا صارت المرأة التي أمامه قوية يشعر بالتقزّم ولا يشعر برجولته فيخافها و يتحاشاها،

يجب على الذكر أن يستمد رجولته من ذاتيته ولا يبحث عنها في ضعف المرأة. وإن كان أباً أو أخاً أو زوجاً ويعطي ابنته، أخته، أو زوجته شيئاً من الحرية فيجب عليه ألاّ يمتن عليهن باستمرار "ها أنا أسمح لكِ بالعمل" "ها أنا سمحت لكِ بإكمال دراستكِ، أو بقيادة السيارة، أو بالذهاب لهذا المكان أو ذاك"، فلا يوجد فرق كبير بين الرجل الذي يحرم المرأة حقوقها وحرياتها ليتسلّط عليها ويشعر بقوته ورجولته، وبين الذي يمنحها قسطاً من الحرية ليطالبها باستمرار بأن تكون ممتنة ومدينة له، فهذا الأخير أيضاً يريد أن يشعر بقوته ورجولته من خلال ما سمح به للمرأة من حقوق وحريات.

الحل هو أن توقف المرأة عن اشباع معايير الأنوثة التي يحددها الذكر. أنتِ الأنثى، أنتِ من يحدد معايير الأنوثة وليس الرجل، وبعد أن تؤمني تماماً أنكِ أنتِ من يحددها وليس الذكر، تيقني تماماً بأنه ليست هناك معايير الأنوثة، هي أي شيء تريد أن تكونه المرأة، الأنوثة هي كل ألوان البشرة، كل أنواع الأجساد: النحافة والامتلاء والسمنة. الأنوثة الشعر القصير، ومتوسط الطول، والطويل، والتي تحلق شعرها تماماً لا تخسر أنوثتها. الأنوثة لا علاقة لها بطول المرأة ولا قصرها، ولا مدى حبها لوضع المكياج أو تفضيلها للبس التنور أو البنطال، الأنوثة ليست إزالة شعر الجسد، وليست البشرة الصافية. الأنوثة ليست بالضرورة إتقان الطهي أو الخياطة، وليست التفاخر بالكسل أو التفاخر بعدم إتقان أي مهارة، كما تفعل بعض النساء اللاتي يعتقدن أن عدم معرفتهن لأي شيء وعدم إتقانهن لأي مهارة سوى وضع المكياج هو دليل على أنهن مدللات. الأنوثة شيء داخلي نفسي لا علاقة له بأي مظهر خارجي، أي شيء تفضلينه أنتِ من أسلوب حياة هو الأنوثة بالنسبة لكِ، كل امرأة تحدد لذاتها ووفقاً لذوقها وميولها ماهيّة الأنوثة. وهي ليست معايير محددة مسبقاً موضوعة من قبل الذكور في مجتمعكِ، تولدين لكي تعيشي بناءً عليها. لكن انغماس المرأة التام بمظهرها الخارجي، واستثمار كل وقتها وطاقتها في تحسين شكلها شجّع على انتشار ظاهرة "الفاشينيستات" فارغات العقل، وجعل لأمثالهن رأياً وتأثيراً على الوعي الاجتماعي من شأنه تعويد المرأة بالانشغال بمظهرها الخارجي وسلبها الوقت والطاقة التي تمكنها من الحياة بطريقة مساوية للرجل. التبسّط في كل شيء من ملبس ومكياج واهتمام بالأزياء والماديات من مجوهرات وسيارات وغيرها، هو ما يسمح للمرأة بالخروج من دوامة المظهر الخارجي ويمنحها الاستقلالية والرضا عن الذات، فتوقفها عن إرضاء معايير الذكر للأنوثة، والتوقف عن محاولة أن تكون ما يريده الرجل، والتركيز على ما تريده هي، سيمنحها سلطة أكبر على ذاتها.

قلتُ لا - خاطرة

قال الرجل: كوني مُطيعة، فأنا لا أشعر بأنني رجل إلاّ عندما أُمارس سلطتي على المرأة

قلتُ: لا

قال: كوني ضعيفة، كي أشعر بأنني قوي

قلتُ: لا

قال: كوني مترددة وخائفة وخَجِلة، حتى أشعر أنني ذو قرار

قلتُ: لا

قال: كوني غبيّة أو على الأقل اصطنعي الغباء، لأشعر أنني أذكى منكِ، فلا شيء يُهين ذكورّيتي أكثر من المرأة التي تفوقني ذكاءً وثقافة ومهارة

قلتُ: لا

قال: ابكي عليّ عندما أهجركِ كي أشعر أنني ذو قيمة

قلتُ: لا

قال: أُكتبي الشعر والخواطر بحبي وعن رجولتي، فأنا لا أرى ذُكورّيتي إلاّ في عينيكِ، ولا أسمعها سوى بكلماتكِ

قلتُ: لا

قال: اطلبي نصيحتي، وتوسلي إليّ كي يتضاعف حجمي، وأظنُّ أنني ذو حكمة، وأتوهّم بأنكِ مدينةً لي

قلتُ: لا

قال: اسمعيني باهتمام وأنا أتفلسف عليكِ، و لِتَعتصِرْكِ الغيرة حين أقصُّ عليكِ أساطير وتفاهات وأكاذيب عن مغامراتي ونسائي وعن تجاربي الساذجة السطحية

قلتُ: لا

قال: تَزيّني وتجمليّ وأبرزي ملامح أنوثتك لي فقط، واحجبي جمالكِ عن الناس، كي أتوهّم أنني أملكِ كجارية، لا قيمة لها سوى تحت سيطرتي

قلتُ: لا

قال: أغدقي عليّ بالمديح ليلاً ونهاراً، حتى لو كنتُ لا أستحق كلمة ثناء واحدة، أشعريني بأنكِ لا ترينَ سِواي، لا ترغبين إلاّ بي، كأنه لا يوجد رجل آخر في العالم غيري

قلتُ: لا

قال: اعبديني وأجليني كالآلهة أمام الناس، وفي خلوتنا عامليني كطفل ضعيف، غبي، مغفّل

قلتُ: لا، لا، لا.

الجهد العاطفي

Emotional labor

تحكي لي إحدى طالباتي السابقات التي ظللت على تواصل معها منذ تخرجها حتى أصبحنا صديقات، عن الكم الهائل من المسؤوليات التي تقع على عاتقها في المنزل (بيت أهلها) خصوصاً في الآونة الأخيرة حين قررّ والداها الانفصال بعد زواج دام ثلاثين عام. هناك إخوتها الصغار الذين يحتاجون الرعاية، الاهتمام، الترفيه، الاطمئنان، والاحتواء بعد أن رحلت ماما، وصار بابا دائماً غاضباً، عابس الوجه، ومهموماً. هناك فترة ما قبل رحيل ماما عندما كانا في حالة شجار وصراخ دائم، وتوجّب عليها هي أن تكون الفرد الوحيد الراشد والعاقل في العائلة. هناك أختها الصغيرة التي تدرس في الخارج وتحكي لها باستمرار عن وحدتها وعن التحديات التي تواجهها بشكل يومي، وتضطر صديقتي أن تقول لها أن كل شيء في البيت على ما يرام، وأن ماما وبابا "زعلانين" فقط وسيعود كل شيء على ما كان عليه قريباً، وأنه يجب عليها ألاّ تبالي ولا تهتم وأن تفكر بدراستها فقط. وهناك عملها بالمحاماة الذي أحبته وتركته بعد ضغوطات وخناقات مستمرة من أمها التي كانت تذكرها في كل يوم أنها أصبحت في السادسة والعشرين من العمر، وفرصها في الزواج صارت شحيحة، وأن الخطّاب يتجنبونها بسبب مهنتها. هناك بابا الذي كان صديقها وسندها ترتاح حين تحكي له عن يوم سيّء في وظيفتها الجديدة في وزارة بائسة، تحكي له عمّا يخالجها من هموم، عمّا تخشاه، وما تتمناه، لكنه منذ رحيل ماما أصبح هو من يصبّ عليها كل أحزانه، تعود للبيت منهكة من وظيفتها التي تكرهها، فتجده جالساً عابساً ومكفهراً، داعياً إياها لتسأله إن كان على ما يرام، فينكسر السّد وتنهمر كل شجونه وأنكاده: "كيف لأمكِ أن ترحل هكذا؟ كيف لها أن ترفع دعوى نفقة وحضانة في المحكمة، بينما كان بالإمكان أن نتحاور، أن نتناقش، أن نحل الأمور بدلاً من اللجوء للقضاء. أنا لم أقصّر معها، لم أقصّر معكم"، فتضطر هي رغم إرهاقها الجسدي والنفسي أن تتحوّل من ابنته التي تحتاج لوالدها أن يكون مصدر قوّة لها، إلى أمه التي يجب عليها أن تنصحه، وتطمئنه، وتطبطب عليه، بالرغم أنها لا تملك الحلول. هناك الإشراف على حاجيات البيت: هل هناك ما ينقصهم في المطبخ لتذهب للجمعية؟ هل تقوم الخادمة بتحضير الوجبات الثلاث اليومية في ميعادها؟ هل أكل الصغار؟ هل أدوا واجباتهم المدرسية؟

ماذا تقول للأقارب عندما يهاتفون؟ كم من المعلومات الخاصة يُقال، وكم منها يبقى سراً؟ لمن تلجأ إن اشتدت الأمور سوءاً من دون أن تشعر بأنها تغدر بوالديها؟

غالباً ما نجد الأنثى هي من يتحمل الجهد العاطفي في الأسرة، وفي العلاقات الزوجية، والعاطفية، بل وحتى في مكان العمل. للذكر أن يقول بكل أريحية "لست مسؤولاً عن مشاكلكم" ثم يخرج، يسافر، يبيت خارج المنزل إن ضاقت عليه الأمور من دون تحمل أي جزء من الجهد العاطفي. بل كثيراً ما يتجاهل الذكر وجود صراعات في البيت بالتظاهر أنه لا يعلم أي شيء عما يحدث، خالقاً بتظاهره بالجهل جداراً يمنع من خلاله أي تواصل بينه وبين أفراد الأسرة، صمته رسالة مفادها "لا أعلم ولا أريد أن أعلم"، يدخل البيت كنزيل في فندق لا يحاور أحداً، يأكل وينام، ثم يخرج.

أما الأنثى حتى ولو كانت الابنة الصغرى، أو صغيرة جداً في السن، نجدها تحمل المسؤولية المرمية التي يتحاشى الآخرون حملها. والمقصود هنا بالمجهود العاطفي ليس التنظيف، والطهي، وإحضار مستلزمات المنزل، بالرغم أن هذه المسؤوليات شاقة في حد ذاتها تحتاج لوقت وجهد، إلاّ أنها لا ترهق المرأة عاطفياً، لا تغرف باستمرار من طاقتها العاطفية، ذلك المورد الثمين الذي تستمد منه المرأة (الذي يستمد منه الإنسان) الأمان العقلي والروحي الكافي، والراحة النفسية الكافية لمواجه الأمور الحياتية اليومية من عمل، ودراسة، وتربية، وغيرها. تُنفق المرأة من طاقتها العاطفية عندما يتطلب منها الوضع أن تكون الأم والأب للأسرة بالرغم أنها الإبنة، فتهتم لمشاعر هذا، وتبكي لألم ذاك، وتربت على ظهر هذا، وتئن لأنين ذاك. تنفق المرأة من طاقتها العاطفية أيضاً عندما تكون الأم في أسرة يرفض فيها الأب تحمّل بعض من الجهد العاطفي، فتجد الأم وحدها تنفق كل طاقتها العاطفية على الأبناء، وعلى زوجها أيضاً في كل مرّة يحتاج منها زوجها أن تشعر بشيء لا يريد هو أن يشعر به، فالأب الغائب المنفصل عاطفياً عن أبنائه، لا شيء يجمعه بأولاده سوى توجيه الأوامر والحوارات الرسمية الجافة، أو الغضب والصراخ، هذا الأب إذا شعر بالذنب فهو يلقي بهذا الشعور على زوجته، لأن الشعور بالذنب شعور ثقيل ومكلف جداً عاطفياً ولا يريد تحمّله، فنجد الزوجة في هذا السيناريو تستنزف طاقتها العاطفية بتحمل ذنب زوجها فتقوم بما يسمى بِـ Over Compensating أو التعويض المبالغ فيه من إغداق شديد بالعاطفة على أبنائها، أو المبالغة الشديدة في الخوف عليهم، مما ينهكها ويستنفذها عاطفياً، فنجدها دائماً تشتكي التعب بالرغم أنها في بعض الأحيان لا تعمل خارج المنزل ولديها خادمة تساعدها في البيت، هذا الإنهاك العاطفي يقود المرأة إلى

الإفلاس العاطفي، فلكل منّا مخزون واحتياطي من الطاقة العاطفية، قد يختلف حجم هذا المخزون والاحتياطي من شخص إلى آخر، لكن المرأة التي تجد نفسها مسؤولة عن مشاعر الجميع، التي تشعر أن عليها أن تكون مصدراً غير ناضب للاهتمام بسعادة وراحة بال أفراد أسرتها، أو بين صديقاتها، أو في العمل من دون أن تكون هناك وسيلة لإعادة توفير، لإعادة ملء ذلك المورد، يكلفها مجهودها العاطفي الكثير، يأخذ من ذاتها، ويسلبها من حقها في مخزونها العاطفي.

تغضب المرأة التي تنفق من طاقتها العاطفية من دون حساب لأنها ترى أن الجميع يغرف من طاقتها من دون مقابل، من دون الأخذ بعين الاعتبار أنها وحيدة في هذا الدور المرهق والمكلف الذي حملوها إياه. تشعر المرأة غالباً بأنها الكأس الذي يستسقي منه جميع من حولها دون وضع أي اعتبار بأن هذا الكأس أيضاً ينفذ ويجف محتواه. وقد يقودها مجهودها العاطفي للتضحية بسلامتها النفسية والعقلية.

تحكي لي فتاة عن دورها في البيت الذي تعيش فيه مع أمها التي ترملّت بعد سنوات طويلة من العذاب والشقاء مع والدها الذي كان رجلاً سيء العشرة، عنيفاَ، سكّيراَ، وغير مسؤول. لديها أخوات يكبرنها سناً تركن البيت بعد زواجهن، وأخ أكبر عاد للبيت بعد طلاقه. تهتم هذه الفتاة بكل ما يلزم والدتها والمنزل من أغراض، وأخذ سيارة والدتها للتصليح، وحتى الأمور القانونية المتعلقة بالبيت الذي أخذ الدائنون والورثة يطالبون به بعد وفاة والدها. ظنّت أن عودة أخيها الأكبر ستساهم في رفع بعض المسؤوليات عنها لكن الأمر كان عكس ذلك، أخذ يتمادى بطلباته "أحضري ملابسي من المصبغة، اهتمي بالقضايا التي رفعتها ضدي طليقتي، لا تنسي أن تشتري لي هذا النوع من الشوكولاتة في رحلتك القادمة للجمعية، قولي للخادمة أن تأتي لي بالغداء في غرفتي". أما أخواتها الكبار فيأتون للزيارة مرّة أو مرتين في الأسبوع ويحولونها إلى سلّة مهملات، كل واحدة منهن تقذف عليها بكل ما مرّت به خلال الأسبوع من مشاكل؛ سواء مع زوجها، أوفي تربية الأولاد، أو مشاكل العمل، يشتكين، يفضفضن، يزحن عن نفوسهن كل صغيرة وكبيرة، ثم يذهبن لبيوتهن وأزواجهن بعد أن تخلصن من كل أعبائهن النفسية.

فتاة أخرى تقول: والداي موجودان وبصحة جيدة، ولست الابنة الصغرى ولا الكبرى لكنني فوجئت بأن الكل يعتمد عليّ في كل الأمور، جميع أفراد الأسرة يعتبرونني الأذن الصاغية، والكتف الذي يتكئون عليه،

وفي وقت حاجتي لمن أتحدث معه لا أجد أحداً منهم. يتوقعون تلقائياً بأنني سأهتم بكل صغيرة وكبيرة، وأجد حلولاً لمشاكلهم، دون اتفاق مسبق بأنني سأقوم بذلك، مما يضع ضغطاً كبيراً على وقتي، وطاقتي، وراحتي، وإذا تجرأت واشتكيت تضايقوا منيّ، وانهالوا عليّ باللوم.

رجل يقول بأنه بعد تطليق زوجته، وزواجها هي من آخر، حصل على حضانة أبنائه (ابن يبلغ العاشرة من العمر، وابنة تبلغ السابعة)، وفي كل مرّة يخرج فيها من البيت حتى لو في مشوار قصير للجمعية، تتصل "ابنته عليه "ها بابا، كيف حالك؟ أأنت بخير؟

تتعلم الفتاة في سن مبكر أنها المسؤولة عن راحة وسعادة الآخرين في البيت بسبب تخلي أحد الوالدين أو كليهما عن هذه المسؤولية، فتشعر هي بوجوب تحملها. وفي زواجها عندما يجبرها زوجها على الإسراف بمجهودها العاطفي؛ يريدها أن تظهر اهتماماً بالغاً بكل ما يقوله (فتضطر كثيراً للتظاهر بالاهتمام)، أن تفرح فرحاً مبالغاً، وتحزن حزناً مبالغاً لكل ما يفرحه ويحزنه، أن تحمل همومه عنه، أن تقلق وتتأرق لكل ما يشغله، أن تضحك بشدة على مزاحه/نكاته حتى وإن كان غير مضحك وإلاّ جرحت مشاعره! (ما ذنبها هي إن كنت لا تجيد حكاية النكات!)، حتى عندما تكون علاقته بأهله ليست وطيدة وفاترة يريد زوجته أن تكون حاضرة عاطفياً ومنسجمة مع أفراد أسرته، لأنه لا يرغب في لعب ذلك الدور من أجلهم. في كثير من الأحيان تقوم الأنثى بهذا الدور في العمل، تستمع لفلانة، وتطمئن على فلان، تبتسم وتجامل حتى وإن كانت منهكة وتثقلها الهموم، لأن كل من في المكتب يتوقع منها ذلك، ثم يطلب منها المدير الاهتمام بتفاصيل وطلب البوفيه بسبب مناسبة أو أخرى، والتأكد من وصوله وتقديمه بصورة لائقة، لأنه "رجل" ولا يفهم بهذه الأمور. وفي يوم البوفيه تجد نفسها تسأل كل موظف ما إذا كان قد أكل أم لا، وما إذا كان يرغب بشرب شيء أم لا، رغم أن كل ذلك لا يدخل ضمن مسؤولياتها في العمل، ولا تتقاضى أجراً عليه. والكل في المكتب يظن أنها تحب تحمّل مسؤولية رضا وسعادة الجميع، أنها هي هكذا تستمتع بالاهتمام بالكل، لذلك لا يسألها أحد إن كانت تحتاج للمساعدة.

حتى في علاقتها العاطفية بالرجل، تتحمّل المرأة المجهود العاطفي كله، فتخلق له الأعذار، وتتغاضى عن الكثير وتتغابى من أجل إرضائه، تهضم حقها وتغدق عليه بالعطاء، وقد تقول له في نهاية الطريق أنها تتفهم

عدم قدرته على الالتزام بها أو البقاء معها فتحمل هي الألم كله. في الكثير من الحالات تمنحه الباب الذي يستطيع منه الخروج من العلاقة من دون تحمّل أي شعور بالذنب

المجهود العاطفي الذي تؤديه المرأة مكلف، لكنها لا تتقاضى أي أجر على أدائه، وكثيراً ما تؤديه طوال حياتها، فلا يوجد سن تقاعد في هذا النوع من العمل. غالباً، لا يلتفت الرجل لِمجهود المرأة العاطفي ظناً منه أن المرأة خُلِقت هكذا، خُلِقت مُحِبّة للهموم وتَحمّل الهموم. ما ينساه الرجل (أو ما يتناساه) أن المرأة تشبهه تماماً، تريد اهتماماً، تحتاج من يحمل عنها (أو معها) عبء المجهود العاطفي، لا تمانع العطاء طالما كانت هي أيضاً تأخذ، ترغب بالرحيل والابتعاد بين فترة وأخرى لتعيد بناء ذاتها.

الوظيفة الثانية: عمل المرأة غير مدفوع الأجر

"الشيفت" الثاني

صرنا نعيش في وقت تعمل المرأة فيه خارج البيت في وظيفتها أو مهنتها الصباحية وتتقاضى أجراً على عملها هذا. ثم تعود المرأة للبيت من وظيفتها الصباحية لتحمل مسؤوليات وظيفة ثانية داخل البيت: من تربية وتدريس الأطفال، وطهي، وتنظيف، وغسل و كيّ، وفي الكثير من الأحيان تكون أيضاً مسؤولة عن إحضار مستلزمات البيت، توصيل وإحضار الأطفال من المدارس والنوادي، وأخذهم للطبيب، وتكون مسؤولة أيضاً عن العضو المُسِن أو المريض في الأسرة. لكنها لا تتقاضى أجراً عن عملها في البيت، أو ما يلقبه بعض الباحثين في مجال المرأة بـِ "الشيفت[19] الثاني" أو The Second Shift فالمرأة الآن تعمل "شفتين" أو وظيفتين: خارج وداخل البيت. تتقاضى أجراً على الأول ولا تتقاضى أجراً على الثاني .

وإن كان القارئ الآن يتساءل لماذا أتكلم عن حق المرأة في الأجر لوظيفتها الثانية في البيت من عناية واهتمام وتربية وتعليم وتنظيف وطهي، وتوصيل، وطبابة فهذه كلها مسؤوليات المرأة الطبيعية، يجب عليها أداؤها من دون أجر. فالرد هو التالي؛ إن كناّ نؤمن بأن كل جهد وعمل يؤديه الإنسان له قيمة، وقيمة مادية بالذات، فيجب تعويض المرأة مادياً على ما تؤديه من عمل داخل البيت. ويبدو جلياً بأن المجتمع الكويتي يؤمن بمشقة الأعمال المنزلية ويؤمن بالتعويض المادي مقابل أداء هذه الأعمال، والدليل على ذلك أن أغلبية الأسر لديها خادمة (واحدة على الأقل، وفي معظم الأحيان أكثر من واحدة) تقوم بالأعمال المنزلية من تنظيف، وطهي، وغسيل وكوي بأجر شهري، وبالرغم أن أجر الخادمات أقل مما يجب، فلماذا يكون التعويض المادي مستحقاً لليد العاملة المستأجرة ولا يكون مستحقاً لربةّ المنزل ذاتها إن هي أدت العمل من دون استئجار يد عاملة؟

كما أنه يتم دفع الأجر للخادمة التي تحضرها الأسرة للطفل الرضيع (المربية) التي يكون اهتمامها فقط بالصغير الذي يحتاج لرعاية دائمة وطوال اليوم، لكن لا أجر يُدفع للأم المتفرغة للصغير.

[19] أردتُ لفظاً عربياً بدلاً من اللفظ الإنجليزي "شيفت" لكنني لم أجد سوى "مناوبة" وشعرت أن مناوبة تعطي انطباعاً أن هناك شخصا آخر تتناوب معه المرأة من حيث تقسيم المسؤوليات، فتتقسم الأدوار بينهما، أماً على أرض الواقع فكل المسؤوليات في "الشيفت" الثاني تقع على عاتق المرأة وغالباً ما لا يتقاسمها الزوج. وفي حال كانت الأم عزباء (مطلقة أو أرملة) فلا وجود للزوج

والعناية بالصغير أو الرضيع مهنة قديمة استحقت عليها النساء الأجر، ففي العصور القديمة كان الرضيع يُؤخذ للمرضعة، التي تتقاضى أجراً لإرضاعه ورعايته لعدد معيّن من الساعات في اليوم.

ويتم دفع أجر شهري للسائق الذي يقوم بتوصيل الأطفال من البيت للمدارس، ومن المدارس إلى البيت، وإلى الجمعية والأسواق، والزيارات الأسبوعية وأماكن الترفيه، وكل هذه الساعات من العمل والقيادة تؤديها المرأة من دون مقابل في الأسرة التي لا توظف سائقاً.

ويُدفع الأجر للمدرس الخصوصي الذي يساعد في رفع المستوى العلمي للأبناء، بينما لا أجر للأم التي تدرّس أبناءها. ويُدفع الأجر للمصبغة التي تغسل وتكوي الملابس، ولا يُدفع للمرأة التي تقوم بالمثل. وفي حال وجود عضو مريض أو مسن في الأسرة، تكون رعايته من مسؤولية المرأة من دون مقابل، أما في حال عدم وجود أو عدم تفرغ المرأة يتم دفع مبلغ باهظ لممرضة تأتي لساعات معينة يومياً للعناية بالمريض.

العمل المنزلي منهك، ويتطلب وقتاً وجهداً كبيرين، كما أن العمل المنزلي يعتبر من الأعمال المستمرة التي لا تنتهي، أي أنه يستهلك الكثير من الوقت والطاقة، لكن بمجرد أن ننتهي من عمله صار واجباً إعادة عمله من جديد؛ بمجرد الإنتهاء من ترتيب وتنظيف المنزل حتى يصير مبعثراً ومتسخاً ثانيةً ووجب تنظيفه مرة أخرى، وبمجرد لبس الملابس النظيفة حتى يصير واجباً غسلها ثانية، إلخ. ومع استمرار التقسيم التقليدي للأدوار الاجتماعية الجنسية في المجتمع الكويتي، أي أن الرجل لا يساهم في أي من الأعمال المنزلية، ويتركها بالكامل للمرأة، نجد الأسرة، وفي الكثير من الأحيان المرأة تُنفق من مدخولها لاستقدام العمالة المنزلية، لتوفير الوقت، ولتفويض الخادمة بالأعمال التي لا تطيق القيام بها. ويصبح استقدام الخادمة وتفويض عمل المنزل إليها حاجة ماسة في وقت صار فيه غلاء المعيشة يحتاج لعمل الأبوين معاً، وفي الأسر الأحادية أيضاً، حيث تحتاج الأم العزباء حاجة ماسة للعمل.

من وجهة نظر أخرى لم يعد ممكناً الاعتماد على التقسيم التقليدي للأدوار الاجتماعية الذي يجعل العمل (مدفوع الأجر) خارج البيت للرجل وحده، والعمل (داخل البيت غير مدفوع الأجر) للمرأة وحدها، فسوق العمل يحتاج لعمل المرأة، والأهم من ذلك المرأة لن تتنازل عن حقها في العمل الذي يضمن لها كيانها

واستقلالها المادي، وبناءً عليه فإن لم يكن الرجل مستعداً لتحمل جزء من مسؤولية الأعمال المنزلية، وظل العبء كاملاً مرمياً على كتفي المرأة فعدم تعويضها بالأجر لن يجعل هذا العمل بالنسبة لها منهكاً جسدياً وعقلياً فحسب، لكنه سيولّد السخط، والغضب، والشعور بالظلم لدى المرأة مما يؤدي في الكثير من الأحيان إلى خلافات زوجية، وأحياناً الانفصال والطلاق. تعويض المرأة مادياً من أجل كل ما تقوم به في البيت من أعمال ورعاية ضروري لتعزيز دورها وعملها داخل المنزل، فهو يؤكد أن مجهودها يُقابل بالتقدير، وأنه ليس من المسلّمات: "أنتِ امرأة وبالتالي هذا واجبكِ ويجب عليكِ أداؤه من دون تذمّر ومن دون مقابل."

من ناحية أخرى يجب علينا النظر للعمل المنزلي، كعمل. ونكافؤه كما نكافئ أي مجهود جسدي، عقلي، ونفسي آخر، فالأعمال المنزلية ليست مجرد نشاطات جانبية، وذلك لأن ربّة المنزل تعمل لعدد ساعات مساوية للمرأة العاملة خارج المنزل، إلاّ أننا اجتماعياً واقتصادياً لا نعترف بالأول بأنه عمل بالمعنى الصحيح والذي يستحق أجر، بل نستهين به، لكننا نعلم حق المعرفة أهميته، ولذلك نستقدم الأيدي العاملة لأدائه بالنيابة عنّا. بل سأذهب إلى أبعد من ذلك وأقول أنه يجب على الدولة تعويض المرأة المربية لأنها أهم موظفة في المجتمع فهي تربي وتكبّر وتعلّم وتهتم بموظفي ومهنيي الغد، الذين لا يقوم الاقتصاد من دونهم فهم المستهلكون، وهم العاملون وهم دافعو الضرائب. كما أن الدولة ستستفيد اقتصادياً إن هي عوّضت العمل المنزلي، واعتبرته عملاً بالمعنى الصحيح، لأن ذلك سيعنى احتسابه من ضمن الناتج المحلي الإجمالي أو "الجي دي بي GDP "وهو مؤشر اقتصادي دولي يحسب كافة السلع والخدمات (المعترف فيها) التي يتم إنتاجها محلياً في الدولة، وكلما ارتفع مؤشر الجي دي بي للدولة، دلّ ذلك على قوّة اقتصادها، وارتفاع مستوى معيشة الفرد فيها، إلاّ أن الخدمات التي تؤديها المرأة في المنزل غير معترف فيها حتى الآن.

نحن نستهين بالعمل المنزلي الذي تقوم به المرأة بالرغم أنه أساس كل الأعمال الأخرى، فالرجل العامل يحتاج لأن يجد ثيابه نظيفة ومرتبة في الصباح، ويحتاج أن يكون فطوره جاهزاً قبل أن يتجه لوظيفته مدفوعة الأجر، كما أنه يحتاج أن يجد غداءه جاهزاً والبيت نظيفاً عند عودته ظهراً وإلاّ عرقل عدم وجود كل هذه الخدمات قدرته على العمل والعطاء. والأبناء يحتاجون لمن ينقلهم للمدارس، ويجهّز وجباتهم،

ويساعدهم بالمذاكرة حتى يستمروا في تطورهم العلمي الذي سيؤدي في المستقبل إلى توليهم الوظائف. وبالتالي فإن العمل المنزلي ضروري وأساسي وشرط مسبق لكل الأعمال الأخرى.

النظرة الاجتماعية الدونيّة للعمل المنزلي دفعتنا لتحقيره، وعدم مكافأته، وحتى في حالة تفويض العمل المنزلي للخادمة الأجنبية المستقدمة من الخارج، فهو يظل أقل الأعمال من حيث المردود المادي، بالرغم أنه أكثرهم جهد ومشقة، كما أن العمل المنزلي خالٍ من الحماية والضمانات، فلا تستحق الخادمة الضمان الاجتماعي، ولا الضمان الصحي، ولا الإجازة المرضية، ولا الإجازة مدفوعة الأجر، وليست هناك قوانين تحمي أو تنظم هذه العمالة، وإن وجدت تلك القوانين فدائماً ما يتم تجاهلها وخرقها من دون محاسبة قضائية.

عدم مساهمة الرجل في الأعباء المنزلية، وعدم قيام الدولة بالاعتراف بالعمل المنزلي كعمل ودفع أجره للمرأة يؤدي إلى حاجة المرأة لاستقدام العاملة. لكن المرأة التي تستقدم العاملة - وهي عادةً المرأة التي تنتمي للطبقة المتوسطة أو الطبقة الغنية - تساهم في إبقاء الخادمة في الدرك الأسفل من سوق العمل، وذلك لأن المرأة التي تستقدم الخادمة تدرك أنها بحاجة للمساعدة لكنها لا تعترف بمقابل مادي عادل يتساوى مع المجهود المبذول من قِبل الخادمة، فتدفع مبلغاً زهيداً جداً للمرأة الخادمة، وقد يكون ذلك نتيجة تأثرها بالانطباع الاجتماعي الدوني للعمل المنزلي، بالإضافة لعدم رغبتها بتكريس جزء كبير من مدخولها الشخصي كأجر للخادمة. أياً كان السبب فالمرأة الغنية هي السبب في إبقاء الخادمة الفقيرة على فقرها.

الدول الفقيرة التي تأتي منها تلك النساء الخادمات تُشجع على تصدير المرأة كيد عاملة لأنها تضع ثقة أكبر في المرأة كعاملة؛ أي أن المرأة الفقيرة غالباً ما تذهب لدول الخليج الغنية، تكسب دخلاً وترسلهُ بالكامل لأسرتها الفقيرة، ومن خلال هذه المرأة تعيش أسرة كاملة، بل أُسر، ويتعلّم أطفالها، ويتطبب المسنون من أهلها. أما الرجل في تلك الدول الفقيرة، ففي الكثير من الأحيان يكسب الدخل لكنه لا يرسله لأهله، أو لا يرسل ما يسد حاجتهم بسبب أنانيّته وتبذيره لذلك الدخل على حاجاته الخاصة. ومن المحزن معرفة أن تلك الخادمة، تلك المرأة الفقيرة تتغرب، تترك أطفالها، تأتي لدولة غريبة، ولغة غريبة، ومجتمع مختلف تماماً عن مجتمعها لتغسل الحمامات بمقابل مبلغ زهيد جداً. كثيراً ما تقوم هؤلاء النساء الفقيرات بإرسال كل ما يدخلونه من الخدمة المنزلية إلى أزواجهن في بلدهم الأم، على أن يقوم هو باستخدام المبالغ الزهيدة تلك

لرعاية الأطفال، وبعد سنوات من العمل المضنى تعود الخادمة لبلدها لتكتشف أن زوجها كان يصرف المبالغ في لعب القمار وشرب الخمر.

لو تخيلنا أن كل الدول والحكومات صارت تعترف بالعمل المنزلي كعمل جدّي كسائر الأعمال، ومجهود يستحق الأجر، وصار الرجل يساهم في الأعمال المنزلية ويحمل جزءاً من الجهد عن زوجته، فسيعود ذلك بالنفع ليس فقط على ربّة المنزل ذاتها لكن على المرأة الخادمة الفقيرة أيضاً. فمن خلال مساعدة الرجل سيخف حجم المسؤوليات المنزلية عن المرأة، ومن خلال الأجر الذي تدفعه لها الدولة لن تشعر بالاستغلال وانعدام التقدير، ستُقبِل على العمل المنزلي بأريحية وثقة بأن وقتها وجهدها ليسا بلا ثمن، حتى ولو كانت تشعر أنها تعمل "شيفت" ثاني، فعلى الأقل فهي تكسب من هذا "الشيفت" كما تكسب من وظيفتها الصباحية. والمرأة الفقيرة الخادمة، إن افترضنا قيام كل الحكومات بالاعتراف بالعمل المنزلي ودفع أجره، فلن تضطر لترك أطفالها والتغرّب للاهتمام بأطفالنا نحن، لأنه سيكون لها دخل ومصدر رزق في بلدها مقابل اهتمامها بأسرتها.

لا وجود للمرأة خارج نطاق تربية الأبناء ورعاية الزوج

كثيراً ما يُقال أنه من الأفضل تعليم المرأة لأن تعليم المرأة سيعود بالفائدة على المجتمع، فهي من سينجب الأبناء، وتربية الأبناء من قِبل امرأة متعلّمة سيعود على الأبناء بالفائدة، من ثم سيعود على المجتمع ككل بالفائدة .

أو كما قال الطهطاوي في كتابه "المرشد الأمين للبنات والبنين": "أن تعليم المرأة يجعلها قادرة على مشاركة الرجل في الأحاديث وتبادل الآراء.." رغم أن الطهطاوي دعا إلى تعليم المرأة إلاّ أن هذه الدعوة اقترنت بالرجل، وبالتالي لم تخرج عن السياق التقليدي، لكن مع ذلك يعتبر تشجيع الطهطاوي لتعليم المرأة في القرن الماضي فكرة تقدمّية، نسوية.

وأحياناً في المجتمع الكويتي يتم حث المرأة على العمل في مجال معيّن لأنه أفضل لدورها كأم و زوجة، فساعات العمل أقل، والمردود المادي مناسب، وطبيعة الوظيفة غير مكلفة نفسياً أو جسدياً وبالتالي تمكنّها من أداء أدوارها الأساسية. أو يتم عدم تشجيعها على إكمال دراساتها العليا، لأن ذلك سيؤثر على الوقت الذي يجب عليها أن تقضيه مع أبنائها. في كل الأمثلة السابقة نجد ذات المرأة غائبة، لا وجود لها، وليس هناك أي أهميّة لرغباتها، شخصيّتها، أو طموحها، حيث أنه حتى في مجهودها بالحصول على العلم فإن هذا العلم ليس للمرأة ذاتها بل لفائدة أبنائها.

أي مجهود تبذله المرأة يجب أن يعود بالفائدة على أسرتها ومن ثم المجتمع. لا نعترف بسعي المرأة للقراءة والاطلاع لأنها هي ذاتها ترغب بالقراءة والاطلاع، لأنها هي ذاتها ترغب بتوسيع مداركها والتعرّف على أفكار جديدة، أو أنها ترغب في قراءة رواية خيالية لكي تعيش تجربة حياتية مختلفة عن واقعها. ولا نعترف بأن المرأة قد تكون مجتهدة وتحب العلم فعلاً لأنها تريد الوصول إلى مركز علمي أو عملي معيّن، كما يفعل الرجل تماماً. بل نصبّ علم المرأة أو عملها وكل اجتهاداتها ومحاولاتها في الحياة بالكامل في مصلحة أبنائها وزوجها ودورها بالأسرة. بل نقنعها أحياناً أنه لا حاجة لها بإكمال الدراسة إذا ما كانت تفكر في

ذلك، فالأفضل لها أن تربي أبناءها، ثم أنها ماذا ستفعل بشهادة الماجستير؟ فدراسة الماجستير ستأخذ منها الكثير من الوقت وأحياناً الكثير من المال، الوقت والمال اللذان من الأفضل لها أن تستثمرهما في أسرتها .

غالباً ما يحول المجتمع بين المرأة وطموحها في تطوير ذاتها أو خوض تجربة تسعدها وتشعرها بأنها إنسان كامل ذو كيان وفكر مستقل، وليس جذع شجرة يقضي طيلة العمر في تغذية تلك الأغصان التي تتفرّع منه.

ثم نجد أنها إذا انتظرت وصبرت إلى ما بعد نمو أطفالها وتقدمها في السن، غالباً ما تجد صعوبة في العودة للدراسة، إن كانت الدراسات العليا مطمعها.

من المخاطر التي تترتب على تهميش شخص المرأة بهذه الطريقة، أي ربط كل مهاراتها، علمها، وثقافتها في إفادة أسرتها ومن ثم إفادة المجتمع. أن المرأة ذاتها يتقلّص شعورها بالوجود الحقيقي، تشعر أنها ليست ذات معنى أو جدوى في ذاتها، بل أن المعنى والجدوى الوحيد لها هو بوجود أبنائها، أو زوجها. المجتمع بكامله لا يراها إلاّ في المستوى العلمي والثقافي لأبنائها، وفي مدى نظافة وترتيب بيتها، أو قدرتها على الطهي، أو مدى خدمتها للمجتمع عن طريق الإنجاب والتربية الجيّدة، فتنصهر شخصّيتها وتتبخر، فهي لا تملك خصالاً خاصة بها هي وحدها. وغالباً ما يعتبر المجتمع الكويتي التطابق في أسلوب الأمهات والتشابه التام في شخصياتهم، وأفعالهم وأفكارهم وأقوالهم، شيء مضحك ويُقال على سبيل النكتة، كأن يمزح البعض أن كل الأمهات يرددن مقولة أو نصيحة معينة، أو يأمرن أبناءهن بشيء معيّن، فيتفق الجميع أنه بالفعل كل الأمهات متشابهات ويحملن ذات الفكر. وهذا الواقع ما هو إلا نتيجة لنظام منهجي يطبقه المجتمع يهدف إلى إلغاء شخصية المرأة، إلغاء الخصال التي تميّز هذه المرأة عن تلك، فهي تعلّمت و تم تلقينها مبكراً أنه لا أهمية لها كإنسان مستقل ذو خصائص و دوافع و أحلام، بل أهميتها تكمن في الإنجاب والتربية فقط .

عندما تقتنع المرأة بعدم أهميتها كإنسان مستقل وفكر مستقل، فهي تفقد الكثير أو كل طموحاتها، تشعر أنه لا أهمية للسعي وراء أحلامها؛ سواء كانت شهادة، أو منصب، أو ابتكار فنيّ أو أدبي، أو مشروع تجاري/ثقافي/اجتماعي، ستشعر أنها مسؤولة عن مشروع واحد فقط، مشروع إلزامي وليس اختياري، هو إعداد أبنائها، حتى لو كانت لا تشعر بإشباع في هذا الدور المحدود، وذلك لأن كل امرأة مختلفة عن الأخرى، ودرجة عاطفة الأمومة الموجودة في كل أنثى مختلف تماماً عن الأخرى، فهناك من تحب الإنجاب

وهناك من تتحاشاه، هناك من تملك القدرة على الاهتمام بعدد كبير من الأطفال، وهناك من تعرف أنها لن تقدر على رعاية أكثر من طفل واحد، لأن الأمومة ليست مبتغاها الوحيد أو الأخير في الحياة. إبعاد المرأة عما تستطيع بناءه من مشاريع، أو ما تستطيع خلقه من فن وإبداع يضر المجتمع و يحرم المجتمع ما تستطيع تقديمه لو أنه أُتيحت لها الفرصة لذلك.

إلى جانب ذلك فإننا عندما نقنع المرأة بعد قدرتها على إدارة أي شيء سوى أسرتها فنحن نعزز لديها الشعور بالضعف، وعدم الاستطاعة، واستحالة الأمور. فنعطّل بذلك الكثير من القدرات الكامنة فيها. وإذا ما وجدت ذاتها يوماً من الأيام وحيدة، كأن كبر الأبناء ورحلوا عنها، ومات عنها زوجها، نجدها في حالة ضياع لا تدري ما تفعل بذاتها لأن وجودها وحياتها بأكملها تمركزت وتمحورت حول رعاية الأسرة. كما أننا ندفع المرأة التي لم ترزق بأطفال، أو التي لم تتزوج، أو التي انتهى زواجها من دون أبناء، لِذات الشعور من انعدام الفائدة وضياع الحيلة، لأنها تحيا في مجتمع لا يرى أي فائدة منها بذاتها بل فقط في إطار رعايتها لأبنائها .

وأد الإناث

لازالت الأُسر في الكويت تفضّل المولود الذكر على المولود الأنثى. ومن يدعيّ خلاف ذلك فهو بكل بساطة كاذب. المرأة عادةً إن كان مولودها الأول ذكر، تقول عند حملها الثاني: "عاد الحين نبي بنت" وكأنها الآن بعد أن أدت المطلوب منها، قامت بالواجب وأنجبت الولد، فهي لم تعد تحت ضغوطات اجتماعية، وبالتالي لا بأس من إنجاب بنت، فالبنت ليست المطلب الأساسي بل مجرّد فكرة ثانويّة، اكسسوار. أو قد يرغب الزوجان بابنة بعد عدد من الأبناء الذكور، لكنها مجرّد رغبة، لا تتساوى مطلقاً مع درجة البؤس، والشقاء واليأس، والإحباط، والحرمان الذي تعانيه الأم التي أنجبت عدّة إناث وتستمر بالحمل من أجل المولود الذكر، بالرغم أن أعصابها ومقدرتها العاطفية والنفسية لا تتحمل هذا العدد الكبير من الأطفال، إلاّ أنها تستمر بالإنجاب، لأنه تم تلقينها منذ الصغر أن المرأة التي لا تلد لزوجها ذكر، وريث، يحمل اسم العائلة قد فشلت بدورها كامرأة.

في حالة واحدة فقط نجد المرأة أو الزوجين غير مهتمين بجنس الطفل، وهي عندما يتعذر عليها الإنجاب، حاولا كثيراً ولم يستطيعا لأسباب صحيّة، فلم يعد يهمهما سوى الإنجاب أياً كان جنس المولود، وحتى في هذه الحالة، بعد أن يرزقا بابنة كمولود أوّل سيطمعان بالذكر وسيستمران بالمحاولة .

رأيت إحدى النساء تسأل متابعيها على حساب "إنستغرام": أريد أن أنجب ذكراً، أرجوكم إن كانت لديكم نصائح أو طرق، فدلّوني عليها، لقد أنجبتُ أربعة بنات حتى الآن، ولا أريد أن أستمر في إنجاب البنات، وأن أتعب في تربيتهن وتعليمهن من دون جدوى، أريد خلفة، أريد أن أنجب ولداً. وكانت النساء تنصحنها بالدعاء من دون أن تستنكر أحدهن قولها أن إنجاب البنات أمر سلبي، وتربيتهن وتعليمهن تعب لا فائدة منه .

تفضيل الذكر على الأنثى قد يتصوّر وروده لو كانت الأسرة فقيرة جداً وتنظر للمولود الذكر على أنه سيساهم في تحصيل الدخل للأسرة، بالرغم أنه في الواقع غالباً ما تساهم الأنثى بدخلها لمساعدة أهلها. وقد يتصوّر ورود التفضيل في الأسر غير المتعلّمة أو غير المثقفة لأن تفضيل الذكر من عادات "الجاهلية" كما ينص القرآن (سورة النحل 57 - 59). لكنني ولدتُ في أسرة من الطبقة المتوسطة، ووالداي متعلّمان، وحتى في هذا المحيط، أي بغياب الفقر، وبوجود العلم والثقافة يُمارس التفضيل. استمرّت والدتي بالإنجاب أملاً بالمولود الذكر، لم يكن هناك أي شك في رغبتها فغالباً ما كانت تصرّح بذلك، وعندما جاء الولد أخيراً، رأيتُ الفرق؛ الفرق في فرحتها، الفرق في تهنئة الناس، الفرق بسعادة والدي، الفرق بالمعاملة، الفرق في الرعاية، الفرق بالاهتمام، الفرق بالفخر. سواء كان التعبير بالكلام مباشرة، أو بالأفعال، أو حتى بالتواصل غير المنطوق في النظرات والإشارات، حتى بالصمت، كان واضحاً جداً أن الولد هو الأفضل، هو الأهم، هو الأغلى وهو الأعز. ما كان محزناً أن والدتي رأت أنه بعد "حرمانها" من المولود الذكر طوال كل هذه السنوات أنه يحق لها بعد كل هذا الانتظار التفضيل والتعبير عن التفضيل بكل أريحية أمام بناتها، رأت نفسها معذورة في تصرفاتها رغم أنها كانت أربعينية عندما أنجبته، وأقصد بذلك أن النضج العمري يحتم درجة معيّنة من الحنكة، وحسن التصرّف.

تم تعليم أخي بأفضل وأغلى مدرسة خاصة في الكويت، بينما تعلمنا نحن الفتيات بالمدارس العامة، والتحق هو بجامعة أجنبية بالخارج، بينما التحقنا نحن بجامعة الكويت. أنا بدوري درستُ جاهدةً في كلية الحقوق جامعة الكويت وكنتُ من المتفوقات طوال الأربع سنوات لأن حلمي كان الحصول على البعثة الدراسية لِدراسة الماجستير والدكتوراه في الخارج، لكن لم يكن حصولي على البعثة الدراسية مصدر فخر أو سعادة خاصة لوالداي، تعاملا مع الخبر من دون أي اكتراث، وقالوا لي أنهم ليسوا على استعداد للذهاب معي للدراسة في الخارج ولن يُسمح لي بالذهاب لوحدي، لذلك إذا كنت أنوي الذهاب فيجب عليّ أن أتزوج أولاً.

لكن ما أوّد توضيحه هنا هو الآتي، كان هناك إيمان أكبر بابنهما الذكر بأنه قادر على تحقيق طموحاتهم وأحلامهم والتي مفادها أن يصبح طبيباً، والدي كان يرى أن الولد يستحق أن يتعلّم بمدرسة خاصة غالية الثمن لأنه أقدر من الفتيات، لأنه أذكى، لأنه أفضل، وبالتالي لا بأس باستثمار هذه المبالغ. آمن والداي أن

دفع مبالغ كبيرة كي يحصل الولد على أفضل مستوى من التعليم من شأنه أن يوصله إلى دراسة الطب في جامعة كندية عالية المستوى، وقد حقق أخي المرجو منه. لكن الإيمان به، هذا الإيمان، الإيمان بأنه ذكي، مثابر، قادر على تحقيق الهدف، هو عامل رئيسي في قدرته على تحقيق ذلك الطموح. بل قد يكون الإيمان به هو أهم عامل. وانعدام ذلك الإيمان في البنات أيضًا له آثار، انعدام ذلك الإيمان بي من شأنه أن يعزز لدي مفهوم أنني لا أستحق أن تُصرف كل تلك المبالغ لِتعليمي، أنه لا تتوافر فِيَّ المقدرة أو الذكاء أو حتى الإصرار على التفوّق والنجاح، وأنه ليس مُهماً ما أستطيع وما لا أستطيع تحقيقه أكاديمياً، فأنا بالنهاية سأصبح زوجة وأما وسيكون اهتمامي فقط بأسرتي، لا يهم من أي جامعة أتخرّج ولا في أي وظيفة أعمل. عندما كنتُ أُعبر عن عدم عدالة هذا التمييز في التعليم بين الذكر والإناث على وجبات الغداء، كان والدي يغضب ويصرخ ويقول أنه حر، يفعل ما يريد، وأنه ليس من حقيّ الاعتراض أو إبداء أي رأي بالموضوع .

قد يدعي أخي أنه أيضاً شعر بالظلم وتمييز معاكس نتيجة إلزامه بحمل تلك المسؤولية، وهي عبء تحقيق ذلك التفوّق الدراسي لأن المدرسة غالية الثمن، ولأنه يتم صرف مبالغ كبيرة من أجله لا يتم صرفها على الإناث وذلك يجعله يحمل شعوراً بالذنب، وبأنه الولد الوحيد وبالتالي يجب أن يحقق تلك الطموحات والآمال الثقيلة المعلّقة عليه، وأنه لم يحق له اختيار تخصصه الدراسي بنفسه بل تم توجيهه إلى دراسة الطب، وبأنه تحمّل عبء تحقيق الحلم الذي رسماه له والداه، وهو أن يكون طبيباً وليس حلمه هو .

قد يدعي والدي أن إلحاق خمسة فتيات بالإضافة للولد في المدارس الخاصة مكلف مادياً، وباعتبار أنه غير قادر على تحمّل هذه المبالغ الباهظة لتعليمنا أدى ذلك إلى ضرورة التفضيل وإعطاء الأولوية لطفل واحد وحرمان الباقي. وقد يكون الرّد هنا: إذن ليتم تعليم كل الأبناء بالمدارس الحكومة المجانيّة إن كانت المقدرة المادية هي المشكلة.

التمييز يظل تمييزاً، التمييز في شتى أنواعه أمر سلبي له آثار مادية ونفسية وخيمة. آثار مادية تتمثّل بالفرص الوظيفية، ومستوى الدخل ومن ثم مستوى المعيشة نتيجة التمييز. وآثار نفسية من حيث درجة الإيمان والثقة في النفس؛ قد أؤمن بنفسي وقد أجتهد وأسعى معتمدةً بالكامل على ما أملكه من إيمان وثقة بنفسي وبقدراتي، ومع ذلك يظل إيماني بنفسي، وتظل ثقتي في نفسي أقل من تلك التي يحملها أخي لذاته،

لأن إيمانه وثقته بنفسه مؤكدة ومعززة، ومستمدة من أبويه اللذين استمرا في تأكيدها له يومياً طوال حياته، فأخي يملك مصادر أخرى يستطيع أن يستمد منه الثقة والإيمان بالذات إذا ما اهتزت ثقته بنفسه وإيمانه بها نتيجة التحديات والصعوبات التي يصادفها في الحياة. أماّ أنا فيجب أن أخلق تلك الثقة لنفسي يومياً، ذاتي تستمد قوّتها من ذاتي، وليس لي من يؤكدها أو يعززها في المراحل الصعبة أو أثناء مواجهة التحديات، هذا بالإضافة إلى عيشي في المجتمع الكويتي الذكوري الذي يفخر، ويدعم، ويؤمن بنجاح الرجل، ولا يفخر أو يؤمن، أو يدعم نجاح المرأة ولا يبدي أي اهتمام لإسنادها أو تعزيزها. هذا بالإضافة إلى أن معظم سنوات دراستي للماجستير والدكتوراه كنتُ متزوجة لرجل (طُلّقت منه أثناء دراستي في الخارج) لم يكن ولو ليوم واحد داعماً أو مسانداً لي، بل كان يكره نجاحي، ويكره كوني متفوقة عليه أكاديمياً. وأثناء غربتي ووحدتي واعتمادي الكامل على نفسي بكل شيء، كنتُ وحيدة أيضاً بتربية ابنتي، فلم يكون هناك أي عون أو دعم من أي شخص. هكذا تجد المرأة الكويتية نفسها وحيدة إذا ما رغبت وسعت للنجاح.

ثم كيف يؤثر تمييز والدي بين أبنائه وتفضيله للولد على نظرة أخي للنساء؟ ألن ينظر إليهن أنهن أقل استحقاقًا منه في الفرص الحياتية؟ ألن يقنع أنه من العادي ومن الطبيعي أن يملك هو حقوقاً وحريّات لا تملكها النساء في حياته. وإذا رُزق بخمسة بنات وولد، ألن يستسهل إرسال ابنه للمدارس الخاصة ويحرم البنات؟ وإن احتجّت إحدى بناته، ألن يغضب ويصرخ عليها ويقول لها أنه لا يحق لها إبداء رأيها، كما كان فعل والده؟

نحن كبشر نتاج البيئة التي غُمِسنا وتربّينا بها، نحن نتاج الفكر الذي تم غرسه فينا منذ طفولتنا، نحن مجموع الصور، والأصوات، والآراء، والذكريات التي تعرّضنا لها والتي تشربانها منذ الصِغر، نتصرّف وتتشكّل سلوكيّتنا على أساسها وهي انعكاس لها وفي كثير من الأحيان من دون وعي كامل منّا .

كل ما نعرفه عن الحب تعلمناه من والدينا في طفولتنا

هل لاحظتِ أنك تزوجتِ رجلاً شبيهاً بأبيكِ؟ ليس شبيهاً له بالملامح والشكل طبعاً، لكنه يشبهه في الفكر، وفي الأسلوب، وفي الشخصية، وفي التعامل. أو أنكِ لم تتزوجي بعد وقد لاحظتي أنك تصطدمين بنفس النوع من الرجال؛ تلتقين بشاب، وبعد معرفة تدوم شهوراً أو سنوات، تختلفان وتفترقان، ثم تلتقين بآخر، وبالرغم أنهما مختلفان تماماً بالملامح الخارجية، إلاّ أن الحوار والصحبة والمخالطة تُظهِر لكِ أنهما متطابقان تماماً بالشخصية، قد يميل كلاهما للانفعال الشديد والصراخ على أبسط الأمور، أو العكس؛ يميلان للبرود العاطفي واللامبالاة وعدم الاكتراث. فتتساءلين؛ هل كل الرجال نسخة موحدة؟ أم هو حظّكِ العاثر الذي يجذب إليكِ نفس النوع من الرجال؟

حظّكِ ليس عاثراً، والرجال متنوّعون في الشخصيات - وإن كان هناك قاسم مشترك بينهم وبعض الطباع المتشابهة بسبب نُموّهم بذات المجتمع وحملهم لذات الثقافة - لكن ما يحصل معكِ هو أنكِ تنجذبين لنفس النوع من الرجال، لأن هذا النوع وهذه الشخصية هي الأقرب لوالدكِ. الآن، إذا كان والدكِ رجلاً عاقلاً، وطيّبا ومتفهّما، ومُحِبا لابنته وزوجته، ويُظهر لأسرته المحبّة بالكلام أو الفعل، فلا مشكلة لديكِ إن انجذبتِ لمن يشبههُ. لكن المشكلة تكمن عندما يكون الأب عنيفاً، قاسياً، سريع الغضب، غير عادل، كثير الصراخ، يميّز بين أبنائه الذكور والإناث، يضطهد ويهمّش الإناث، ولا يهمّه إظهار أي مودّة، أو أُلفة، أو حميمية تجاه أسرته، هنا للأسف ستكونين في خطر الانجذاب لمن يحمل ذات صِفات والدكِ[20]. قد تتساءلين؛ ولماذا أختار من يشبه والدي إن كانت صفات والدي سلبيّة؟ فمن الأحرى أن أتجنّب الشخصيات المقاربة له، وأختار شخص ذا خصائص إيجابية!

نعم من الأحرى أن تختاري من يتحلى بالخصائص الإيجابية، لكننا كبشر نتعلّم معنى الحب، وماهيّة الحب، وكيف نحب من البيوت التي نشأنا فيها في طفولتنا، ومن والدينا بالذات، فهما أوّل من نرتبط بهم بعلاقة حب، وسلوكهما وخصائصهما وأسلوبهما بالتعامل والحديث، ينعكس بالكامل على كافة العلاقات التي نكوّنها

[20] بالطبع الإنسان لا يشترط إما أن يكون ملاكا أو شيطانا، كلنا نحمل بعض الخصائص الإيجابية والسلبية. لا أقصد هنا أن الأب إما أن يكون طيباً تماماً أو شريراً تماماً، فقد يكون طيب بشكل عام، لكنه سريع الغضب والصراخ، أو أنه لا يصرخ بتاتاً لكنه بخيل على زوجته وأبنائه، أو ويعاملهم ببرودة ولا مبالاة، أو أنه كثير الغياب ويسافر باستمرار

عندما نكبر، فمنهما نتعلّم كيف ننظر لأنفسنا وكيف ننظر للناس من حولنا. فإذا كانا والداكِ ينتقدانكِ باستمرار فستكون أصواتهم وآراؤهم فيكِ هو صوتكِ الباطن الذي ينتقدكِ باستمرار، ويخبركِ بأنكِ عديمة الفائدة، أو عاقة، أو ساذجة، أو مُعقدّة وسيؤثر ذلك على ثقتك بنفسكِ مدى الحياة. أما إذا كان الأمر على العكس، وكانا يغدقان عليكِ بالمديح والاهتمام فسيكون رأيهما الإيجابي هو صوتك الباطن الذي سيملؤكِ بثقة عالية في النفس. هذا من حيث تأثيرهما على نظرتنا لأنفسنا، ثم أننا نكتسب منهما مبادءنا، وقِيمنا، وميولنا، وتفضيلاتنا في الحياة؛ لاحظي نظرتكِ للسمنة (مثلاً) إذا كان والِداكِ شديديّ الكراهية للسمنة، فلقد سمعتيهما طوال طفولتكِ ينتقدان ويسخران من فلان وفلانة بسبب البدانة. ثم يصبح ذلك صوتكِ الباطن، فتكثرين من مراقبة جسدكِ في المرآة، وتُرعبكِ فكرة اكتساب بضعة كيلوجرامات، وما أن تصبحي امرأة و يزداد وزنك بشكل طبيعي، أو بسبب الحمل والولادة، إلاّ وقد بدأتِ بانتقاد وكراهية ذاتك، وانغمستِ في عالم الريجيم الحالك، الذي بمجرد دخولكِ فيه لن تستطيعي الخروج منه، فتخسرين الوزن ثم تكسبينه ثانية، وتخسرينه وتكسبينه وكأنك في حلقة مفرغة، وتذهبين للنادي الصحيّ وتفعلين كل ما بوسعكِ لخسارة الوزن، وتقولين في نفسكِ؛ أنكِ تفعلين كل ذلك من أجلكِ، لكي تحبين ذاتك وترضين عنها. لكنكِ لو دققتِ أكثر، وإن أنصتِ باهتمام أكبر لذلك الصوت الذي بداخلكِ فستجدين أنه صوت مشابه لصوت والِديكِ اللذين يكرهان السمنة ويسخران من أي شخص بدين، صار صوتهما هو صوتك الباطن، فتسخرين من جسدكِ بين صديقاتكِ كوسيلة للتخفيف من الضغط النفسي الذي تشعرين به، ولأنكِ متأكدة أن الأعين التي تنظر إلى جسدك تحكم عليكِ وعلى وزنكِ بأشنع الأحكام كما كان يفعلان والِداكِ، صرتِ تحاولين أن تسبقين هذه الأحكام، بالحكم على ذاتكِ، فتلقين بالنكات التي تقلل من قيمتكِ لذاتكِ أمام أصدقائك، وكأنكِ تقولين: أعرف ما هو ظنّكم بي، وأنا كذلك أظن أنني بدينة وبشعة وها قد قلتها علناً. وعادةً ما يحتاج من حولكِ أن يطمئنكِ بأنكِ جذابة وأنك لست سمينة ويجب أن لا تنتقدي نفسكِ بهذه الطريقة .

عندما كنّا صِغاراً والِدانا كانا أهم شخصين بالنسبة لنا في هذا العالم، ننتمي لهما، نحاول جهدنا لنحصل على رضاهما ومحبتهما، وحبهما لنا وإن كان مشوباً بالغضب، والصراخ، والعنف، والسب والدعاء علينا بالموت، كان هو تجربتنا الأولى التي تتلوّن بها كل تجاربنا المستقبليّة في الحب، ولأننا كنّا صِغاراً فلم نكن بالإدراك أو الوعي الكافي أن نصححهما عندما يلقون علينا باللوم، لم نستطع القول: أنتم مخطؤون لستُ شيطانة، أو

حيوانة، أو قبيحة كما تدعّون، ولم نملك الحق لأن نمنع والدينا عندما كانا يصرخان علينا، أو يصرخان على بعضهما البعض، ولم نكن نُدرك أن العنف ليس حباً صحيحاً، بل شيئاً مشوهاً يدّعي أنه حب. لِذا عندما كبرنا ومضينا في الحياة صرنا نبحث لا إرادياً ومن دون وعي عن الحب الذي يشبه الحب الأول الذي عهدناه من والدينا، بالرغم أن ذاك الحب كان مؤلماً وضاراً، لكن العقل الباطن حفظه باعتباره التعريف الوحيد الذي يملكه عن الحب.

فإذا كان والدكِ سريع الغضب وكثير الصراخ، فسيتولّد في عقلكِ الباطن أن الحب هو الصراخ والغضب، فتتعلمين أن تعبّري عن حبكِ بالغضب على من تحبين وبالصراخ عليهم، ثم تبررين ذلك بأن صراخكِ وغضبكِ دليل على اهتمامكِ، كما أنك ستتفادين - لا شعورياً - الرجل هادئ الطبع، وسيقنعكِ عقلكِ الباطن أن هدوءه هو دليل على عدم اهتمامه بك، فوفقاً للتعريف الذي خزّنه العقل الباطن للحب، فلابد من وجود انفعال وغضب و صراخ ليكون حباً. وستنجذبين إلى من هو سريع الانفعال والغضب وكثير الصراخ .

وقد لا يكون والدكِ غاضباً أو انفعالياً، لكنه غير ودّي، ويكره المشاعر والعواطف، ويمكن وصفه بما يُسمى بالإنجليزية Emotionally Distant ، هنا ستنفرين من أي رجل يعبر عن مشاعره اتجاهك، خصوصاً إن كان شديد العاطفة وسريعاً في التعبير عن مشاعره، وسيقول لكِ عقلكِ الباطن أنه لا يمكن أن يكون صادقاً، لأن الأمر ليس بهذه السهولة، وليس بهذه البساطة، فقد قضيتِ طوال حياتكِ محاولةً الفوز بحب ومودّة والدكِ الذي بدوره حاول جاهداً تجنّب إظهار أي مودّة أو قبول اتجاهكِ، وبالتالي فالحب كما تعرفينه أنتِ صعب المنال ولا يمكن الحصول عليه مباشرة وبهذه السهولة.

وقد استخدمتُ أعلاه صوراً لعلاقة الأنثى بوالِدها وكيف لتلك الصور أن تنعكس على علاقاتها الشخصية واختياراتها، والأمر ذاته ينطبق على علاقة الذكر بوالدته، فالأُم التي تنتقد ابنها كثيراً تدفعه للبحث عن امرأة تكثر من انتقاده. ولا يقتصر الأمر على علاقة الأب بابنته، والأم بابنها، فكيفيّة تعامل الأم مع ابنتها و مدى تعبيرها لها عن حبها من عدمه، يؤثر كثيراً على القيمة التي تضعها الفتاة لِذاتها. والأمر ذاته ينطبق على تعامل الأب مع ابنه، فالأب الذي يكثر من الصراخ على ابنه وانتقاده له، يولّد في ابنه شعوراً بالنقص.

لكن بما أنني مهتمة في هذا الكتاب بالنسويّة والمرأة بشكل خاص، أود أن أؤكد هنا أهمية تعبير الأبوين

بحبهما لابنتهما، فالوالِدان اللذان لا يريان أي أهمية للتعبير عن حبهما لابنتهما، ويستمرآن في وضع ضغط نفسي كبير على الابنة بوجوب إقرارها بفضلهما عليها؛ "احمدي ربّك أننا نأخذك للمدرسة، احمدي ربّكِ أن لكِ بيتاً وغرفة خاصة بكِ، احمدي ربّكِ أننا سمحنا لك بالذهاب للجامعة، أو قيادة سيارة"، هم بالواقع يدفعانها باتجاه الرجال الذين يسيئون معاملتها ويبخلون عليها بالمعاملة الطيبة. فهي لا إرادياً تنجذب لذلك الرجل الذي يشعرها دائماً أنها لا تستحق شيئاً ولا حتى الكلمة الطيبة، لأنه انعكاس للحب الذي عهدته في طفولتها وفي بيتها.

كثيرة هي القصص التي تثبت مدى تأثير انعدام عاطفة الأب على حياة ابنته العاطفية، وأعرف امرأة نشأت تحت ظل أب سريع الغضب، كثير الصراخ، شديد العنف، وقد تزوجت رجلا مشابهاً له تماماً ثم طُلّقت منه، ثم تزوّجت بعد ذلك برجل متزوّج بالرغم أنها صغيرة في السن، وجميلة، وليس لديها أبناء فمن الممكن لها أن تتزوج برجل غير متزوّج، والمحزن أيضاً أن زوجها الثاني هذا أيضاً سيء العشرة، لكن تجربتها هذه طبيعية، فقد عاشت طوال حياتها في كنف رجل سيء، يقسو عليها وعلى والدتها وأخواتها فمن الطبيعي أن تتكرر تجارب طفولتها في تجاربها الزوجية. ومن الطبيعي أن تنجذب لمن يسيء إليها، لأن عقلها الباطن برمجها بأن الحب هو العنف، والصراخ، والغضب .

ولأنني تعلمتُ ما تعلّمته أعلاه، فقد صرتُ يومياً أقول لابنتي بأنني أحبها، وبأنها جميلة، ورائعة، وذكية، وبأنها كاملة تماماً، وبأنها تضفي لحياتي معنى، وبأنها أهم ِشخص في حياتي، أضمها وأقبلها في الصباح وقبل النوم، أُنصت إليها عندما تحدثني، وأبدي إعجابي بأفكارها، وأتابع ما يثير اهتمامها، وأُغدق عليها بالمديح عندما نكون وحدنا وأمام الناس. لم أتعلّم أي من ذلك من والداي، اللذان كانا لا يعرفان شيئاً سوى الصراخ والعنف اللفظي على أبنائهما وعلى بعضهما البعض، لكنني مصرّة تماماً أن لا أدفع بابنتي باتجاه رجل ينقص من قدرها، ويبخل عليها بالمعاملة الطيبة، ويُشعرها دائماً أنها غير كافية كما هي.

قد يظن الأبوان أنهما غير مضطرين للتعبير عن حبهما لِبناتهم بالكلام، فهم يوفرون المسكن، ويشترون لهن الأكل، ويهتمون بتعليمهن، وطبابتهن، ويشترون لهن الملابس، ويخرجون معهن بقصد الترفيه وهذا إثبات

كافٍ لمحبتهم. لكنه ليس كذلك؛ المسكن، والمأكل، والملبس، والتربية، والتعليم، والطبابة هو واجب الآباء، لا يشكران عليه، لأنه لا شكر على واجب. وتوفير الأساسيات الجسدية من مسكن ومأكل وملبس للبنات لا يُغني عن توفير الأساسيات النفسية والروحيّة، كما إن كان الأبوان يبخلان بالحنان وبالتعبير عن الحب لبناتهم فسيكونان السبب الأول والأساسي في دفع بناتهم للبحث عن هذا الإشباع من شباب ورجال يتسمون بنفس بخل الوالِدين في التعبير عن الحب والقبول .

إلى الرجل الذي يعود - خاطرة

الى الرجل الذي يعود بعد أن فارقها شهوراً وأعواماً،

إلى الرجل الذي يعود بعد أن تزوج ابنة عمه، ليرضي أهله،

إلى الرجل الذي يعود بعد أن قال لها: "احنا ما نصلح حق بعض"

إلى الرجل الذي يعود بعد أن قال لها: "الله يوفقك مع واحد أحسن مني" لكنه في الواقع يقصد: "الله يوفقك مع واحد أرجل مني"

إلى الرجل الذي يعود بعد أن أكد لها أنه لا يستطيع الزواج: "آنا مو مال زواج" قال لها، فاكتشفت بعد أيام أنه تزّوج من أخرى لا يعرف عنها غير أن أمّهُ رأتها ترقص في أحد الأعراس، فأُعجبت برقصها!

إلى الرجل الذي يعود كذكرى الحرب، مُثقلا بالجثث والدمار، يجر الخيبات، جِدارٌ يكاد أن ينقض، ينخره الرصاص..

تسألني كيف حالي؟

حالي كالشمس، كشمس تموز الحارقة، أسطع الساعة الخامسة فجراً متوهجة واثقة، تتمنى لو أنني أتأخر في الطلوع قليلاً، أو لو أنني أسرع بالغروب قليلاً، فأريحك من ذكراي، ترفع عينيك إليَ محاولاً لقائي، فأقهرك بإصراري

تسألني كيف حالي؟

حالي كالصحراء، أمتد، وأمتد، ولا تدري إن كنتُ أبداً أنتهي، لا فَيَّ بي ولا ماء، تضيع في كَوْني، في فسيح رحابي، تمشي منهكاً، تموت عطشاً، تَوَدُّ لو تعبر حدودي، أن تجد منيّ مخرجاً، تتساءل أين هي نهاياتي؟

تسألني كيف حالي؟

حالي كالمطر، تتمنى هطولي، تصلي استسقاء حضوري، ويبدو أنني أهطل في كل أنحاء العالم إلاّ عالمك، وأسقي ظمأ البشر، إلاّ ظمأك، أملأ الأغصان ورداً والأرضَ زرعاً، ويظلُّ غُصْنُكَ من بين الغصون يابساً جافاً قاحلاً، تمدّهُ نحوي بخوفٍ وخجل، فتكسرهُ رياحي.